

الامام علي بن أبي طالب

الجزء الخامس

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

هدية الشهيد السيد
السيد محمد الدين محمد الطهري
لمكتبة الروضة البهية

٢٩٢٢



نذر معاوية — وعينه من الصباح للغرب على هذه البقعة من الميدان — لن
أظفرو الله من بعد بريعة ليجعلنها أمثلة العرب مثلة ، وليقتلن منها المقاتلة ،
وليسبين النساء ...

وكان حنقه هو الذي ألهمه نذره ... فالتهاز السليخ إلا أقله . ولعة الشمس
غابت في الغرب . وللساء أقبل عليه بسواده وما تزال هذه الطائفة ، كبذنها
الوقعة ، كالعلم ، على قدم ...

حين أخرج « الحضرية » ترحف كان الصير كله في يمينه . العزة له . الدهرة
لغيره . الموت والخوف والفرار تنتشر أمامه في صفوف على انتشار النار ..
في اليمين . في القلب .. في الطليعة .. في كل مكان من أرجاء الميدان إلا هذه
البقعة الصغيرة من ميسرة أهل العراق التي دافعت عن حرمها « بريعة » . وقد
حمتها حقيقة كالحرم . ووقفت دونها تردد دس الهزيمة ... من ساعة الظهيرة
لم يرعها القتل الذي هاج في رجالها حتى انقضى عمر هذا النهار ، وكانت ثقة
معاوية والشمس تزهو أن ظفرو بها رهين ساعة تصول فيها « حمير » ثم ينتهي
بعدها القتال .

غير أنها لم تتزلزل . وجاهدت باليد والقلب كتيبتة التي أعلنتها الحضرة ،
وحركها زهو ابن عمز ، وجيشتها حمية ذى الكلاع . لم يقص فيها معاوية وطره .
ولم تفتنها — حتى هذه اللحظة التي شاعت خلالها عنمة المساء — أفانين تغريه
إنما غالبته في قلنها كأنها كثرة ، وتمثرت بها خطاه الوسيعة حتى آثر جمعه المدل
المختال أن يمشي إليها الموهبي على حذر ، بصابر القدر ، ويداور الوقت عسى أن
تلوح له في صفوفها المرصوفة ثغرة تنقض الجدار .

وطال بهذا العناد العجيب أجل الصراع وانقضت سويحات ذلك اليوم بطيئة
رتيبة ، كعيس القافلة ، يتبع اللاحق السابق ، ويلوى بعضها على بعض ، دراكا
دراكا على منبسط الرمل كأن أحادها العديدة دابة واحدة تسير . ثم تدور
وتسير ، ثم تعاود الدوران والمسير ...

هدية الشهيد السعيد

السيد من الدين محمد المصطفى

لمكتبة البروفة والبيدرية

احتدام التزال لم يأخذ منها . ولا اشتداد العدو . ولا تحول النهار .. إنما غيرها نالت منه العمرة ، وهزه الجهد ، وأوهنته الساعات ... الزهو في صدر ابن عمر بهت . الحمية في نفس ذي الكلاع بردت . الثقة بقلب معاوية في النصر السريع العاجل نرف معينها قطرة قطرة حتى عاد يؤمن ، وهو أسيف ، أنها كانت حدسا خالصا زيفه عليه وهم الحيال ... وعندما شحب لون النهار ، وغاض في الأفق ينبوع النور ، كان الخوف — كالظلمة الزاحفة على السكون — يزحف إلى فؤاد العاهل المتوجس زحف الرقطاء .

وانتفض كحجموم . من حنق وقلق . ومن خشية وحيرة ... ففي جوانب الميدان أخذت نقط صغيرة بيضاء تبدو لعينيه من بعيد على الأديم الأغبر كأنها قطر الطل . ثم راحت تتقارب كالنمل . ثم صارت تلتئم وتنتظم هنا وهناك ، عقوداً موصولة ، فرفائق كالسحب ، فكسفة واحدة كثيفة من السواد وقد صبغتها ظلال المساء ...

الشراذم المقطعة من جند على رتقت فتقها من بعد تمزق . والفلول الفرارة آبت إلى الصبر بعد الحور ، وإلى الوحدة بعد التفرق ... الآن غابت فرصة النصر العاجل ، غربت كالشمس . خبا رجاء ابن أبي سفيان . غدت أهدافه — التي بدت له في النهار دانية — في مشرق الأنجم ! ..

ليس ثمة ، هذه اللحظة ، في جوانب اللوامة رجل واحد من رجال الإمام إلا نضا عن نفسه الفرعة الأولى ، التي أذهلته حين تهاوت للميمنة العراقية ، ثم لاذ بإيمانه ... كلهم رجع يلتف بالأشتر . كلهم عاد إلى مكانه الأول قبل الفرار . كلهم فاء للولاء والفداء . وما كاد جمعهم يلتئم حتى التحم بمدوه وقائدهم الجديد الفارع ينطلق أمامهم كالرمح ، نافثا في أرواحهم من عزمه ، نافثا فيها من صدقه وهو يسبق إلى مهاوى الردى خطاهم ...

ورددت جنابات صفين صيحة الأشتر :

« . إن القرار فيه سلب العز ، وذل الحيا والميات ، وعار الدنيا والآخرة .. » فلم تبق بعدها أمامهم هنا قدم ثبتت إلا أن تكون قد بترها عن جسدها

حسام ، وكان اليوم حينذاك يدنو المغرب . . . ولم تبق هناك حيال ربيعة من
الحضرية أصابع تحمل السلاح إلا أن تكون تقبضت عليه وهي على الثرى رمام ،
وكان النهار حينذاك يذوب في المساء . . .

عندئذ نذر معاوية في نذرة : رجالها ذبح ، ونساؤها إماء . . .

وضاقت عليه من بعد آفاقه . . .

الهواء الذي يحرك رائتيه ينفذ إليه من سم إبرة . قلبه إن خفق شرق ، دقته
رجفة كاهتزاز السراج المريض وهو يلفظ آخر لمات شماعة ، ونبضته خلجة
كومضة الشهاب المنقض إلى هاوية الظلمة . . . الر في حلقه . الحسرة في نفسه .
القلق في لح عينيه . حتى هذه النجوم المجلوة — تلك الليلة الساجية من ليالي
الصحراء — لاحت له تتدأب وتضطرب ، وتظهر وتغور ، وتزهر وتعم كأنما
تداولتها سحاب من ضباب فكره المحير . . .

وقال معاوية لحليفه لعله بالحديث يقتنص فرجة لهما :

« أما ترى ، يا أبا عبد الله ، ما قد وقعنا فيه . . . إنا لبعرض خطر عظيم . . »

فأغضى عمرو وهو يجيبه الجواب الذي لا يخفف قلقا ولا يكف حيرة :

« إن أصبحت ربيعة متعطفين حول طي تعطف الإبل حول خلها لقيت منهم

جلادا صادقا ، وبأسا شديدا ، وكانت التي لا يتمرى عنها . . . »

فيا لربيعة ! . . .

ياله منها اليوم ، وغدا ، وبعده إن امتد به على أرض الواقعة أجل أحلامه . .

فهو الشجى الذي يفس به الخلق . وقد يشرق ، فلا يمود يزفر أو يشق . . .

وهي قطرة السم في الدسم . . . وهي بموضة « عمرو » . . . وكلما انطلق والزمن

طالعه من خلاله نكبة فيها لربيعة إصبع ، وعليها من أثرها ظل . تثبت حين ينفرط

الناس . وثبت فتوهى شداده وأجلاده . وثبت حتى يلم الأشر من شعث القرار ،

ثم يقر ، فيصبر ، فيكر كأنها حينذاك حصاة الملح غمست في ماء أجاج فراح

يحمد عليها ذوبه ، ويتبلور ملحه ، رويدا رويدا ، حصاة حصاة . . .

كل أحلامه انهارت أمامه وأنباء هذا القتال تأتيه ، لحظة بعد لحظة ، في قبته البيضاء . . . لم يطل دم ابن بديل . لم يذهب هذرا . لم يدم مكث هذا الشهيد وحده إلا قطعة من يوم وهو بذلك المجاز المجهول الذي يفصل وادى الحياة الضيق عن أودية الموت . فما انقضت عليه سويعات ، سا كذا بمصرعه ، منذ تهاوى عليه الصخر ، حتى تبعه من عدوه مئة خاسرة ، مئة أخسر ، فمئون بعدهم عديدة بادت مثلهم باليوار ولحقت به إلى المجاز المجهول . . . الليسرة التي شردت في النهار ميمنة على طارت ترحع مع القروب على جناح الهزيمة . مشاتها انشنت بهم سوقهم كالأعواد المقصوفة إلى مشاوبهم فوارسها اختلطت جثتها على الأديم يبقايا الأفراس . والبقية الذين أمهلهم العمر أعجلهم الدعر فولوا سراعا عن الليدان ، يلصقون بقلب جيشهم . عند القبة البيضاء ، كأنما يتشدون في ظل عاهلهم الحزين الحماة .

* * *

وقال الإمام لميمنته التي نسلها الأشتر من ذلة الخوف والقهر وطفنا بها على سطح العزة :

« . . . إني قد رأيت جولتكم ، وانحيازكم عن صفوفكم يحوزكم الجفافة الطعام وأعراب أهل الشام . فلولاً إقبالكم بعد إداركم ، وكركم بعد انحيازكم ، وجب عليكم ما وجب على اللولى يوم الزحف دبره . ولقد هون على بعض وجدى أنى رأيتم بآخره حزنهم كما حازوكم ، وأزلموهم عن مصافهم كما أزالوكم ، تحوزونهم بالسيوف ليركب أولهم آخرهم كالإبل المطردة الهيم . . . فالآن فاصبروا ، أنزلت عليكم السكينة ، وثبتكم الله باليقين . . . »

فصبروا كصبره . ولم يسدل الليل الذي زحف ظلامه على مواقع الحرب سقرا حاجزا بينهم وبين الأعداء . كما في النهار ، جمعتهم الأمسية على خصومة وتناجز . ليست الواقعة تدور الآن في ركن ربيعة في كل ناحية تنسج للقدم تدور . كالرحى الحاصدة لا تكف من أمام لحاف ومن يمين ليسار . كقطر الطل على الرمل تنارت دماؤهم تبل صدى هذه البقعة التي أحرقتها حرارة النهار . . . ليست

القوى المتصارعة هي وحدها تلك التي قدمتها الظهيرة ، وصاحبها العصر ، وعكست جراحها الحمراء على وجنة الأصيل . بل الليل أيضا أطل بعينه الوسنانة على الصراع . والظلف تبعه ظلف ، والخف تبعه خف ، والسواعد والأقدام تزاوجت على الفناء والنجاء من أمام لوراء ومن وراء لأمام ... عجت الحلبة بهم أجمعين : ثعالب وآسادا ، من هذا الفريق ومن ذاك ، عجيج الحلبة بنحائها تفيض بالدوى وتمتلي بالطينين . وكانت الحناجر تهدر كالرعد ، والسيوف تلمع كالبرق ، والجياد تركض كما صفة ، والليل — دون هذه العلام الفوارة — فيها هدوء ودعة ، على سمائها صفاء وسلام ، وفي نجومها تزهو وابتسام ..

٢

عندما سكب الليل سواده على رمال صفيين ، لاح أمام معاوية قبس من الأمل ، رقيق كالطيف ، لامع كالشماع . على دفئه تبددت همومه كما تبدد الضحوة ضباب البكور . وعلى برقه تبين أحلامه تنهض من كبوة ، فتتنفض غفوتها ، وتلمق جراحها ، ثم تمضي قدما في طريقها للرسوم ...

وارتاح العاهل ... كرة أخرى يعاود عبيد الله بن عمر محاولته . الآن قام لما بدأ . تسربل بالليل . تسلل من بين ظلاله بكتيبته الخضرية ، ليباغت ربيعة العنيدة من وراء ظهرها ، لعله يظفر منها في الظلمة بما أوهن عزمه طوال النهار ...

وانطلق عبيد الله . وانطلقت خلفه الآلاف الحضر تشرب الرمال الظمأى وقع قدمها وخفها وحافرها ، وتسترد كنة الأمسية زحفها للريب ... الأنجم في الأفق أعين . القمر ينسج للسكون الأغبر بردة رقيقة من خيوط نوره البيض . ولكن الجوع الزاحفة مضت لطبتها ، لا يشي بها الرمل ، ولا العيون الساهرات في منافذ السماء ، ولا الظلال التي ألقتها آحادها العديدة على الأرض ، فما كان أكثر الظلال التي مدها حولها في هذه الناحية كثيب ، وفي تلك كثيب ...

في خفية كان انطلاقه . وعلى روية وحذر . وإلى غاية له دانية تنفسح وراءها سبيله إلى النصر . . . البغته سلاحه . الظلام مسربه ، الصفوف التي تساندت هناك عند حد بصره آمنة السرب ، تغالب الإعياء بعد حرب النهار ، هي الفريسة للشهامة . غير أن قلبه في قفص ضلوعه كان — فيما أحسب — يتوثب كالطائر ، يضطرب من قلق ، يحتاج على وقع قدميه . وكلما دنا من عدوه وضافت الشقة ضاقت معها نفسه ، وانقبض صدره ، وامتد أنفه ليلقف الهواء . . .

لكأنى به كان يحس أنه سائر إلى قدره . فما برحت دعوة الحسن بن علي تصك سمعه وتسرى إليه على النسمة . من خلال الظلام الخيم . كان يبرز له وجه صبط الرسول كالغرة في الليل ، ماثلاً لعين مخيلته . أينما أدار بصره طالعه . وحينما انطلق لاحقته همساته تصور له الحتام الرهيب القريب . ولم يشغله عن الغرة زحفه ، ولا عن الهمس ضجيج جنده على أرض الديدان ، بل ظل ذلك الهيا الوضيء يبدو حياله في سواد أمسيته ، وعلى صفحة القمر ، وبين ثنايا السحاب الرقيقة . وظلت الهمسة للندرة تسرى إلى مسمعيه ، من الهدأة الساكنة ، ومن وقع الخطا للزقاة على الرمل ، ومن ديب قلبه للضطرب وهي تردد له مصيره في تواتر رتيب رهيب :

« سيصرعك الله . . . ويطحك لوجهك . . . يومك أو غدك . . . »

وما هي كذلك بالدعاء الوحيد ، في يوم واحد نعب الشؤم فوق رأسه مرتين نعيّاً هز فيه إيمانه بالمجد واطمئنانه إلى الحياة . . . عمار أيضاً دعا ، بشفتيه الذابلتين ذبول وريقة الخريف ، دعاء ثقل له قلبه وشرق حلقه وغامت عيناه . وإنه ليخضى الآن إلى حيث يريد مباغتة ربيعة وفي أذنيه دوى ذلك الدعاء :

« صرعك الله . . . »

فيتلفت حوله ، باحثاً في الظلمة عن الشفتين الذابلتين ، والوجه المضميم للعروق ، والقامة النحيلة التي براها عمرها الطويل وكأنما في حسيانه أن عماراً روح نهم في الفضاء لا تردها عنه حدود الزمن والسافة ، حتى إذا غارت في الظلام نظراته ، وتاه باله الحيران ، نشط خياله المحموم فرأى وسمع ما لاتنقله صورة ماثلة ولا يؤديه لسان قوال :

« يا ابن عمر . . . بعت دينك بالدنيا من عدو الله وعدو الإسلام . . . »

وإذ ذاك يردد لنفسه كالمسحور :

« كلا . ولكن أطلب بدم عثمان . . . » .

« أشهد على علي فيك أنك أصبحت لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله .

فانظر إذا أعطى الله العباد على نياتهم ما نيتك . . . » .

ثم يحمد الحيال . . .

وما هذه أيضا بخاتمة الأحاديث التي هزت دخيلة فؤاده بالطيرة . . إنه في هذا

الصباح — نفس هذا الصباح الذي يختم ليله بزحفته المخالسة ، قد سمع مازلزلته ،

وصبغ دنى أحلامه بالسواد . . . فلقد تهيأ حينذاك للقتال وقام نساؤه يشددن

عليه — كماداته — سلاحه . إلا الشيبانية بنت هاني* انتحلت عنه ناحية . فلما

فرغ وهم أن يبرح ، صر بها كأنما يبكتها على ما كان من قعودها عنه .

قال لها وهو يدل باعتزازه :

« إني قد عبأت اليوم لقومك . وإيم الله إني لأرجو أن أربط بكل طنب

من أطناب فسطاطي سيداً منهم . . . » .

قالت المرأة ، ولم ترفع وجهها إليه :

« ما أبغض إلا أن تقاتلهم . . . » .

« ولم ؟ » .

« لأنه لم يتوجه إليهم صنيدي إلى أبادوه . . . » .

فابتسم . أدل عليها فلعلها أدلت عليه . ولكنها ما لبثت أن أردفت

بنبرة أسيانة :

« أخاف أن يقتلوك . . . » .

« ويحك . . . » .

« وكأنني بك قتيلاً وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لي جيفتك . . . » .

عندئذ ثار . وأهوى عليها بقوسه فشجها .

وحين غادرها ، خلف في أذنها كلماته المغيظة للزهرة :

« ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك . . . » .

على أنه إن تغافل نبوءة الحسن وتناسى دعاء عمار ، واستهان بتطير الشيبانية لم يكن قط مستظيما أن يحجو من ذاكرته كلمات الإمام يوم عدا على الهرمزان فقتله انتقاما لأبيه عمر الذي جند له خنجر أبي أوأوة . كانت ترن في أذنه . فر فلاحته إلى حيثما سار . طارده خلال الأعوام الطويلة السالفة في خلال خلافة عثمان من سنة لسنة ومن مكان لمكان ، ولم تفاجح حماية الخليفة الشيخ إياه ، وتراخي قبضته اللينة عن عنقه ، أن تجعله في مأمن من القصاص المنتظر . وها هو الآن وقد عاش كالشريد ، ولحق بالمسكر الذي حسبه سيجنبه نعمة ذلك المستمسك بحق ربه فيه ، لا يزال يسمع من وراء الزمن كلمات على كآها القضاء المقدور : « لئن فاتني في هذا اليوم لا يفوتني في غيره . . . » .

يسمعهما تنبّع من مواقع خطاه . ويسمعهما من صليل السلاح في كتيبته الحضرية وهو يزحف بها تحت كسفة الظلام . ويسمعهما ويتلفت حوالبه كأعما يتوقع أن يبرز له الإمام من ثنایا الليل لينفذ فيه ذلك القضاء . حتى إذا أشرف على مقصده ، استغرقته بعد ذلك هذا حركة جنده ، فيمضي شأوه وقد تقص عن نفسه ما جسم وهمه ، وانطلق في جمعه الملم ، إلى غلبة خايلته ، ونصر تراءى له قريبا — قريبا هناك تنفس سبيله وراء هذه الصفوف التي قامت دونه ودون مجده للرموق منذ الصباح . .

أما عمار فهو حينذاك في خلوة مع ربه ، غاب فيها قلبه عن حومة الصراع ، وخشعت نفسه ، وامتدت عينه إلى القبة السامقة التي نطقها الكواكب ، يضرع ويناجي الله ودمعه يبلل عيانه :

« اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت . . . اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك أن أضع ظبة سبني في بطني ثم أنحنى عليها حتى يخرج من ظهري لفعلت . . . اللهم وإني أعلم مما علمتني أني لا أعمل اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم اليوم عملا هو أرضى لك منه لفعلت . . . » .

أما معاوية فقد أنساه رجاؤه للمعاود ، ووثة ابن عمر ، ولعة الظفر التي صاحبها في بدء خطاه ، أن الامل والوثة والمعة جميعا رؤى وأحلام . إنها لتعجب عنه حقائق لولا وهمه لم تكن لتغيب . تعجب عنه ما في يمينه . وتعجب عنه ما تحت عينيه . وتدع خياله الجامح يسبح به في عوالم من الفراغ بغير نهاية ولا حدود . فصحيفة النصر التي كتبها له النهار قد طواها الغروب . أودعها الماضي . جعلها أسطورة . . . ومنذ ثبتت ربيعة ، ثم قوم الأشر بقية الخطوط ، ثم فرت الحضرية بات واضحاً أن حظ عاهل الشام في هذه الحرب عثر ، وأن نجمه غار . وليس هذا رجماً بغيب ، ولا انسياقاً لطيرة . ولكنه نتيجة حتمية نمت عنها طبيعة القتال والعوامل النفسية التي كانت تحرك خطأ أعدائه وأوليائه على السواء . فما كان عمرو بكفء عمار ، ولا ابن عمر نظير هاشم ، ولا هو نفسه يطول قدر الإمام حين ينظر إلى نتائج المعارك خلال الإيمان بالفكرة قبل الإيمان بالكثرة ، ومن ثنايا القدرة على الجلال والشوق للشهادة قبل تراكم العدة والأعداد من السلاح والأجناد . . . ومن اليسير أن نقبين أن الشك كان دائماً في جانبه ، وأن اليقين كان دائماً في جانب خصمه . وحليف الريبة أبداً خاسر ، وصاحب الثقة أبداً ظافر وإن توطأت للأول للنازل وتوعرت دروب الأخير . . على هذه الهيئة نفس معاوية والحضرية معاود الهجوم : رجاء ساطع ولكنه سراب ، وقلق باهت ولكنه ثابت . وهل يغنيه أن يتشبث بمد هذا بالمنى العذاب الحلب وأفعى الريبة تنشب نابها في فؤاده ؟

ومع ذلك فلم تنتصف له الحضرية ، ولم يختلب ثمرة النصر التي شق في سبيلها جيشه الكبير كان الكفاح كرة وفرة ، وغلبة ودبرة ؟ والعيون التي لاحقت ذلك الصراع من ثنايا الظلام كان عسيراً عليها أن تعجز القهور من القاهر ، والخاسر من الظافر . فاليدان مضطرب هنا وهناك بالخيول والرجل والمشاة والفوارس من هذا الفريق ومن ذاك ، وقد اختلطت الصفوف والخطوط كانتكاث الخيوط . والظلام مهيم على الثرى المخبوء إلا للحبات كوكب طالت عليه شقة السير وأوهن عينه السهر . . .

تلك ليلة حازية ذاق فيها مفاوية صاب الموت وما مات . لفحت قلبه في
جوها الرطب البليل ريح مثلوجة ، أوشكت أن تشله ، وتحيل الدم في عروقه
قطعة من جليد . . .

وكانت الريح من نفحات ربيعة !

إذ ذاك كانت هذه الفئة العنيدة من جنود غريمه تخطو نحوه على زوبعة ،
وتسرع على إعصار ، وتيمم من بين مصافه وفرقه وألويته شطرقيلة لها وحيدة ،
بيضاء كالغرة بين مضارب عسكره ، لا تفلتها الأبصار .

ونحله حرصه على الحياة ذعراً مجنوناً نار يحسده الذي شلته البغته فاندفع
يعدو إلى غير غاية كالفرس الجامح حتى خلف قبه البيضاء إلى خباء من أخبية
جنوده يتوارى فيه . . .

وتلاحقت أنفاسه اللاهثة تختلط بهمسة :

« يا وريح ربيعة ! . . . لئن أظفرتني الله . . . » .

ثم لم يتم صيغة نذره إذ نفث شيطانه في ضميره فومضت عينه ، وهدأ جأشه ،
ومال بفرجه على أذن رسول . . .

وعندما تهاوت من صفوف حماته الخمسة ثلاثة ، وخرق الرابع ، وهمت
ربيعة تقصف الأخير ، كان رسوله قد بلغ غايته ، وتقدم يسر الخالد بن العمر
رسالة العاهل للمهبط للدعور :

« إنك قد ظفرت . . . لك إمرة خراسان إن لم تتم » .

ولم يعقب خالد .

وشهدت الواقعة الظفر يندثر . . .

وشهدت الليلة القائد المهاجم يعود . . .

وشهدت ليلة سواها لاحقة ، عقيب أعوام ، ذلك الحائن وهو يسير على
طريق خراسان وفي يمينه كتاب توليته عليه خاتم ابن أبي سفيان . . .

الرضا في العين ، والحيرة في الفكر . اللعنة في الأفق ، والجحيم في الصدر . . .
معاوية إن نجأ إلى حين . وإن اجتاز من الخطر غمرة فأمامه بعد غمرات . .
هو لا يفسى أنه الآن بإزاء عصابة من أصحاب علي واحد فرقة ، وفردهم كتيبة ،
يتوثبون إلى المصارع توثب النحل على الزهر ، خفاف الخطا ، ثقال القلوب من
يقين فلا تهزها الخطوب ، ولا ترجها النوازل

الآن هو بإزاء هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . دعاه الإمام : « أقدم ! »
فلبأه ، ووقف مصغيا بين يديه لحديثه وفيه دعاية ومزاح :
« يا هاشم . . حتى متى تأكل الخبز وتشرب الماء ؟ » .
فابتسم الرجل وأجاب :

« لأجهدن على ألا أرجع إليك أبدا . . . » .
« إن بإزاءك ذا الكلاع وعنده الموت الأحمر » :
« أما والله لتعلمني ، يا أمير المؤمنين ، إن شاء الله ، ألف بين جماجم القوم ! »
ثم استضحك ومضى بلوائه تملكه خفة ليست فيه هي غرس الشوق للفداء .
فلما وقف بصحبه على حافة وديان الموت ، راح يسألهم وعينه تحيط بالمسكر للقاء :
« من أولئك ؟ » .

قيل :

« أصحاب ذي الكلاع » .

« وأولئك ؟ » .

« جند أهل المدينة وقريش » .

« ومن عند هذه القبة البيضاء ؟ »

قالوا له :

« معاوية وجنده . »

« فإني أرى دونهم أسودة . . . »

« ذاك عمرو بن العاص وابناه ومواليه .

فأعاد عينه إلى رفاقه ، وهتف في ثقة واعتداد :

« . . . إذا رأيتموني هزئت هذه الراية ثلاثا فاعلموا أن أحدا منكم

لا يسبقني إلى الحملة . . . »

ثم تخير من بينهم واحدا وأوصاه :

« . . . فإذا رأيته قد صرعت خنذها . »

وسار يرقل بلوائه ، وإلى جواره عمار بن ياسر نضا عن نفسه وهن التسعين

واشتد في سيره ، كلما رأى من رفيقه التؤدة في الزحف راح ينخسه بسن رجه

معاتبا ويتمجله :

« أقدم يا أعور ! . . لا خير في أعور لا يأتي الفزع ! . . » .

فيضحك هاشم ويرد عليه :

« رحمك الله يا عمار . . . إنك رجل تأخذك خفة الحرب . وإني إنما أزحف

باللواء زحفا وأرجو بذلك أن أنال حاجتي . . . » .

ثم يتقدم فيركز الراية . فإذا تنامت له الصفوف عاد للزحف من جديد . . .

وقال عمرو بن العاص ، وقد بدت الفرق الراحفة أمام عينيه تنطلق وئيدا ،

وتقاتل وئيدا ، ولا تسكاد تمضي بها القدم خطوة أخرى إلى أمام حتى تظهر

الأرض من كل منازل :

« إني أرى لصاحب الراية السوداء عملا . . . لئن دام على هذا لتفني

العرب اليوم ! » .

وتساءل معاوية :

« من هذا للقبيل ؟ »

قيل :

« هاشم للرقال » .

فعمدئذ طفرت به الفرعة ، وصاح :

« أعور بني زهرة ؟ . . قاتله الله ! » .

ثم خاطب ابن العاص :

« ويحك يا عمرو ! . . إن اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة ، وقد كان يرقل به من قبل إرقالا . . . فلئن زحف به اليوم زحفاً إنه لليوم الأطول لأهل الشام ! » .

وهو الآن بإزاء عمار . . أفينكر قدره ؟ . . أم يغفل خطره ؟ . . أم ينسى تلسم السنين المواضي التي سطر هذا للعمر الشيخ في سجلها خفراً يرمى بكل خفر ، وصبراً أو هن عزائم الكفر قد باركه محمد وحياء الله ؟ . .

لا ينسى معاوية ما كان . . إن الغابر لينساب إلى ذاكرته ، قطرة قطرة ، حسرة حسرة ، حتى تتجمع بها شوارد ظلاله وخطوط نوره وتلتئم صورة كاملة للفناء في الحقيقة الواحدة التي كل ما عداها باطل هباء . . فيومذاك — والعرب فوضى همل ، والحكم بينهم لهيل والعزى واللات ، والدين نزر والشرك بحر — عذب عمار ، وقتلت أمه سمية ، وفتك بأبيه ياسر أمام عينيه فلم ينل من إيمانه كل هذا الإيذاء مثلاً يقضى عين ذباب ! . . وعندئذ أكرمه ربه ، وأنزل فيه والصابرين معه :

« والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ، لنبوئتهم في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . . . » .

فكأنما استأخره الله لموتة أخرى تبوء بإثمها طائفة من سلالة معذبيه ، وكأنما حدد أجله — ذات نهار سالف ، من نحو جيل — ذلك الحديث الذي جرى به لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذات نهار كان المسلمون إبانة يماونون نبيهم في بناء مسجده ، ويحملون إليه الأحجار حجراً حجراً ويعمل عمار حجريين حجريين ، والجهد على عياله ظاهر ، والخشية أن ينوء — وهو هزيل ضعيف — تضطرب في خواطر الكثيرين . . .

وأشفق محمد عليه :

« يا أبا القظان ، لا تشفق على نفسك » .

ثم ما لبث — وقد تكشف لبصيرته أن تعب عمار ذاك ان يودى به ، وأن
حينه لا زال بعيداً — أن رق له ، ومسح ظهره ، وبشره :

« إنك من أهل الجنة — تقتلك الفئة الباغية . . . » .

وها هي الآن : هذه الفئة للنكودة ، تضطرم نفوسها تمهراً لصرعه وإن
بقيت فيها قلة ذكرت فراح القلق ينوشها خشية أن تحقق عليها قوله الرسول فتبوء
بشر منقلب ، وتؤوب أخسر مأب . حق ابن العاص كانت الخشية تهز عصبه ،
وكانت الريبة ترج قلبه ، وكانت نفسه المفتونة بزخرف الحياة يرين عليها الانقباض
والوجوم كلما سبغ خياله إلى ساعة من عمر هذه الحرب قد تطلع الليلة ، أو في
غد ، أو ذات صباح على عمار وهو مقتول . . ولقد ساقه فزعه إلى الشيخ بإلقاء
بكلام عساه يعطفه إلى صفوف فئته ، أو يبعده عن مهاوى الأجل بوقعتهم تلك ،
فيجنبه حينه إلى حين ، تتجنب الشام أن تبوء بدمه . ولكن ابن ياسر كان
قد عزم عزمه ، وعرف موطنه ، وعلم من نفسه أنها على هدى وحق ، فلم يختله
الدهاية الخائل ، بل ذاق من لسانه كل مهانة وتعقير . .
وقال عمرو بعد فشل حيلته :

« . . ولم تشتمني يا أبا اليقظان ولست أشتمك ؟ »

أجابه الشيخ :

« وبم تشتمني ؟ أتستطيع أن تقول إنى عصيت الله ورسوله يوماً قط ؟ . . » .

« إن فيك لسبات سوى ذلك . . » .

فسخر عمار من لمز غريمه :

« أيها الأبترا . . إن الكريم من أكرمه الله . . . كنت وضعياً فرفعتني

الله ، ومملوكاً فأعتقني الله ، وضعيفاً فتقوانى الله ، وفقيراً فأغنانى الله . . . » .

وغضب معاوية إذ فشا خبر ذلك اللقاء في رجاله ، وإذ علم الكثيرون بحديث

عمار والفئة الباغية التي تجندله فتد النار . . واستحضر إليه ابن العاص يلجأه :

« ويحك ! . . أفسدت على أهل الشام . »

« وكيف ؟ » .

أكل ما سمعت من رسول الله تقوله ؟

قال عمرو يعتذر :

« قلتها ولست والله أعلم بالغيب ولا أدري أن صفيين تكون . . . قلتها
وعمار يومئذ لك ولي ، وقد رويت أنت فيه مثل الذي رويت فيه . . . »
وقلب العاهل كفيه من حيرة ، وغام وجهه ، ثم أسر لنفسه وهو متوجس :
« هلكت العرب إن أخذتها خفة العبد الأسود . . . »

وهو الآن بإزاء قيس بن سعد بن عبادة ، مارد الأنصار . لو قد هادن معاوية
زمانه لقبع ذلك الداهية بالمدينة يجتر فيها آلامه . . . لكن الحق أبقظه ، وأحي
غضبة الجبار فيه . . . فما كاد يشمر كيد صاحب الشام ويخرج العملاق من أرض
النيل حتى انبرت له طائفة بمستقره الجديد ، تنخسه بسخريتها مرة ، وبشتماتها
أخرى وهي ترجو أن تخيفه أو تذله . . . وكانوا جميعهم من حزب عثمان ، ومن
جماعة ابن هند وأذنايه الذين أيدوه باللسان ، وناصروه في صراعه بالهتان ،
ورنوا غير حافلين بالمبادى السوية إلى أن يعيدوا إلى الحياة عهداً مات ، قد طوى
الغابر أيامه ، وختم شرووه وآثامه ، وغربت الشمس على وجهه البغيض . . .
وقطع حلقهم غفوة الأنفوان . . .

وعندئذ نفخ إهابه ، ونفخ سحره ، وانطلق يسعى وهو يفع ، يضرب
بذيله ، ويبدى نايه ، ويلوك لعابه . . .
هنالك عيروه إذ نزع ابن أبي طالب ووضع مكانه ابن الصديق عاملاً
على النيل . . .

توعده مروان . . .

وهدهد الأسود . . .

وركبه حسان بن ثابت بالبهتان والشهامة :

« نزعك على ، وقد قتلت عثمان فيق عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر . . . »

فضاق بالمارد اللقام ، وعنف بالشامت الضير :

« يا أعمى القلب والبصرا .. والله لو لا أن ألقى بين وهطى ورهطك حرباً
اضربت عنقك ! .. » .

وسار من فوره فقدم صفيين يضع عمره وسيفه في يد الإمام ..
وربيع معاوية فبعث للأسود ومروان ، طرفي تلسم الجماعة المناصرة للحقهاء :
« أمددتما عليا بقيس بن سمد ورأيه ومكانه . . . والله لو أنكما أمددتما
بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأعظم لي ! .. »

وبإزائه أيضاً الأشتر ، صاحب منجج والنخع ، وأعدى الناس لباطل
الشام ، وأول ناصر لحق الإمام .. وحين يذكر الأشتر فقد ذكر الذي لا يشبت
لعناده صابر ، ولا يتقدم عليه مغامر ، ولا يسبق خطاه حين الغمرة مقدم .
الذي حرك الدم إذ جمد ، وسعر القتال إذ برد ، ولما خلب النصر وكان لقي بين
برائن الهزيمة .. ثبت وقد تفرق الناس ، ونهد وقد قعد الناس ، وكر بطوائف
على وأجناده وهم حينذاك مزق وحلول فعدوا به كتلة مرصوصة من البطش
والأيد ، ومن الصبر والجلد ، ومن البذل والفداء ، لا تزال تضرب وتنطلق قهقري
من عدوها العزائم ، وتززل تحتها المواقف ، وتنتثر بينه الخوف والمصارع ، وليس
لها من ورائه غاية إلا تلسم القبة الكبيرة البيضاء !

ثم دع عنه الأشتر ، فدونه غيره كثير . . . دونه الأحنف بن قيس ،
ودونه سهل بن حنيف ، ودونه أبو أيوب الأنصاري ، وصعصعة ، وجارية ،
وابن صرد ، وابن عباس — رجال لا يطولهم الأبطال ، وليس كمثلهم خلاصة
الرجال . فمنذ له هو الآن ؟ عمرو ؟ ابن عمر ؟ ذوالكلاع ؟
أم هذه الملائفة من أهل بيته ، كعتبة والوليد ومروان ؟ ..

كلما أدار ذهنه فيهم طاموه بالتخاذل .. جمعهم يأمرون حين تحزبت عليه
الأمور عسى أن يحكموا له الرأي ، أو يسوقوا المشورة ثم يحرم حديثهم إلى حمية
تدفنهم دفناً إلى الوقوف لابن أبي طالب صخرة عاتية تسد طريقه أو توهبه ...
وانبرى عتبة بن أبي سفيان — كأنما ينطق بنزع أخيه — يشير فيهم النخوة
وهو يذكرهم ثأرهم لدى علي ، ودم الأسلاف الذي بل رذنه ، وصنع كفيه ،
وسقى التراب تحت قدميه :

« إن أمرنا وأمر على لعجب ، ليس منا إلا موتور . . . »
ثم عدد لهم مصارع الآل :

« . . . أما أنا فقتل جدى ، واشترك فى دم عمومتى يوم بدر . . . وأما أنت
يا وليد فقتل أباك وأينم إخوانك . . . وأما أنت يا مروان فكما قال امرؤ القيس :
وأفلتهن علباء جريضا ولو أدركته صفر الوطاب
وتذاكروا جميعا بلواهم ، واجتروا همهم وما منهم إلا ناظم يكاد نسانه لو طال
عليا لناله منه ما تجبن السيوف عنه . . . عندئذ حسب معاوية أن قد بلغ غايته ،
فتكلم بحفزهم :

« هذا الإقرار ، فأين الغير ؟ »

قال مروان يسأله :

« أى غير تريد ؟ » .

« أريد أن يشجر بالرماح . . . »

فإذ ابن الحكم — وقد قبذت له الحياة فى جانب يهم أن يقتحمه على عليه —
غدا كالمدلى إلى قبره وما يزال نفسه ملء صدره . . . ألما يتشبث بالحافة
قبل أن يبلغ القاع ؟ ألا يؤثر السلامة ، وينسى النقم ، ويطل الدم ؟ . . .
بل قد أثر الرجل ، ثم سخر :

« إنك يا معاوية لهازل . . . » .

وتبعه الوليد يتهم :

« غير ؟ » .

أتأمرنا بحية بطن واد إذا نهشت فليس لها طيب ؟ »

ثم عرض به حين نكل عن مبارزة على ، وعرض أيضا بصاحبه عمرو حين
اتقى للنية بسواته . . .

وخزى ابن هند ، وصمت . . .

وغضب ابن العاص ، وثار :

« إن كان صادقا فليلق عليا أو ليقف حيث يسمعه صوته . . . »

٤

فرغ الشجار وانقض السامر . . .

انقضت تلك الجلسة بين معاوية وذويه ، وعلى هو هو ، ملفوفا برهبة تصدم عن لقاءه إلا أن تنوشه ألسنهم العيابة . أما النخوة ، وأما خروجهم له فرادى في مجال مبارزة ، أو خلسة لغيلة ، وأما تأثرهم منه لمن قتل من آبائهم وأهلهم في با كورة الإسلام فظلت كأنها حديث حلم وهينمة نائم . . .

ولم تكن هذه الجلسة وحدها مشهد للملاحاة القريد بين العاهل وآله ، والخلص من رجال نيته ، والخيرة الملتفة حوله من عشيرته . . . في كل يوم كان له معهم حديث ، ومنهم شكوى ، وفيهم حث ونقث وتحريض لملهم أن يكفوه خصمه ، ويرسموا لغيرهم من الأعوان أدوة الكفاح . . . ولكنهم كانوا دائماً يؤثرون السلامة إن علموا الغمرة ستدنو بهم من يد الإمام ، فالنأى عندئذ أجدى ، والتولى أجمل . . .

ولقد بلغ من نهافت بعضهم ما لعله أطمع الناس في مجموعهم بأكماله ، فكانت نظرة الجيش الأموي إلى خاصة معاوية كالنظرة إلى معرة . وأنكرت العامة تأمرهم ، وضافت بهم قبائل المحاربين ، وبات معاوية لا يأمن بعدها أن يختلف عليه أجناده الذين قلد أمورهم رجالا من بين أولئك النفر من آله وقومه ، السلف بأصله ، الهين بفعاله . . .

جاءه من اليمن امرؤ لم يكتف عنه ما خالج النفوس من موجدة على أولئك الأبراء الذين قدمتهم الأحساب ، يقول له :

« يا معاوية . . . إني قلت شيئا فاسمعه ، وضعه مني على أنه نصيحة . . . »
« هات .. »

« عقلت لبسر وأصحابه وما الناس حولك إلا اليمن
فلا تخططن بنا غيرنا كما شيب بالماء محض اللبن ! »

ومضى الرجل بشعر يضم نخره بقومه ، ولا يغفل غمز من تأمروا عليهم من
خاسة العاهل وأقربائه ، حتى كبا لحديثه وجه معاوية وأظلمت من الخجل عيناه .
وأغضى ابن أبي سفيان ملياً ، فلما رفع محياه الذي طافت به خطوط خزيه ،
قال عاتياً لوجوه اليمن :

« أعن رضاكم ، قال هذا ما قال . . . »

فلعلهم استحيوا حينذاك أن يجبهوه ، واكتفوا بأن ترفقوا له في الجواب :

« لا مرحباً بما قال . . . »

وعندئذ فاءت إليه نفسه ، وبطن رده عليهم بمألوف مداورته وليته :

« إني إنما خلطت بكم ثقاتي وثقاتكم ومن كان لي فهو لكم ، ومن كان
لكم فهو لي »

ولكنه في قرارة نفسه كان يعلم أن مداقته إياهم ليست تنال الرضا منهم ،
ولا تبدد من سخطهم على الوضع القائم إلا بقدر ما يبدد النسيم من جبل . . .
ما كان هذا ليخفي عنه وهو العليم بالناس ، الخبير بالأنفس ، العارف بأطوائهم
كمعرفته طواياه . . . بل الأيام أيضاً صدقته حدسه وحققت له ظنه المستريب فيهم
كما حققت بأسه من وفاء أهله له ، وبذلهم من أجل أهدافه سواء بسواء . . .
وكان ذلك وقد حميت الوقدة ، واشتجر الناس ، وأوفت الحرب على
الفصل . فإذ ذاك دعا إليه مروان يحثه :

« إن الأشتر قد غنى وأقلقني . فاخرج بهذه الخيل في كلاع ومحصب ،
فالقه . . . »

فما زاد ابن الحكم على أن أجابه بغير مبالاة :

« ادع لها عمراً فإنه شمارك دون دثارك . . . »

قال العاهل يدهاهنه :

« وأنت نفسي دون وريدي . . . »

« لو كنت كذلك ألحقني به في العطاء ، أو ألحقته به في الحرمان . . .
ولكنك أعطيته ما في يديك ومنيته ما في يدي غيرك . فإن غلبت طاب له اللقام ،
وإن غلبت خف عليه الهرب . . . »

ففرغ صبر معاوية وصاح :

« يغنى الله عنك . . . » .

وأقبل عليه عمرو يقول رياء وشماتة :

« والله إني لا أقول لك كما قال مروان . . . » .

فتار العاهل الحليم لهذا الللق للكشوف :

« ولم تقوله ؟ . . . قدمتك وأخرته ، وأدخلتك وأخرجته ! »

وهنا لم يموز عمرو أن بيده بما يكره :

« قدمتي كافيا ، وأدخلتي ناصحا . . . قد أكثر القوم عليك في أمر مصر ،

فإن كان لا يرضيهم إلا أخذها فخذها . . . »

ولكنهما تصافيا . . . وخرج عمرو في كلاع ويحبسب للأشتر ليعلم سيده أنه

رام نصره لا يرجو ثمناً سوى رضاه . . . فإذا هو — وقد سدد خصمه إليه رصحه

— ينثني ، ثم ينأى ، ثم يفر إلى النجاة والحياة . . .

وعندئذ صاح به فقي من جنوده :

« يا عمرو . . . عليك العفا ما هبت الصبا . . . يا حمير . . . إنما لكم

ما كان معكم . . . أبلغوني اللواء . . . » .

وثبت الفقى حيث هرب قائده ، وقضى وهو قائم على قدميه في الميدان .

وشمت مروان بعمرو . . .

وغضبت الجنية ، وعادت سخطها القديم . . .

وقال قائلهم لمعاوية :

« تولى علينا من لا يقاتل معنا ؟ . . . ولرجالنا ، وإلا فلا حاجة

لنا فيك . . . » .

وقال شاعرهم :

« معاوى إما تدعنا لعظيمة يلبس من ذكرائها الغرض بالحقب

قول علينا من يحوط ذمارنا من الحميريين الملوك على العرب

ولا تأمرنا بالقي لا نريدها ولا تجعلنا للهوى موضع الذنب . . . »

هذه غيرة خلصائه ، وتلك الروح التي سirt خطاهم — أو قعدت بهم —
والساعات تجري سراعا إلى خاتمة صفيح . ولقد ألهه أن ظل على دائما بنجوة
عن المبارزة ، أو الهجمة ، أو الغيلة يتقدم بها إليه دارع أو حاسر من أبطال
الشام حتى غدا لا يظهر لهم إلا لووا عنه أفراسهم وتحاموا لقاءه . وكم تقم منهم
معاوية فعلهم ، وعاب عليهم تهافت القلوب وتبدد الحمية كأنما نسي أن نكوصه
هو عن نزال الإمام قد عساه عليهم التشبث ببقية العمر . . . وكان دائب التلب
لهم ، لا يكف عن تأنيبهم كلما ضاقت عليه الأحوال :

« العجب يا معشر قريش أنه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فعال يطول به
لسانه ما عدا ابن العاص . . . فما بالكُم ؟ . . . وأين حمية قريش ؟ . . . »
فقليلًا ما حفلوا . . . لا يحرك حفزه وتعييره فيهم دماءهم الراكدة ، البيضاء
كلما . . . إنما انطلقوا دائما وسقتهم للأمن ، يسمعون كسمع الصم إن ارتضوا
السكوت عنه وعافوا الملاحاة والجدال . . . ولقد يشهد الرجل منهم الرجل من
الدهاء والحنالة يستفزه حفز العاهل فيقدم حمية يبارز الإمام فلا يعد غير بصره
يتابع اللقاء إن كاد . ولقد يحنق معاوية هذا الجلود الذي التزموه فيعدو حلمه ،
ويحنف لهم في اللقال فلا يدعونه وغضبته ، بل يبادلونه للمرة بعمرة ، ويردون عليه
عنفه الصاع بصاع ، والذراع بذراع ، وإن جهره ، وإن على ملأ الأجناد

كذلك فعلوا غيب نكوله عن مبارزة علي ، وما من بينهم شريف واحد
مقدام يسل سيفه ليدفع به عن « شجاعة » . ولأه التي اقتحمتها الأعين ولا كتبها
الأفواه ثم لفظتها على الرغام . . . إنما انبرى دونهم رجل من عرض الناس ،
هو عروة بن داود الدمشقي ، بهم ليأخذ مكان سيده ، وقد امتلأ بالفرور صدره ،
وحى أنه ، وعمى قلبه ، ولعت عيناه — نطق حينه بلسانه فصاح :

« إن كان معاوية كره مبارزتك ، يا أبا الحسن ، فهلم إلى . . . »

وهذا بال ابن هند وارتاح . . .

وعجبت الشام . . .

وتقدم إلى علي بمض رفاقه يثنونه عن الفرور :

« ذر هذا الكلب فإنه ليس لك بخطر . . »
ولكنه أبى إلا أن يجيب للغامر إلى ما أراد ، وقال :
« والله ما معاوية بأغيب لى منه . . دعونى وإياه . . »
ثم هتف يحدث المغرور المختال :

« اذهب يا عروة فأخبر قومك ! »
فإن هى إلا كلماته تنطلق ، بعضها لا يزال فى فيه ، وبعضها على النسيمة ،
وبعضها تلتفقه الأسماع ، حتى هوت ضربته ، وهوى معها عروة بن داود : قطعة
يعة إلى هذا المسكر ، وقطعة يسرة إلى ذاك .
وارتح الميدان . . .

وصرخ ابن عم لعروة وقد هاجه الدم للمهراق :
« واسوء صباحاء . . . » .

ثم تقدم ليثار . فإذا هو فى هنية لحم وعظام على الأديم الأحمر ،
بجانب القليل . . .

عندئذ ارتحيف معاوية من حنق وغيط وهو يشهد رفاقه قد انكشوا جميعهم
فى جاودهم كأنهم قنافد ، لا يجرؤ واحد منهم على تلبية دعوة على المبارزة ،
وهتف فى ثورة :

« تبأ لهذه الرجال . . . أما فيهم من يقتل هذا مبارزة أو غيلة ، أو فى
اختلاط الفياق وثوران النقع ؟ . . » .

وكانت إصبعة تشير وهى تهتز إلى الإمام .

فما أتم حتى انبرى له الوليد بن عقبة يقول :

« ابرز إليه أنت ؟ فإنك أولى الناس بمبارزته . . » .

ولفظ بمثل قوله الرفاق الآخرون ، على ملأ الناس ، حتى ديست كبرياء
العاهل واتهك إباؤه . وحتى رأى عتبة بن أبى سفيان — ليحسم القضية —
أن يخفيهم من الهول ، فقال لهم وهو يرمى إلى على وقد كان لا يزال يدعو
صناديدهم لمنازلته :

« الهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه ، فلا أرى أحدا يتحرك به إلا قتله . . . »

لكن معاوية خاف مغبة هذا الجبن الذي شاع في قلوب أبطاله أن ينتقل لعامة جيشه فيعديهم ، ويبت فيهم الجزع والتخاذل . فما زال يحث ، ويحرض ويستصرخ القادة والأشراف ، حتى هم نفثه الساحر في نفس بسر بن أرطاة أن يعمل به . . .

وعاد يفرجه :

« أتقول لمبارزته ؟ » .

« ما أحد أحق بها منك . وإذا أيتموه فأنا له . . »
فمست الزاحية قلب العاهل أن استجاب هذا لتحريضه ، وقال :
« متلقاه في العجاجة غدأ في أول الخيل . . »
وعلى هذا افترق الرجلان .

وقال ابن عم لبسر يسأله ، وقد آب ذلك اليوم من الميدان :
« إني سمعت أنك وعدت من نفسك أن تبارز عليا . . . »
« نعم » .

« فما يدعوك إلى ما أرى ؟ » .

خفص بسر وجهه هنية ، ثم قال :

« الحياء . . . خرج مني كلام فأنا أستحي أن أرجع عنه . . »
وحيث أن اللقاء في اليوم التالي ، راح بسر يشجع نفسه :
« وهل هو إلا للوت ؟ لا بد والله من لقاء الله . . » .

ومع ذلك فقد نكل — كصاحب له من قبل — وسقط أعزل على الأديم يدفع للنية بسوائته . . . فعل فعلة ابن العاص . فلقد علم — فأمن — أن الإمام يأنف لسيفه أن يصيب خصما أعزل ، بغير عزة ، ولا حياة ، ولا سلاح . . .
واشترى الحياة . . .

ولكنه لم يلق بعدها علياً قط إلا تنحى عنه ناحية يتحاماه . وعلى هديه جرت بطولة الفوارس من الشام . . .

حق ابن العاص قد بدا له أحياناً كالبقية الآخرين من أصحابه . يملكه همه ، وتشغله نفسه عن الأهداف العليا التي كافح لبلوغها كل هذا الكفاح الدائب المرير ، الذي لطنخ جبينه بالعرق ، وغمس ضميره في الدم ، وجعله أمثلة لاهتيال الوسائل واعتساف الحلول ليقنص الغاية من أى سبيل .

هو لم يخذله . لم يقعد عنه في أوان اضطراع لم يلق كفاحه بقلة اللبالة التي كانت في الأغلب الأعم شعار تلسم الخلاصة من الرقاق . ولكنه أوشك الليلة — والذهول فيما يلوح قد تولاه — أن يسلمه إلى مخالب مصيره .

كان دائماً عدته . وكان صاحب شوره . وكان عزاءه في كل محنة وكارثة
وحين احتدمت الوقدة — من قبل والآن — كان له درعه الحامية ، يرد عنه عادية عدوه ، ويذود في سواد من فرسانه كثيف كسحب الأمطار أية هجمة تطلعت نحوه بقمة التل ومشت تهطع إلى الفسطاط الأبيض .

على سفح التل وقف يرقب حركة الجيوش العلوية التي دبّت في أوصالها الحياة وأقبلت عليه بالموت . راح يتأهب لها وسعه ، ويقدر ويعد ، ويرتب ويحتال في نظام وثبات . على حذر . بلا خور إنه الآن في جمع من للقاتلة راسخ ، عريض كالنهر . . . كالحندق دون الفسطاط . بكسور القلعة . ومن ورائه معاوية رخي البال ، يستشعر الطمأنينة ولا يرهب الخطر . فهو يحمي عمرو وجنده بحجة مانعة ، وفي كنفهم بملاذ آمن

غير أن طبيعة البشر في ابن العاص بدلت الحال . فإن هي إلا جولة في الميدان حتى اضطرب قلبه بين جنبيه ، لا من جبن ، بل من رقة وإشفاق . فلقد هزته عواطف الأبوة فنسى نفسه ، وخفي عنه واجبه ، واستحال كيانه كله كتلة نابضة بالحلب الذي يفتن ، وبالولة الذي يذهل ، وبالملع الذي يضل ، وبات ريشة في يمين إعصار

إذ ذاك كانت تلوح بحدا الأفق ، على الضفة الأخرى من «نهر» جيوشه ، يقع من السواد تهتز ، فتلتئم وتفترق ، وتتباعد وتنتظم ، لحظة لحظة كأنها خطوط الظلال إذ تبعثها فتيلة مصباح عبثت به إصبع الريح . . . من بين يديه أقبلت . من تلكم الناحية التي وضع عليها عينه طوال ساعات النهار والليل ليأمن منها البغثة على نفسه وعلى سيده الذي لاذ بحماه . من عسكر الإمام . . .

وسرح خيال عمرو . . إنها إذن الالتحامة التي تجفف اللداد ، وتطوى الصحائف ، وترفع الأقلام .

أوان المزائم آن . في غد قد تطلع الشمس على أحلام ذابت وأحلام ثبتت وفرعت وطالت سرحة من الحقائق إلى السماء . . على مغرب مجد ومشرق مجد . . . على دولة محتويها الغابر ودولة يطلعها الحاضر كما تطلع الشجرة باكورة الثمار . . . وحى ابن العاص . . .

ثم تقدمت البقع السوداء . ثم دنت . ثم بدت للميون الرقيبة فوارس أجلادا ورجلا شداداً يعيزهم بهيئاتهم وقسماتهم الحماة ، وعمرو ، وساكن القبة الكبيرة البيضاء وهم يعدون نحو التل كأنما ييممون شطره على جناح . . .

وثار النقع من كشب كدخان حريق التهم شقة الأرض الحرام التي تفصل بين فريقين صنفين . ومن ثنايا غيومه الغبرلاح على أدمه يزفر لهباً ، ويرنو يشواظ ويسوق النايأ أمامه كما يسوق الحبيج هديه حين الإحرام . . . فإذا الأرض تميد ، وإذا القبور تنشق ، وإذا الخلق تجحف ، وإذا القلوب تذوب . . .

عندئذ دوت بين جمع الحماة صيحة ثاقبة ، كنفحة الصور يوم الهول الأكبر ، زارت بها حنجرة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وهو يحذر معاوية وجنوده : « غشيناً ثعبان مثل الطود الأرعن . . . »

فتهانف صحبه من رجال الشام :

« ثعبان ؟ . . . »

« على . . . أثار قسطلا حال بيننا وبين الأفق ، وهو على أدم شائل ،

يضرب بسيفه ضرب غرائب الإبل ، كاشراً عن أنيابه . . . »

وتحركت لهامة العاهل برهة ، ثم حبس كلامه في فيه .
إنه يباب خبائه ذاهل الذهن ، حائر النظرة ، جامد الجسد كوتد
الفسطاط . . لا يزال بصره القلق يتبع الإمام وهو ينقض ، ويلاحق سيفه
وهو يخطف فلا يثبت إنسانه ولا يكف لمح وودورانه . جفنه يرمش . عينه
ترعش . قلبه في جوفه يسيل خشية حق أو شك أن يحسبه بلال الرمال . .
وحين تحرك من بعد لسانه ، رجفت أذنه عندما صكها حديثه كأنما باغته
سواء بالكلام . وانطلقت نبراته خافتة كالهمسة ، حزينة كالأنين :
« والله إنه يجالد عن نرة له ، ويقا تل عن نرة عليه . . »

ثم تعلقت نظراته بالعبار الكثيف كالظلمة ، المنتشر كالغيم ؛ وبالصوارم
اللامعة كالبرق ، الهاوية كالصواعق ؛ وبالصنوف الممتدة حياله كسور القلعة
لتحمية — يبحث بينها عن صاحب سره ونجواه ، رفيق همه وبلواه لعله يعيره
الثقة أو يعمده بالطمأنينة . .

لكن ابن العاص كان إذ ذاك مشغولا عنه ، قد نضا عن نفسه إهاب القائد
ولبس جلد « إنسان » . . نسي العهد ، والحرب ، والمجد ، والمطامع الطويلة
العريضة وذكر فحسب أنه « أب » يوشك الردى أن يسلبه ولديه . .
وزحفت إلى قلب عمرو وكف هاصرة ، تعصر منه هدوءه وأمنه ، فهتف
يتوجس :

« على من هذا الرهج الساطع ؟ . . »

وإذا الجواب ، الذى تنبأ به من قليل فؤاده ، وهمست به في ضميره حاسة
الأبوة قبل أن يصوغ السؤال ، يأتيه :

« على ابنك : عبد الله ومحمد . . »

فما عثم أن قفز كالندى به مس ، يدفع الناس من جحفله ، هذا يمنة ، وذاك
يسرة ، وهنا وهناك وهو يجالد ليفتح بينهم طريقا إلى الخطر . إلى الهول
الزاحف . إلى الموت القبل صوبه كالشلال . . .

كان كاطائر الحبيس يضرب بجناحه ، ويبحث بمخفيه ، وينقر لينقب جدار

قفصه الذى حرمه الفضاء . . . كان يناضل ليبلغ فرخيه وإن أنخت بدنه الجراح
وإن دى طوقه . وإن انتثر ريشه فتطايرت قوادمه أو تمزقت خوافيه . . .
وفي عمرة العاطفة المندامة بين جنبيه اندلاع السعير ، نسى الأب الواله أميره ،
ونظام صفوفه ، ودوره اللازم في قيادة قوة الدفاع ، وانطلق جزواً ينادى غلامه :
« يا وردان ! . . »
فأقبل يأتمر . . .

خبيا لهذا لون صاحب الشام . . . فمن مرقبه يباب فسطاطه شهد صاحبه ،
والفرزة التي تغشت عياه ، والنقلة الجامعة به من الثبات للهرج ، ومن الرسوخ
للتقلقل . . . وهل بقى بعد معاوية إلا أن يرى في الصورة الجديدة لحليفه نذير
شؤم بانتقاض الخطوط التي تحميه وتقوض السور الذي يستره ؟ .

وهتف بأمره :

« يا أبا عبد الله . . . لا تنقض الصف والزم موقعك . . »

« فما ألقى إليه عينا ولا أذنا . إنما عاد يهيب بفتاه :

« يا وردان ! . . تقدم . قدم لواءك قدر قيس قوسى ولك منى جارية . . »

فكرر معاوية نذيره وأمره :

« مكانك ، أبا عبد الله — لا تحملن . . . »

« هيهات ! . . »

اليث يحمى شبليه ما خيره بعد ابنه . . .

« إنه ليس على ابنك بأس »

وعندئذ صرخ عمرو يزجر الأمير :

« وبحك ! . . إنك لم تلدهما ، وإنى أنا ولدتهما . . »

ثم حمل وهو لا يفتأ يعرض غلامه ، ويعاود تهريضه بصوت مجنون :

« قدر قيس قوسى أقدم ! . . أقدم ! . . قدم لواءك يا وردان ! . . »

ولم يدر عينه إلى معاوية إلا ليغمزه بنبرات تقطر منها مرارة نفسه ووجيب قلبه لللهوف :

« أو لو كان يزيد بن معاوية إذن لصبرت . . . »

ومضى يشق الغبار .

على أنه — إلى هذا كله — كان أدنى صحبه منه ، وأكثرهم غيرة عليه ، وأشدهم رغبة في تحقيق أطاعه وإن أبى الأمويون حينذاك إلا غمزه ، وحسده ، ونفس قدره لدى سيدهم الذي خصه — دونهم — بالتقديم . . . فكم بذل العون . وكم ساق النصيح . وكم حاك الحيلة . كانت الكروب تقبل فيشير . وكانت الأمور تضيق فيحتال . وكان القتال يحتم فيخوض . . . ولم يكن معاوية بغافل عن حقيقة الدوافع التي تعطف عليه الرجل وتشده وإياه إلى طنب واحد . فلا عن مروءة كان بذل ابن العاص ولا عن نجدة قتاله . ولا عن وفاء نصحه أو احتياله . إنما عرفه على ما كان قد عرفه قبله ووصفه الإمام عندما قال :

« . . . يقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيبخل . . . فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وأمر هو ما لم تأخذ السيوف مآخذها . . . »

وعلى ما كتبه إليه أيضا الإمام ، ذات مرة ، يكشف أمره . ويفضح سره الذي أبسه بدعوة مؤازرة ابن أبي سفيان في الثأر لعثمان :

« . . . جعلت دينك تبعا لدنيا امرئ ظاهر غيه ، مهتوك ستره . . . فاتبعت أثره ، وطلبت فضله اتباع السكاب المضرغام يلوذ إلى محالبه ، وينتظر ما يلقي إني من فضل قريسته . . . »

كان معاوية يعرف ابن العاص على هذه الهيئة المسوخة من المروءة والولاء والبسالة ثم لا يبرم به ، ولا يضيق بخلاجاته ما بقيت هذه الصفات مكتومة بذات نفسه لا تطفو من القاع ، ولا تخالط شوائبها تلك الأثرة الفاضحة التي تحرك لسانه وجنانه ولسانه وتدفع به إلى ذات الجادة الملتوية التي شقها عاهل الشام . فهو باذل ولا عن كرم . وهو ناصح ولا عن عقيدة . وهو ناصح ولا عن وفاء . إنما كان بذله ونصحه ونضجه جميعاً ينبثق وحيها من تأليه الذات دون يقين باستواء الوسائل أو تقاوة الغايات ، وإنه — على أية حال — لإيمان . . .

ربطتهما معا غاية — إن تكن لا تتحرى النهج الأمثل ، ولا الطوائق القويمة السليمة أو الوسائل النظيفة الكريمة — فهي مهوى الأنفس التي يستدلها الجاه وتسترقيها زخارف الحياة . النهومة للنشب . للفتونة بالعرض . الحبيسة في نطاق الجسد من دم ولحم ، من شحوم وعظام . . . فالذات الغاية . للمادة . النفع . . . ولو لم تكن في القلوب نزعة تميل بها عن الصراط لقلب طرفه بين القوم . ثم لرده وهو حسير . لكن الناس هم الناس : من تراب ووحل وليسوا من صفاء ونور . والأنفس هي الأنفس : من هوى لا من تجرد . ولقد آمن معاوية الإيمان كله بالجانب المظلم من طبيعة البشر فنفذ إليهم من خلاله كأنه خفاش الليل الذي يعشى بصره الضياء . . . إلى عمرو نفذ ، وإلى ابن عمر ، وإلى تلكم الطغمة من بني أمية من أهل بيته الذين استعبدتهم الآراب والطامع ومرغت منهم مزاياهم الإنسانية في الطين . وعندما تأزمت عليه الأمور لاين الجشع في جنوده ، ففرض لملك على قتالها فريضة ليتألفهم بالمال . وخايل الناس بالمقتم : حين كانوا له ومن كانوا عليه وما وسعته الخيالة . وأعظم فريقا في عيون أنقسام من استيقن أن آفتهم الغرور . . . بهذه وتلك من وسائله اللتوية خادع ابن للعمر ومناه خرسان . وداعب الكبير في نفس الأشعث وراح دائماً يحيط عنقه عساة يطول المستحيل ليأمن ويظفر وينام . . .

كانت الدنيا هدفه ، والذي يهزه النشب بحسب البشر كلهم على مثاله فيمضي يقدوم بذهبه قيادة الساعة مادام هو بالذهب يقاد . فالمنصب لجام . والمقتم لجام . وحق خلب للفي لجام . وقد طرق من هذه اللجم وصاغ ما لا يحده حصر ، ولا تضيق عنه حيلة مضل ضال ، أو أخدوعة خاتل محتال . . .

تفكر وقال :

« والله لأستميلن بالأموال ثقات على ، ولأقسمن فيهم للسال حق تطلب دنياي آخرته . . . » .

فشخصت إليه على الأثر الأبصار . ولم يبق من أهل العراق رجل في قلبه مرض إلا ألتع نحوه جيده وهو يود أن يمد إليه كفيه ليأخذ باليمين واليسار . . . وفشت هاهنا فاشية الطمع كما فشت من قبل هناك . . .

وقال للنذر ، فارس همدان ، الإمام :

« يا أمير المؤمنين ، إن عكا والأشعريين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعطاء فأعطاهم ، فباعوا الدين بالدنيا . . . إنا رضينا بالآخرة من الدنيا ، وبك من معاوية . والله لآخرتنا خير من دنياهم ، ولإمامنا أهـدى من إمامهم . . . فاستفتحنا بالحرب ، وثق منا بالنصر ، واحملنا على اللوت . . . »

أولئك قد عصم الله ، ووقى نفوسهم شر فتنة الناس ، فإذا دنياهم جيفة . وإذا زخرفها حرام ، وإذا هم حينذاك يسعون إلى النصر خفايا يختلبونه بعمد الحديد ومشافر السوارم ، وبكل ضارب فتاك وضرب دراك حتى انكسر أمامهم عدوهم ، وولى العاهل الفتون بما قد ملكت يمينه ، وهو جزوع يبعد عمره عن مزالق الحمام . . .

بماله واحتياله لم يحاول معاوية لحب أن يخدع العامة من جند على . . . لا ولا الخاصة الذين شام فيهم نزعة من الفرور ترفع من أقدرهم في عيون أنفسهم فلا تزال بهم حتى يروا في دهانه ومناقضته إياهم ما يرضى ذلك الفرور ، ويعلو بقدرهم إلى سمائه ، فإذا ملقه رقية ساحر بعقل مسحور ، وحمية كأس برأس مخمور . . . ولا أيضا هذه الطائفة من نهazy الفرصة الذين يدورون دائما مع الريح وينشدون المغنم أينما تقفوه — بل لغير هؤلاء كلهم أعد خدعه وأحاييله وإن كانوا بحسن حصين من أساليب فتنته ، وجنة تصد عنهم أفانين حيله . . . وتفكر الرجل كلا لن يخضع لمستحيل . . . فذات مرة لم تغب بعد عن خاله موه وجاز تمويهه فاقتلع من ضفاف النيل أفعوانها الذي كان يندوده عن جنبها الخضراء أجدى مكره حينذاك وخرج قيس بن سعد من مصر فما له اليوم لا يختل كأسه عساء — أو لم يباغ كل غايته — ينقب ثغرة في سور عدوه تزيد سعة على الأيام ؟ . . .

وابتسم — وقال :

« يا عمرو ا . . . »

فأقبل ابن النابغة يلبيه

« يا عمرو ا . إن رأس الناس بعد طي ، هو عبد الله بن عباس . فلو ألقيت إليك كتاباً أملك ترققه به . . . »

فضحك صاحبه عجباً ، وأجاب :

« ابن عباس ؟ . إنه لا يخدع ولو طمعت فيه لطمعت في طي . . . »
ولكن معاوية لم ييأس :

« وإن ا . . . فإنه إن قال شيئاً لم يخرج على منه . وقد أكلتنا الحرب . . .
فاكتب إليه . . . »

وراح يلى :

« أما بعد . . . فإن الذى نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وساقته العافية . وأنت رأس هذا الجمع بعد طي ، فانظر فيما بقى ودع ما مضى ، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولكم حياة ولا صبرا . . . وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم ؟ . . . وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا ؟ . . . »

وفى الحق لقد أصاب عمرو وأخطأ معاوية . فما وقع ابن عباس فى الشراك للنصوبة له ، بل هو قد سخر من التفكير الذى دفع صاحب الخطاب إلى تسطير كلماته ، وإن يكن أخذ الكاتب بحريّة عمليه . . .

لذلك غضب ابن العاص وعنف بأمره عندما تلقى الجواب . . .

قال له :

« أنت دعوتنى إلى هذا . . . ما كان أغناى وإياك ا . . . »

ودفع إليه برد ابن عباس ، ليقرأ فيه :

« . . . إني لا أعلم رجلاً من العرب أقل حياء منك ا . . . مال بك معاوية الى الهوى ، وبعته دينك بالثمن اليسير ، ثم خبطت بالناس فى عشوة طمعا فى الملك فلما لم تر شيئاً أعظمت الدنيا إعظام أهل الذنوب ، وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع ا . . . »

لكن معاوية لم تقعه طهجة الرد ، ولا غضبة صاحبه ، عما اعتزم من موالة
احتياله ودسه لبلوغ ما يريد ، فإذا هو بعد هذا يعيد الصحيفة إلى صاحبه ،
ويقول بهدوء :

« إن قلب ابن عباس وقلب على قاب واحد ، كلاهما ولد عبد المطلب . . وإن
كان قد خشن فقد لان . . . »

وإنه ليوم أو بضعة تشتد فيها الحرب على الشام ، حق يناجى صاحبه :

« إن ابن عباس رجل من قریش ، وأنا كاتب إليه . . . »

فياق إلى عمرو نظرة فضول وتعجب ليست تدارى إنكاره :

« فيم ؟ . . »

« . . . في عداوة بني هاشم لنا ، وأخوثة عواقب هذه الحرب لعله
يكف عنا . . »

ولا يبالى انحراف زميله عن رأيه هذا بل يكتب الآن ، عن لسانه هو ،
الكتاب الجديد :

« . . . إنكم يا معشر بني هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار
عثمان فإن يكن ذلك لسلطان بني أمية فقد وليها عدى وتيم فلم تنافسوه
وأظهرتم لهم الطاعة ، وقد وقع من الأمر ما قد ترى ، وأكلت هذه الحروب
بعضها من بعض حتى استوينا فيها . . وقد رجونا غير الذي كان . . ولستم
بملاقينا اليوم بأحد من حد أمس ، ولا غدا بأحد من حد اليوم ، وقد قنعنا
بما كان في أيدينا من ملك الشام فاقنعوا بما في أيديكم من ملك العراق ، وأبقوا
على قریش . . أنت رأس هذا الجمع اليوم ، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا
إليك أسرع منا إلى على »

« لو بايع الناس لي لاستقامت لي . . »

وسخط ابن عباس لهذه الدسيسة الرخيصة ، وقال في نفسه :

« حق مقى يخطب ابن هند إلى عقلي ؟ . . . »

ثم كتب ، فيما أجابه به :

« . . قد بايع الناس عليا وهو خير مني فلم يستقيموا له . . . » .
ومع ذلك فلم تكن هذه كل محاولات العاهل الخائل التي حسبها مبلغته
أربه ، فما كان عليه لو أنه واجه عليا بغايته ؟ . . من يدري ؟ . . إن يكن الإمام
قد اعتدى بالأمس فعسى المحنة أن ترقق من شدته ، وعسى الرحم أيضا أن تعطفه
من بعد ميل . . .

وقال العاهل ذات يوم لنجيه :

« قد رأيت أن أكتب إلى طي كتابا أسأله الشام ، وألقي في نفسه الشك
والرقة . . . » .

عندئذ ضحك ابن العاص :

« أين أنت يا معاوية من خدعة طي . . . »

فأغضى عن رنة السخرية ، وقال :

« ألسنا بنى عبد مناف ؟ . . . »

« بلى . ولكن لهم النبوة دونك ! »

ولكنه كتب :

« . . . إني أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا ،

لم يجئنا بعضنا على بعض ، وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها

ما نندم به على ماضى ، ونصلح ما بقى . . . وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمنا

لك طاعة ولا بيع ، فأبيت ذلك على ، فأعطاني الله ما منعت ، وأنا أدعوك اليوم

إلى ما دعوتك إليه أمس ، فإني لا أرجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولا أخاف من

اللوث إلا ما تخاف . وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال . . . ونحن بنو عبد

مناف ، ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستدل به عزيز ، ولا يسترق حر .

تلك الكتب كانت بعض وسائله إلى ما ينبغي ، وكانت حلقة من حلقات

أساليبه أو ألاعيبه التي حرص منذ بدء الخلاف بينه وبين الإمام على ابتداعها

وتجديدها فيالق منظمة تعمل في اللبدان إلى جوار قواته المحاربة . وهي لا حراء

كانت ذات أثر في بعض الأنفس والأفكار تمدها بالشك والتذبذب . وكثيرا

خاب وقليلًا أصاب ، ولكنه — على أية حال — كان دائب العمل ، موصول الحركة لا يهد له نشاط . وكان وفيًا لهدفه وفاء لم يقعد به قط عن الإعداد والمخاطبة والمخاتلة ما وسعه طاق الاحتيال . . .

غير أن سعيه الخثيث إلى ظفر سلسى كان أملاً ما لبث حتى أصابته بالطعنة القاتلة كلمات الإمام :

« . . . إني لو قتلت في ذات الله وحيت ، ثم قتلت ثم حيت سبعين مرة ، لم أرجع عن الشدة في ذات الله ، والجهاد لأعداء الله . . . فأما طلبك الشام فأني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك منها أمس . وأما استواؤنا في الخوف والرجاء فإنك لست أمضى على الشك منى على اليقين . . . والسلام »

٧

حسم اليوم التاسع الموقف بين الفريقين .

لم يعد القتال مبارزة بين رجال من هنا ورجال من هناك . ولا اشتباكاً مضطرباً ، أو تدافعا غير ذي غاية سوى القتل بين طوائف من جنود الشام وأخرى من جنود العراق . إنما أصبح معركة عامة ، اشتركت فيها كل الوحدات للقاتلة ، وأخذت تتكون لها شيئاً شيئاً سمات الوقائع الحاصمة ، ثم تنضح ، ثم تبرز حتى أوشكت أن توميء علانية إلى حيث النصر . . .

كان الأشتر على الميمنة منذ قادها مغرب الأمس بعد مصرع عبد الله بن بديل ابن ورقاء ، وكان ابن عباس على اليسرة . وكان على حينذاك في كل مكان ، ينطلق من القلب إلى هذا الجناح . ثم منه إلى ذاك . ثم يثنى فيسرع يقدم أو يسرع يعود . . . أينما خطر له أن يلقي عينه على الصراع المشبوب كانت تمضي قدمه أو تخب مطيته ، ليرى من كثب حركات أوليائه وأعدائه فيقدر ويعد حسباً يجد في الميدان من احتمالات القتال .

ومضت الجيوش على أرض الواقعة تختلط وتتلاحم ، وتلتصق وتتراحم ، كعرج البحر في إبان عاصفة . يركب بعضه بعضاً ، ويلوى بعضه على بعض وإن كانت غاية غايته بعد هذا بلوغ الشاطئ القريب .

وأقبل القادة من رجال الإمام . أولئك الذين شهدوه في القلب ثم افتقدوه
لعبت بقلوبهم المخاوف . وأولئك الذين تركوه منذ قليل بجناح ثم غاب عن عيونهم
بعد لحظات ، ملكهم الجزع والقلق عليه . ومن هذه الناحية ومن تلك في
أرجاء الميدان تواترت الحمسات عن مصيره المجهول تبعثها الخشية أن يكون قد
أصابه عدوه . . .

وجاء الأحنف بن قيس يلهث . فلما ملأ ناظريه من الإمام واطمأن قلبه ،
وقف يحدث الناس :

« يا أهل العراق . والله لا تصيدون هذا الأمر أذل عنقا منه اليوم ! ..
فما يقاتلون على دين ، وما يصبرون إلا حياء » . . .

ثم التفت إلى على يستأمره :

« إنا إن تقدمنا اليوم فقد تقدمنا أمس . فما تقول يا أمير المؤمنين ؟ . . . »
فألقى إليه أمره :

« تقدموا في موضع التقدم ، وتأخروا في موضع التأخر . . تقدموا من قبل
أن يتقدموا عليكم » .

المبادأة دائماً . الهجوم قبل الدفاع . . .

وانطلق الرجل . ومضى على يرود أرض الواقعة بكلا عينه وسلاحه ، لا تفتر
له حركة ، ولا ينمى جفن ، ولا يغفل جنان . وعندئذ لقيه الأصبع بن نباة
يبلغه ما يعلم من سير الأحداث :

« إن أهل الشام قد هدم ما أصبنا منهم . ونحن فينا بقية . . فاطلب بنا
أمرك ، وأذن لي في التقدم له » .

« تقدم بسم الله »

ولقد ظل موج القتال يدفعه آنا وينحسر عنه آونة حتى حسبت الكثرة من
صحابه أنه قتل وكاد حسابهم هذا أن يلفهم بالقنوط . من أولئك عدى بن حاتم
الذى راح يخوض العمرة تحت ظلة الرماح ، ومن بين أسنة السيوف وعلى مزق
الأشلاء غير آبه بما قد يصيبه . إنما ظل خاطره معلقاً بوجهه للوحش الحزين ، وظل

ناظره معلقا بالقتلى على الثرى ، والأحياء على الرواحل والأقدام ، يتفرس الوجوه وهو ساهم ثقيل الفؤاد فإن هو أن وجدته حتى انفلتت من شفثيه تسكيرة مهللة تعلن ميلاد فرحته ، ثم اندفع إليه وقد تألق طرفه وغمر البشر بحياه :

« أمير المؤمنين ! . . . أما إذا كنت حيا فالأمر أم . . . » .

فابتسم الإمام وحياء . ومسح الرجل عن وجهه حبات العرق التي تجمعت على جبينه ثم راحت تنزلق على خطوط وجنتيه حتى إذا هدأ قلبه قليلا قال وكلماته تقطعها لهثاته :

« ما مشيت إليك إلا على قتيل . . . وما أبقت هذه الواقعة لنا ولهم عميدا . . . قاتل حتى يفتح الله عليك » .

أجل لم تدع الواقعة ، هذا اليوم ، إلا بقية يسيرة من جموع الأبطال . ذهبت الكثرة تلقفهم المضاجع على التراب . . . حتى الذين استهوتهم المنى والشهوات ، وخاضوا الحرب ليحققوا مآربهم ، رحلوا عن مقام اللطامع وأمنياتهم تخايل عيونهم ساعة للموت كالسراب . . .

مضى عن الدنيا ابن عمر ، فأية أمنية نال ؟ . . . لقد طالما حلم . وقد طالما جنح مع أحلامه وماله فإذا نصيبه الليلة من المجد قيد ذراع من ثرى صفين . ومن الشرف ضربة حسام شقت عليه زرده ، ثم جسده ، ثم غاصت بالسنان في حشوة جوفه فإذا هو بعد هذا صريع . . .

وسقط ينوء . . .

وسخر القدر . . .

فلقد فر الرجل ، وأمن في الفرار أعواماً طويلة من يد على ، فإذا الضربة القاتلة ، بعنفها وجبروتها ، تكاد تنفي عن اليد التي ظلت تطارده كل ذلك الزمان في اليقظة والحلم ، وفي الحرب والسلام . وإذا الأنة الخافنة ، ووشوشة جراحه ، والطين الذي ملأت به الحشرة أذنيه لا تخفى عنه ذلك النذير القديم الرهيب :

« لئن فاتني في هذا اليوم ، لا يقوتني في غيره . . . »

واليوم جاء . . .

فأما الأماني فهباء . غارت في الليل كما يغور الشعاع ولم يرتب منها القدر إلا واحدة .
ما كان أغنى الصريع عنها ، وما كان تحقيقها قصاراه . . . تلك نبوءة الشيبانية
إن لم ترها تنتظم في سلك الأمنيات

في ذلك اليوم ، وقد همد الطامعين ، وجرى الخبر بمقتله ، بعثت نسوته إلى
معاوية ليرد إليهن بدنه ، فأرسل إلى ربيعة في عسكر العلويين يطلبه منهم
ب عشرة آلاف .

وقبل لعل ، فأبى وقال لأصحابه :

« قد أجبتهم إلى ذلك ، فاجعلوا جيافته لبنت هاني بن قبيصة الشيباني زوجته . . »
وأطاعت ربيعة . وتفكرت كيف ترد إلى أهل جثته فرأت شدها إلى ذيل
بغل يضرب حتى يدخل بها معسكر الأمويين . لكن نسوته ، وقد علمن ،
استصرخن معاوية :

« هذا أشد علينا . . »

عندئذ أشار العاهل بالرأى :

« اثنوا الشيبانية فسلوها أن تكلمهم . . . »

فعلن . . . ومضت المرأة لتوها لتحفظ على قتيلا بعد مظاهر التوقير :
« أنا بنت هاني بن قبيصة . . . وهذا زوجي القاطع الظالم قد حذرت . . .
فهبوا لي جيافته . . . »

نبوءة الصباح التي قالتها له وهو مدل مختال ، طلع بها عليها المساء . . .

ومضى أيضا ذو الكلاع الحميري . ذهب هو الآخر إلى غير مأب ، وخلف
قومه اليمنية في حوزة معاوية ينضحون عنه بمثل حمية سيدهم اليوم وغدا وعلى
توالي الأيام حتى أقاموا له على كواهلهم ملكا عريضا لا تغيب عنه شمس النهار . . .
فماذا يا ترى كان جزاء هذا القتل ؟ .

لا مبالة ؟ . . . كلا بل شمانة . . . بسمة من معاوية صفراء ، وبسمة من
خديته عمرو بن العاص كأنها صدى يتردد عن الفرحة التي اهتز بها قلب العاهل

الذى أبى إلا أن ينكر الجليل ... فما إن جاءه الخبر بمصرع الرجل حتى التفت
عينه وقال :

« لآنا أشد فرحا بقتل ذى الكلاع منى بفتح مصر لو فتحنا ... »
وقال للذين جاءوا من قوم القليل يطلبون إليه أن يعاونهم فى استعادة جيفته :

« وما عسيت أن أصنع ! »
ولم يكن صاحبه ابن العاص خيرا منه نية ، أو أدنى إلى الرثاء والرحمة ، بل
أمعن فى الإفصاح عن سروره :

« والله ما أدرى بقتل أيهما أنا أشد فرحا ... والله لو بقى ذو الكلاع حتى
يقتل عمار لمال بعامة قومنا إلى على ، ولأفسد علينا جندنا ... »

هكذا التقى الصاحبان كذئبين على جيفة نصير لهما يأكلانها شماتة ...
وهكذا تنكرا للرجل الذى ضللاه عن طريق الحق . واتخذاه مطية عمياء ،
وما زال به يركبانه ويدفعانه وفى نفسه بقية من شك حتى اغتاله حينه . فلقد
مضى لا ريب إلى ربه وهو يكاد يؤمن أن ابن العاص لم يكذبه حين ألقى فى روعه
أن عمارا سينقلب آخر الأمر على الإمام ويبقى إلى أهل الشام ، فإذا قتل بعدئذ
قالفئة الباغية ليست إذن فئة معاوية بن أبى سفيان ...

لكن عمارا قتل ...

هاجبه الردى وهو فى صفوف على يكافح عن حقه ويذود جحافل الباطل
عنه ... فلو استأخر العمر بذى الكلاع يوما أو بعض يوم ، وصمم بمصرع الشيخ
الجليل ، لقضى الأمر فى حزب الشام ، ولا نسل منه رجاله عودا عودا ، حزمة
حزمة ، وتركوه من بعد وليس فيه من ولى ولا ناصر إلا شزيمة أمية وقطائع
أخرى من الأذئاب ...

ولكنه مضى وابن ياسر ما يزال فى الميدان ، لم يفرغ أجله ، ولم تحقق فيه
كذبة ابن العاص . وترك للعاهل الأموى خيرة الأنصار من الجنية الذين أقاموا
له ملكه ، وكان هو سيدهم المطاع ...

وجلس معاوية تلك الليلة يجتر فرحته ، ويستقبل أناسا من جنده جاءوه
فرادى يستأدونه ثمن قتلهم صاحب رسول الله :

« أنا قتلت عمارا . . . »

فيسأل عمرو قاتلهم :

« فما سمعته يقول ؟ . . . »

فيمر الرجل ، أوزيف الجواب .

ويأتى آخر :

« أيها الأمير ، أنا قتلته . . . » .

ثم لا يكون من حظه في الرد على السؤال إلا الخلط والحبط والتزييف . . .

وإذا ابن جون السكوني ، وأبو المادية الفزارى يقبلان وفي فاضهما

الخبر اليقين .

قال ابن جون :

« أنا صاحبه . . . » .

فسأله ابن العاص :

« فما كان آخر منطقه ؟ . . . » .

« سمعته يقول :

اليوم ألقى الأحياء عمدا وحزبه . »

« صدقت . أنت صاحبه . . . »

ثم أطلق عينه تفتح الرجل ، وقال على كره كأنما الله قهر قلبه على كشف

الحقيقة :

« أما والله ما ظفرت يداك ، ولكن أسخطت ربك . . . » .

وعجب الرجل ، وعجب زميله عجيبه ، ومضيا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص

يشكوان ، ويحكاه في سلب عمار لأيهما يكون . فإذا عبد الله تبرد طلعتة ،

ويضطرب نفسه ، ويصيح بهما وهو مغيب :

« وبمحاكمنا . . . اخرجنا عنى فإن رسول الله قال : ولدت قريش بعمار ، ما لهم وعمار ، يدعومهم إلى الجنة ويدعونهم إلى النار ، قاتله وسأله في النار ! . . » .
ولقد صدق عمرو ، وصدق ولده ، وخاض الناس من أهل الشام في قصة
القتل التي أشفت بهم على سخط الله حتى أخذ الخوف ينعقد أمام عيونهم سحائب
غلقت بالسواد والضلال أوطار عاهلهم ، فكادوا يحملون أنفسهم على الليل عنه .
غير أن الداهية المحتال لم يعدم الوسيلة التي تبديد عنهم خشيتهم ، وتضمن له نصرتهم ،
فقد أضاف خدعة جديدة إلى سلسلة أخاذه ، فقال وأذاع بين العامة من رجاله :
« إنما قتله من أخرجته ! . . »
ونامت المخاوف ، واطمأن الطغام ! . .

٨

كان آخر عهد عمار بن ياسر بالدنيا حين فصلته الحرب عن صاحبه هاشم
ابن عتبة . دفعت هذا موجة لناحية ، ودفعت الآخر موجة لأخرى . وظل كل
متهما من القتال العنيف في دوامة . . .
وعهد الشيخ قوامه الذي أثقلته السنون . وثبت على جسده درعه البيضاء ،
ثم ألقى بعين تجول في أنحاء المبدان فلا ترى فيها إلا جنداً مرصوصة من الناس
لا تسكاد تنفذ بينهم النظرة . . .
وابتسم . لشد ما يفتقد رفيقه ! . . بعد الأعور عنه الآث ، ولم يعد ثمة
سبيل لمزاح . . . فثأماً وقد انطلق هاشم قدما فقد علم عمار أنها انطلاقة النهر
في مجراه ، يعرف طريقه ، ويعلم من أين بدأ وإلى أين منتهاه . فهاشم يسير
في تودة ، وعلى بينة ، ولا يستخفه مد القتال إن خايله النصر كما لا يهوله جزره
إذا خايلته الهزيمة لأنه قدر ما يقع فليس بخطو إلا بحساب .
كانت الطمأنينة تملأ صدر عمار ، فثقت به صاحبه غامرة ، لا تنضب ولا تغور .
وهو آمل في النصر ، وهو مؤمن قبل هذا كله بالفاية التي من أجلها يمتشق
اليوم هذا الحسام ثم يشق به سبيله في صفيين ، إلى الحق ، وإلى الجنة . . .

وألقى نظرة تنفرس الناس حياله :

« إني لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطون . . . » .
ثم استضاء وجهه المضمم العروق بإشراقه إيمانه وهو يكمل همسه لنفسه :
« . . . والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سمفات حجر ، لعلنا أنا على الحق .
وأنهم على الباطل . . . » .
ومضى كالعاصفة في زحمة القتال .

إنه يقدم ولا يحجم . يضرب ما وسع كفه أن تحمل سيفه ، وما دار ذلك
السيف في يمينه . . . كلا ، ليست هذه اليد الهزيلة هي التي تضرب ، ولا هذا
البدن المجهود هو الذي يحمل ، ولا هذه الساق الحشة هي التي تثب ؛ إنما قلبه
القوى يتيقنه ، الركبن بإيمانه . . .

وكان الليدان كالأتون . وكان العرق كالسيل ، فأحس شفته تلتهب ، وحلقه
يجف ، فلو كانت الدماء تروى ، أو قطرات العرق للنشال تخفف بعض صداه . . .
لكن امرأة من فرقة الروايا التي تصحب الجيش تقدمت إليه تسقيه من لبن .
فما إن حسا حسوة ، حتى انبعث يكبر وقد تألفت عيناه بالرضا والفرح والحنين :
« الله أكبر . . . » .

وعجبت المرأة ، غير أنه كان من عجبها في عالم آخر بعيد ، لا يحده زمان
ولا مكان . . .

« الله أكبر . . . صدق الصادق .

اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه ا » .

فلقد شعر الرجل بقرب ساعته ، وسفرته الأخيرة من هذه الدنيا إلى حبيبه
الرسول في جوار الله . . .

طفر هذا الشعور إلى جنانه وهو يستعيد في ذهنه إمامة لرسول الله أنبأته
عن آخر زاده في الحياة . . .

ورد الإناء للمرأة ، ولحق شفتيه ، وهو يتمم في شغف :

« هذا آخر زادي . . . » .

ثم انطلق ، مشوقا إلى المصراع — إلى لحظة اللقاء التي بعدت عليه إذ طال عمره ، وهتف فيمن حوله :

« أيها الناس ... هل من راجع إلى الله تحت العوالي ؟ ... » .

ومضى على رأس عصابة تبعوه ممن يستعذبون للوت فلا يشق عليهم أن يهروه الحياة . وكما هجم وأصاب ، كان صوته الرافع يرن في الأسماع كصليل سلاحه :

« الجنة تحت الأسنة ! ... » .

وكانت نهايته كطرفة هذب .

حمل وأثخن وقتل ، ثم حمل وأثخن وقتل ، سريعا سريعا كأنما كان يمضي على إعصار . وكان محمد دائما أمامه . وكانت الجنة تخايل عينيه . هو في الحق قد ترك سيفه يحول ، أما وعيه فكان سابحا على غمامة من شوقه ، بيضاء رقيقة ، شفافة كروحه ، نقية كقلبه ، تملو به في فضاء فسيح فوق الدنى والزمان والأحياء ..

واستقبله حين هذه الذشوة الروحية عبدان للدنيا ، مالا إلى جانبيه ليتقيا حملته ، ثم عاجله منهما ابن جون بطعنة ، وثى أبو العادية ، ليشارك رفيقه في نصيبه من النار ! ..

وسقط عمار ، ومحمد أمامه ، والجنة تخايل عينيه ، وعلى شفته النديتين بتلك الحسوة بسمة وهمسات :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! ... »

اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه ... »

وأطرق الإمام ...

الحزن الذي هز قلبه لقتل صاحبه كان أبلغ من الألم ، وأقوى من الدمع ... صلابة السيف في يمينه بدت في ملاحه . ظلال المساء التي أخذت تطوف بالمسكان أطلت من بين جفنيه ..

ومشى على مهل . الآن قد خرج عمرو بن العاص كالعاصفة فرقا على مصير
ولديه . الآن يتقدم ابن خالد بن الوليد بلواء معاوية الأعظم وب نفسه اعتداد كأنما
يحمل يوم من أيام أبيه . . . نشطت الشام كلها نشطة واحدة . خيلها ورجلها .
والرماح والسهام . حتى الحجارة كانت بعض السلاح . . .
لكنه لم يأبه إلا لفرقة منها ثبتت أمام هجمات رجاله كالأطواد . لا تهتز .
لا تضطرب بين ينة أو يسرة . كأنها غرست أقدامها في الرمال . . .
تلك غسان .

وعندئذ قرع زمه .

« إن هؤلاء القوم لن يزولوا عن موقعهم دون طعن دراك يخرج
منه النسيم ، وضرب يفلق الهام ، ويطيح العظام ! . . .
ثم نادى في أصحابه :

« . . ابن أهل الصبر وطلاب الخير ؟ . . »

ودعا ابنه محمدا :

« امش نحو هذه الراية مشيا رويدا ، على هينتك . . . حتى إذا أشرعت
في صدورهم الرماح فأمسك يدك حتى يأتيك أمرى ورأى . . »
وجهاز فرقة للأشتر .

وهتف بعد هذا في رجاله :

« أيها الناس . . من يشر نفسه لله يرج . . . هذا يوم له ما بعده . . »
حتى إذا اجتمع له منهم قرابة عشرة آلاف ، تعصب بهامة رسول الله
السوداء ، تيمنا وبركة ، ووقف يتها أساعة الفصل . .

كان محمد حينذاك يسير كما أمره ، رويدا رويدا ، خطوة خطوة ، كأنما على
شوك ، قد أشرعت فرقته في أكلها الرماح ، واتجهت بها صوب غسان .
ليست هذه بهجمة يتقدم فيها الاندفاع . لا مخاطرة ولا سرعة . بل هي حركة
وثيدة ، تمضي بحساب ، وعلى حذر ، ولا يرام من ورائها الاقتحام . إنما كانت
في تدبير الإمام سورا من الأسنة للشرعات بينه ولده ورجاله أمام غسان ،

فيحملها على الثبات والدفاع ، ويشغلها بنفسها وما هي فيه عن الاشتراك في الهجوم الذي أخذت تشنه قوات الشام . .

هذه التؤدة التي التزمها محمد في تقدمه ، قد مكنت قواته المضاغطة من بلوغ هدفها وهي آمنة شر الدفعة . يقطعة لكل حركة قد تأتياها من هناك وتقوم بها بعض الكتائب الأموية التي تعمل دون هدف مقرر ، ووفقا لوصي الموقف ، ومد القتال أو جزره في الميدان . بل لعل غسان قد رأت في ذلك التقدم الوئيد من جانب محمد ورجاله أحبولة نصبوها لها لتندفع نحوهم مهاجمة حين يستخفها ببطء حركتهم ، فتدع بهذا ثباتها الذي أعيا الكتائب العلوية ، وتزاييل موقعها الحصين الذي وقف بها من قبل كالصخرة العاتية في وجه أي هجمة أريد بها إخراجها منه .

ثبتت إذن غسان تربع وهي مطمئنة . ومضت تنضح عن نفسها بالسهم . وثبت محمد على الحطة التي رسمها أبوه ، يتقدم في ثاقل ، ويعشى على هينة ، ولا تغريه أية فرصة سانحة بالتحول من البطء إلى الاندفاع . فما يحق له أن يفحم أو يهجم إلا حين يأمر الإمام . . .

ثم أناهم أمره :

« شدوا ! . . » .

فشد على عدوهم شدة رجل واحد .

وحمل هو . . . وحمل الأشر . وحمل بقية القواد في نفس اللحظة . . ثارت الآن أبالسة الحرب في كافة أرجاء الميدان ، والرماح حينذاك مشرعات في صدور غسان ، تشلها عن الحركة ، وتقف سياجا داميا لا يدع لها إلا الدفع عن نفسها وهي حبيسة في ذلك النطاق المشدود ، إن كان يسعى الدفاع . . .

لا حرارة النهار ، ولا ظلام الأمسية الأغبر عند مسقط الفسق ، ولا أكداس القتلى من الجانبين على أرض الواقعة كانت تمنع المتحاربين عن الحركة أو تعوقهم عن موالاة الاندفاع في القتال ... مضت المعركة والشمس — ذلك اليوم اللافح من يولييه — ثم شيعتها إلى المغرب . ومشت والفسق الباهت . وحلكت الليل حتى ألت بنصفه . وحين حسب بعض الناس أن الفريقين متحاجزان — على مألوف ما جرت به العادة إذ ذاك في الحروب — كان الصراع قد بلغ ذروته ، والحمية قد أذهلت القوم من قادة وجند ، ونشوة الدم أنستهم الحدود الزمنية ... وكانت الرايات لا تزال تختلط ، والفرق تلتصق وتتداخل ، والقوات المعادية تضرب ، أحيانا كثيرة ، وهي لا تكاد تأمن أن تصيب أصحابها الضربات ... ومع ذلك فقد أخذت خطوط المصير المنتظر تبدو للبدائه المباحة خيوطا رقيقة ، رفيعة كنسائج العنكبوت .

هزيمة الأمس التي ردت جناح الكوفة يسرع إلى السلامة ذابت الآن في هجمة اليوم ، خيانة ابن للمعر التي أفسحت لمعاوية في البقاء بعد تهاوى صفوف ممقله قضت عليها الخطة الجديدة . حراب محمد بن علي مضت تحطم جدار غسان كالماول .. في كل قلب في رجال الإمام عزيمة ماردة ، وفي كل خط من خطوط معاوية تكسر ...

وأسرع العاهل الأموي بحث أوليائه :

« هذا يوم تمحيص ! .. إن القوم قد أسرع فيهم كما أسرع فيكم . اصبروا يومكم هذا وخلاكم ذم ! .. » .

وفي الحق لم يتهاون رجاله لحظة واحدة عن الصبر والصدق في القتال . أمامه كان سور يقوم دونه من عك والأشمرين الذين فرض لهم الفرائض ومنام العطايا والهبات الجزيلة . وعلى خيله مضى عمرو بن العاص يشد من عزمه دفاعه عن ابنه . وبلوائه الأعظم انطلق عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، لا يني عمرو يشير فيه الحمية ويشمل دماء :

« أقم يا بن سيف الله فإنه الظفر ! . » .

لكن الأشر كان لهم بالمرصاد . ولم يقف ليدفع ، بل قاتل شاقا طريقه إلى أمام . منذ أمره الإمام بالشد أقدم ، وراح يقدم ، لا تعرض سبيله مقاومة إلا حطمها ، ولا تقوم لمن يخالسونه الهجوم أو الدفاع قائمة ، ومن ورائه أصحابه الذين بهرم بلاؤه مهتفون له :

« يوم من أيامك الأول ! . » .

وكان الإمام حينذاك في القلب . . . هو في الواقع لم يكن بقلب جيشه بقدر ما كان يغوص في قلب الأعداء . . . بعصايته السوداء كالليل كان يندفع في أعدائه أندفاع السهم عن قوسه . وبسيفه كان يشق عليهم صفوفهم فتتناثر منايهم إلى جانبيه كالرشاش . . . ولم يكن له إذ ذاك من هتاف إلا اسم الله ، يهلل به ، ويكبر كلما شطر سيفه ، أو قد ، أو قط من هذه الرقاب والهام والأجسام التي دفعها قضاؤها المتعجل أمام يده الحمراء . .

كم أشفق صحبه وهو يخلفهم ويمضي عنهم إلى هذه الصفوف المعادية فلا يلبث أن يختفي منها وراء أستار وأستار . . . إنه ليغيب حق كأنه قد أصيب . ويطول عليهم غيابه بحساب الوقت وحساب الوهم حق كأنه لن يرجع . ويأكل الجزع عليه من قلوبهم ما يكاد يحمدها فتكف عن الخفوق والوجيب . . . فإذا بلغ منهم اليأس مبلغه ، رأوا تلك الصفوف تنفرج ثانية عنه ، بطوعها ورغبتها ، وهو آمن صحيح جميع إلا لطلحها من دماء ندية تقطر من ثوبه ، وقطرات من العرق تنحدر من جبينه على خديه . . .

ويقبل وسيفه منحني في يمينه من عنف ضرباته ، فيقيم حده على ركبته ، وهو يهتف بصوت خفيض :

« سمدرة إلى الله ! . » .

ويعلم رجاله أنه أسيف ، فقد عاينه الحماة السيف عن موالة الضرب والبلاء في الله حق البلاء ! . ولكنه لا يكاد يعلأ عيونهم من عياه حتى يشهر سيفه . ويعود فيخوض ، ويغوص في أحشاء جيش الشام . . .

كان حركة دائمة ، خلال تلك الساعات ، تتأرجح من وراء الإمام ومن أمام لوراء . وكان مشغلة العيون والقلوب والآذان إذا هجم هلع العدو ، وإذا غاب جزع النصير . فما من رجل في المعركة إلا قد غلبه منه الخوف على نفسه أو القلق عليه . حتى أولئك الصحاب الذين حرصوا على البقاء بمقربة منه ، يقيمون سياجا من أبدانهم حواله ، كانت عيونهم تدور لكي تسير في فلك هجماته ، وقلوبهم تنن كلما غاص وغاب ، وآذانهم تمتد لتلقف على الهواء تكبيراته التي لا ينقطع جرسها للتواتر الرهيب ... كانت حركاته خطفات برق ، أولمعات مرآة تحت ذبذبة شعاع ... وكان غيابه موتا للقلب ، وشجا في الحلق ، وظلمة في العين ... وكان تكبيره بعد هذا كله أغنية — نشيداً حبيباً مرحاً تحن إليه أسماع أنصاره . وترقص على ترجيعه قلوبهم رقصة العودة إلى الحياة ... إنه لنعمة أن يتردد صوته ، وإنها لمتعة ومسلاة أن يتابعوا بالإحصاء تكبيراته التي تصاحب ضرباته ، فتعلن لهم ، واحدة واحدة ، أعداد ضحاياه ...

* * *

وحين غام النهار وكشفه القتام ثم جنه الظلام ورقت النسمة وشف الليل ، كان قواد الإمام جميعاً لا يشنهم شيء عن التقدم وإن نال منهم الجهد ، وأكلت الحرب من رجالهم ، ورويت ، واعقت الجراح ... حتى الصلاة شغلهم عنها السباق للموت ... ومن ذكرها أداها إيماء ... ولكنهم ظلوا الساعات الطويلة صدقا وصبرا ، قائمين على الأقدام ...

جاءه الأشعث بن قيس يلهث ليرفع إليه ما جرت به الأحداث :

« يا أمير المؤمنين ... خيل نكيل ، ورجال كرجال ، ولنا الفضل عليهم إلى ساعتنا هذه ... » .

ولم يستطع سعيد بن قيس أن يقبل ليلفحه ، فبعث إليه من يقول عنه :

« إنا مشغولون بأمرنا مع القوم ، وفينا فضل . فإن أردت أن تمد أحدا

أمددناه ... » .

كان اتصالهم به وثيقا إبان المعركة ، لاننى رساهم تأتيه ناقلة عنهم سير القتال ،
ورسله تمضى إليهم مؤدية عنه أوامره ...

لكن هاشم بن عتبة لم يبعث له . انقضى زمن ولم تأت منه أنباء ... وحق
الجانب الذى كان يعمل فيه من الميدان لاح كأنما خفت ضيعته واحتواه الفتور ...
وأرسل الإمام إليه يأمره :
« قدم لواءك ! .. » .

فابتسم هاشم للرسول بسمة كابية ، خافتة الضوء زهقتها الظلال . ورمقه
بعينه رمقة أسيانة شف عنها ندى دمة حائرة ، وتحركت شفاته تهمسان فى إعياء :
« انظر ! .. » .

ونظر الرجل إلى حيث أشار . . . وشرق . وعرض على شفته تخرجاً ليحكم
صيحة أرشكت أن تفيض من قلبه . ثم لوى جيده حزناً ورقة لينأى بعينه عنه ...
فى هذه اللحظة ، كان هاشم بن عتبة يصير الألم قلبه ، ويقطر الوجع من
ملامح وجهه وعينه كقطر العرق والدموع ، وقد امتدت يده تضغطان شفا
غائراً طويلاً فى بطنه ، بينما أخذ دمه يسيل من بين أصابعه ، وأحشاؤه تندلق
منها أطراف ! ..

وابتسم ثانية . ولعت عينه كما تأتلق زبالة السراج فى نفسها الأخير .
ثم تهاوى على الأديم .

رحل للرجال . . . سقط فى هدوء كأنطلاقة من قليل فى جنبات ساحة القتال
بهدوء وإلى جواره رقد سيناء اللذان شرفا به ، وأبليا معه فى الله . . .

إنها لسويحات — بضعة قليلة على هذه الأرض ، التى تناثرت عليها الجماجم ،
ثم لحق بصاحبه عمار . . . فلعله دعاه ! . . . ولعله هو الآخر أبى الدعوة ، وقد
صاقت بالفراق نفسه وشق عليها ذلك الوداع ! .

١٠

أخذ معاوية معرفة فرسه ، وناضل ما أمكنه بدنه الشحيح الثقيل حتى استطاع أن يرفع رجله ، ويضعها في الركاب ...

هي قفزة إلى الظهر ، فاستواءة عليه ، فلكزة بجانب الفرس ثم ينطلق . لا إلى حيث يشاء ، بل إلى حيث تمتشى به قوائم الجواد . ولا إلى المعركة ، بل إلى الناحية الأخرى . . إلى أى مكان . بعيدا بعيدا عن هذه الساحة الدامية بصفين ، حقل الموت ! . .

كانت على ملاحه غبرة ، ليست بعض قتام هذا الغبار الشائر . وكانت بعينه غيمة ، ليست انعكاسة السواد الباهت الذى ما زال ينتشره الليل ... الشحوب في وجهه . والوجوم في عينيه ... شفتاه اهترتا ولا كلام . وحلقه اضطرب وما نطق ، ومن ثنايا صفوف المحاربين الذين بدوا في ظلمة السحر كالأشباح ، كانت نظراته تتسلل ، هنا وهناك ، وفي كل منحى ووجهة ، زائغة ملهوفة تلمس المهرب البعيد للثبوت ، ثم ترد إليه حسيرة لتذوب في حيرته ! . .

ولم يكن حينذاك بالجبان . كلا . وما كان ... في الصراع الذى اشتعل كل هذه الأيام ، نظم وأقدم وناضل . وطوال الأشهر التى مضت قبله دبرا وأعد واحتال . وعلى مدى السنين التى اقتعد فيها أريكة الحكم في الشام رجا وتمنى وحلم . ثم هاهو الآن — هذه اللحظة بصفين ، ترده إلى الوعي بقطة عنيفة نسخت الحلم ، وأفسدت الاحتيال ، وقضت قضاءها للبرم في نتيجة المعركة ...

أينما نظر شهد كارثة . بناؤه الضخم تهوى وانهار . خطوطه تقطعت . صفوفه الممتدة غدت وصائل صغيرة تصل بين ثغرات ! . . حتى أولئك الذين قاموا دونه يدافعون عنه ، قد أعيام الصبر حتى لكادوا أن يملوا القتال . لا رجاء له إذن في نصر ، ولا في مقاومة ، وهذه قوات على تسرع نحوه لتخرق عليه إهابه ... وتفرس بعين في فرسه . ما من جدوى من البقاء بأرض الوقعة ... وحلق بأخرى في رجاله الذين يتقصفون في الهول الدائم كأنهم أعواد . ما من مصير لهم سوى الرقود على مواطنهم ، ضحايا وفرائس ، تطعم الأرض وتسقى التراب ! ...

فكأنما قابل بين مصيرهم ومصيره . مثاويهم ومنجاء . موتهم حيث هم ،
وفراره حيث الحياة ... وكأنما أنقلت هذه المقابلة قلبه ، وأوقرت ضميره ،
فإذا هو يزم بالعزم شفتيه ، ويخلع رجله من الركاب ، ويتمتم لنفسه وهو خزيان :
« مكانك محمدى أو تستريحى ... » .
وثبت حيث كان .

لكنه كان ثبات سويحات .

ففى الجانب الآخر كان على تصور لأصحابه حالة الحرب والمحاربين ، فيقول :
« ... قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ! ... » .
بل آخر خدعة ! ...

كأنفاس الليل التى أخذ يلفظها السحر ، كان جند الشام يلفظون عزائمهم .
لا قدرة . لا طاقة لهم باحتفال . القبة الكبيرة البيضاء أصبحت على قيد رمية .
حررها الآن مباح معاوية طلل عاهل ! ...

قلولا أن أضواء الفجر كانت شهباء ، لوسع الأعين فى جيش على أن ترى معالم
الحيا الحائر الكثيب الذى يتخايل حياها هناك . ولولا بعض قمعة السلاح ،
وهرج الأقدام ، ووقع الخوافر لسمعت الأذان اضطراب أنفاسه ...

ومرة أخرى راودته فكرة قديمة : أما من رجل من أهله ، أما من
صاحب له ، أما من فارس من الشام ينهد لغريمه ، هذه اللحظة ، فيرده غيلة ،
أو يلقاه فى مبارزة اعلمها تقلب لليزان ؟ ...

كان هذا أمه الباقى فى الوقعة ولا أمل سواه . ولكنه رجاء بعيد كالنجم ،
موهوم كالسراب . فلم يقم للإمام واحد من جيش الشام وإن علموا جميعا أن
ملاقاته وحده كملاقاته فى جمعه كليهما خاتمته حمام ! .

حق ابن العاص لم يكن أرفق به ... لم ينس فى هذه اللحظة نفس عبثه القديم
بصاحبه ، ونفس سخريته منه ، بل أعادها على سمعه ثانية : « أبرز له ! » فوثبت

الفكرة من جديد ... وعندما شاءت الأقدار من بعد أن يشر الأمل في الملك ،
وتقبل الدنيا على معاوية ، ذكر ذلك الموقف وهو على عرشه ، وراح ييكت به
ابن العاص ...

قال له ، بعد سنين :

« يا عمرو ... هل غششتني منذ نصحتني ؟ » .

فأسرع يدافع عن نفسه :

« لا والله ! » .

« بلى والله ! ... يوم أشرت على بمبارزة على وأنت تعلم ماهو ... » .

وعندئذ لم يعدم ابن النابغة ردا أسعفته به بديته التي تحسن الانسياب من
كل ضائقة ، وبادر بحجب :

« دعاك إلى المبارزة فكنت من مبارزته على إحدى الحسينين : إما أن تقتله
فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزاد شرفا إلى شرفك . وإما أن يقتلك فتكون
قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ! » .
فضحك معاوية وقال :

« الثانية شر من الأولى ! » .

وضحك أيضا ، ذلك الفجر بصين ، وهو يرى كيف لعبت به الحيرة حتى
جعلته هدفا لعبث ابن العاص . لكنهما ضحكة جوفاء وقعها القلق على أوتار أعصابه ،
لا تنطق بفرحة ، ولا تنهى عن هم ...
وأغضى مليا ..

وحين رفع ثانية وجهه ، كان الشحوب يقطر من ملامحه ، والسهوم ينام
في عينيه ، وعلى شفقيه المرتجيتين ترتجف همساته اليائسة :

« يا عمرو ... اليوم صبر ، وغدا خفر ... » .

فلم يزد صاحبه على أن قال له :

« إنا وما نحن فيه كقول القائل : للوت حق ، والحياة باطل ! » .

صدقه ابن النابغة . لم يغشه هذه المرة ولم يخف عنه وما كان ثمة سبيل لإخفاء
وقد بات جلياً لعينه أن الحياة أصبحت من ضروب المحال ، وأن الموت الآن
هو المصير اللازم ... فهذه جيوش العراق تسرع في جيشه ، وتهمد كل ما يقوم
لها منه ... هاهو على حياله ، ينطلق إليه ولا تفصله إلا شقة تقاس بالميل وبالأذرع ،
وتكل القوائم طيها للأقدام ١ . . . هاهو الأشتر قد حى فنزل عن فرسه ،
وراح يسعى بقدميه كأنما يبتغي من الله للثوبة بسعيه ١ .

لا قتال الآن يشبه ما سلف من قتال وما تواضع الناس على تسميته بهذا
الاسم . لا أزيز أسهم . لا انطلاقة لرمح . المسافات بين الجيش عنافت فلا حاجة
الآن لرمية بنبل أو حربة . الجنود من الطائفتين تتجالد بالسيف ، وتمتنق فتدافع
بالكف وبالظفر وبالناب ... وفي أثناء هذا الصراع اليدوي الوحشي كانت تنطلق
من هنا ومن هناك من بقايا صفوف الشام أصوات تهتف ضارعة :

« الله الله في الحرمات ١ ... الله الله في النساء والبنات ١ . . . »

وجزع معاوية ... إنه ليعلم أن ثمة أملاً له ، بين الصفوف العلوية ، في الأشعث
ابن قيس حسبا جاءت الأخبار . ولكن بزوغه أبطأ عليه :

« يا عمرو ١ . . . إنما هي الليلة حتى يغدو على علينا بالفصل .. فما ترى ؟ » .

قال صاحبه إذ ذاك بهدوء ثقيل مريب :

« إن رجالك لا يقومون لرجالهم ، ولست مثله ... أنت تريد البقاء وهو
يريد الفناء . وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخافون
علينا إن ظفر بهم .. » .

فلم يقب العاهل المهموم . كتم بقلبه غمرة خديته ... ووقف وهو حائر
يفتظر قدره للقدور ، تلك الساعة ، والأشتر يسرع ، وعلى يده من لدنه بالرجال
وقد لاح الظفر كبشائر الفجر الجديد . . .

وراح الأشتر ينطلق قدما ، ويدنو ، والموت يدنو معه ، إلى القبة الكبيرة
البيضاء ... وسرى المهرج في أهل الشام ... وتواترت صيحاتهم الضارعة تشق
الفضاء وهم يمايئون صواعق الهلاك تنقض عليهم من كل ناحية فتسحقهم وتحيل

عظامهم إلى ذرات غبار . . . واستبد بأمرهم فزعه ، فجذب مشيره يضرع إليه
« قد هلكنا . . . »
فأغنى يفكر . . .
« نعلم مخباتك يا ابن العاص . . . »
فكان سكرون . . .
« تذكر مصر . . . »
عندئذ فرغ ابن النابغة من مشاورة شيطان خبثه ، والتفت باسماً إلى صاحبه ،
يقول له :

« ألق إليهم أمرا ، إن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا . . . »
فالتفت عينا العاهل رجاء ، وأرهفت أذناه . . . ومضى رفيقه يبين له :
« ادعهم إلى كتاب الله . . . »
ثم نادى في الناس :
« يا أهل الشام . . . من كان معه مصحف فليرفعه على رعه . . . »
وكان هذا مولد خدعة جديدة . . .
وكان فجر الجمعة الثانية من صفر يكاد يسفر عن محيا الصباح . . .

١

الفجر ولى ، والبكور أقبل . السواد ذاب في كأس النور . السماء اكتست
في المشرق وشاحا من الزرقة ، أشهب كالبحر الكدر ، أغبر بلون الرماد . . .
ضياء كظل ، وظل كضياء . . . غبشة الصبح تلف كل ما تلقف الأعين .
على الأرض منها ضبابية ، على الأفق غيمة . الشمس أيضا توارت وراء سحب
مضطربة من رهج الوقعة . والسكان ، بين سمائه وأرضه ، كان لوحة مهزوزة ،
اختلطت فيها الألوان والعالم ، وتداخلت الأضواء بالظلال ، ولولا الصليل والصهيل
والصيححات لكان أدنى إلى صورة بالية خرساء . . .

حتى الأصوات كانت كأصدااء . خفت الجرس . خف الوقع . ثلث الحدة ،
وباتت جميعها كالترجيع الأجوف . . . وعلى مدى الساحة الفسيحة المنبسطة ،
كانت الصيحة أنه ، والحركة إعياء . . .

الظافر والمهزوم كلاهما في وهن ، قد زلزلهما التعب ، وبوت جهدهما مشقة
القتال . . . رجال على ترميمهم على عدوهم قوة دافعة — هي بقية تقدمهم —
لا تكاد تمدها الإرادة بشيء ، وإنما تجرفهم أمامها اندفاعا الليل جرف التيار .
وجند معاوية تمسك عليهم كفاحهم الباقي غيبوبة نفسية ، هي الحمية ، التي ما زالت
تتحدّر في عروقهم من الأجيال . ومن بين أولئك وهؤلاء تنبث للحركة علائم
من الصياح والمهرج والأصوات ، عن غير وعى ، وبلا تدبير ، كانبعاث الضجيج
من دولاب دأّر دفعه للراء ثم تركه يسير . . .
كانت الحركة التي تحن للوقفة . . .

وكان الدولاب يتأيل ، من وهن ، إلى هنا وإلى هناك ، حتى يتهاوى أو يصدمه
ما عسى قد يكفه عن انطلاقه . . .
والنهار ، حين أصبح ، أنى القوم جميعا بتلك الصدمة اللاجئة وبما أشيع
الحنين . . .

* * *

في اختلاطة النور ساعة للشرق ، بغبشة البكرة ، ورماد الغبار ، تخاللت
لأعين اللندنيين قدما صوب معسكر معاوية بضع مئين من الأعلام . . .
ولم تكن خفاقة يلعب بها نسيم الصباح . . . لم تكن — فيما بدا للرجال على —
من ديباج ، ولا على شاكلة ما يعرفون من ألوية ترفعها السواعد أمام الصدور وفوق
الأعناق . بل قد شدت إلى رءوس الرماح والحرايب ، ورقعت على ظهور الجياد . . .
وعجبوا مليا . وتفرسوا . ورنوا . إنها تمتد حيال معسكر الشام كأنها أعواد
سياج . متقاربة ، متدانية ، ومن ورائها احتفى الجنود . . .
لا حركة بين الأعداء . لا رنة سلاح . لا وقع قدم . كلهم وقوف ، بلا حراك
كأنهم صفوف من الأعواد تؤلف بقية السياج . والسيوف في أكفهم مدلاة ،
والقسي مرتخية الأوتار . . .

وعندما أعى رجال الإمام أن يتبينوا — من بين غيمة النقع — معالم تلك الرايات ، انطلق صوت رافع مجلجل من فوق معسكر معاوية ، يصيح في ضراعة وإبتهاال . . . » .

« يا أهل العراق ... كتاب الله بيننا وبينكم . . . » .

فبهت المندفعون . . .

على الفور امتدت إلى الصائح الآذان ، وتطلعت الأعين ، وتعلقت منه بسن رعه التي رفع عليها مصحف دمشق الأعظم ، ووقف به في شقة الأرض بين الجيشين التي كانت أرجل للمشاة ، وقوائم الخيل في الكتاب للنطلقة قدماً تطويها خطوة بقدم وعدوة بذراع . . .

كان النداء مفاجئ بدت تكلم القوات المتصرة فوقفت بها ، أو كادت ، حيث انطبعت الأقدام ... فثمة حيالها دعوة إلى الله ، وجند عزل ، سيوفهم مدلاة ، وقسيهم مرغية الأوتار

ورنت الصيحة المجلجلة :

« كتاب الله بيننا وبينكم . . . » .

واهتز مصحف دمشق الأعظم ، كأنه يردد النداء ، ومن ورائه اهتزت مثيل مثله من الأعلام . . .

ثم ارتفعت في أعقاب هذا أصوات تضرع :

« يا معشر العرب ، الله الله في نساتكم وبناتكم . . . » .

« الله الله في دينكم . . . » .

« من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ . ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ؟ » .

« من لجهاد الروم ؟ . من لترك ؟ . من للكفار ؟ . » .

في كل نبرة من هذه الألفاظ توسل ، وفي كل حرف من حروفها حزن ، خفي خجول ، يتسلل إلى الهواء على استحياء . وإلى القول التي عاينت المحنة . وإلى القلوب التي خالطها التي فسالت رقة ومرحمة — لكان الصدى الذي خلقته هو هذه اللمة الحيرانية في العيون الشاحصة إذ تتألق بندي السموع . . .

وتواترت الصيحات . وترددت مراراً ، مراراً راجفة عالية ، ضارعة مبتهلة
تكشف الخشية من الفناء ، وترسم الخوف من غد قريب مجهول تصبح الأمة
فيه — لو مضت المحنة إلى غايتها — طعمة لكل موتور ، وتفصح عن الأمل
في بقيا حبيبة . . .

« هذا كتاب الله بيننا وبينكم . . . »

وغرق رجال على في طوفان .

من كل ناحية ترددت الحمسات . من كل فرقة وكتيبة ، من كل زمرة
وجمع . حق الذين زهدت شفاههم في ترديد الحمس وجدت عيونهم عن التألق
بنداها ، كان للضراعة في قلوبهم أصدااء . . .

وسخط الأشر . وحمى ألقه لبادرات الضعف التي على ملامح القوم منه رقة
وفي أ كفههم فتور يكاد يشقلها بما حملته من سلاح ، وفي أقدامهم بطء وهينة . . .
أهو التعب أم التخاذل ؟ . . . أعن إجهاد أم الدعوة الضارعة لقيت منهم للملأى
السميع ؟ . . .

وعلا صوته يشغلهم عن خواطر الأذهان المثبطة ، وينتقل بهم إلى الحياة
في حرارة الكفاح .

« اصبروا ! ! ! اصبروا يا معشر المؤمنين . . . »

كان هذا دائماً ندائه ، في كل ساعات الحرب ، وفي كل مرحلة منها قطعها بجنده
من الشقة التي كانت تفصل بينه وبين معسكر معاوية . . . الإقدام دعاؤه ، والصبر
نحوه . كان مشغلة لرجاله بحماسته المشبوبة ، ومذهلة لهم باقتحامه الخطر غير
هياب حتى ليستهوهم اتباعه فتندفع جموعهم وراءه مسحورة ، بغير تحرز
ولا مبالاة . . . يقول واحد من الذين سمعوه وشهدوه وأعجبهم حينذاك سيره :

« أى رجل هذا — لو كانت له نية . . . »

فإذا آخر ينبرى بالجواب :

« وأى نية أعظم من هذه ، ثكلتك أمك ! . . . إن رجلاً فيها قد سيع

في الدماء ، وما أضجرت الحرب ، وقد غلت هام السكاة من الحر ، وبلغت القلوب
الحناجر وهو كما نراه جذعا يقول هذه المقالة . . . »

ويتبعه الرجال ، مسحورين ، بالقلوب والعيون والأوصال ، وهو منطلق في غمار الحومة الدامية

وفي الحق لم يكن الأشتر بالمتهم في سببه على القتال ولا في وفائه للإمام ونيته للمقودة على بلوغ أوج غايته فكذلك كان . وعلى هذا دأب حتى انتهت به حياته فجأة ، ذات يوم بالصحراء الشرقية ، على حافة حدود النيل . ولم يجر على الصدق من قال فيه من بعد :

« . . . وما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام ، وهزم موته أهل العراق ؟ » .

لكنه — على غير ما انتهى — لون للشهد الأخير من وقعة صفين بلون باهت خايل الأنظار وداخل العقول حتى اقترن حيالها بما يشبه الهزيمة إن لم يكن هو الهزيمة النكراء . ولم يسعفه صبره إذ ذاك ووقفت نيته مشلولة والسويمة الباقية من عمر الحرب ، وقد قررت لنا دوره قبلها ، ستوجه سيره بعدها فاذا هو يجرى في خط بعيد البمد كله عن طريق النصر . . .

ومع هذا فلم يكن سيره ذاك عن خيانة ، ولا عن فتور بعزمه الذي كان يتعرق على موالاته الكفاح إلى الفوز أو إلى الموت . ولا إيمانا منه بصدق الدعوة الخاتلة التي دعا بها عسكر معاوية حين رفعوا القرآن . . . فالضراعة المرتجفة لم تمس قلبه . وصيحاتهم للهوفا مرت دبر أذنيه وهو يندفع قدما صوب القبة البيضاء . . . وتلفت العاهل المنجوع في حيلته ، والأشتر يقدم عليه غير ملق باله للضراعات والمصاحف كأنه فقد الأذن والعين ، أو تلبس من اندفاعه بوقر وغشاوة . . . إنه لا يزال ينطلق . قدما ينطلق . بغير تريث . بغير تردد . بغير صمت من صمات المطف والرحمة التي ارتسمت الآن على وجوه بقية رجال الإمام . وها هو للموت يدنو معه . وها هي للسافة تذوب !

غير أن ريحا من الطمانينة كانت تهب على معاوية ، بمأزقه هذا ، بيومه هذا ، فتبرد هونا من اضطرابه ، حلقه يندى من بعد جفاف ، فؤاده يقر بعض القرار . عيناه التان غشاها الجزع بدأت الغشاوة تنجاب عنهما ، رويدا ،

وها تسبحان به على لجة خياله عبر الصفوف التي ملكتها الرحمة ... ثمة بارقة أمل .
فرجة لهمه . ثغرة بتلك الصفوف المخدوعة لن يلبث حتى يفتحها خداعه فينفذ
من خلالها إلى ما يريد ... ولم تكن هي العاطفة الإنسانية التي ترق لضارع
ملهوف ، ولا نجدة الفروسية التي تعف عن مقاتلة أعزل . وليست أيضا العاطفة
الدينية التي تفيض بقلوب النقاة الورعين فتسيل خشية وتلبية لهذه المصاحف
التي احتوت كلام الله . كلا ، لا هذه ولا هاتيك . بل الدسيسة التي تسربت
بالظلمة ، ثم تسلت تسلل الأفاعى السامة في أثناء الرمل ...

٢

المسيحات التي ردها الصبح من ناحية الأمويين لم تكن أولى الضراعات
للمرجفة . سبقتها في الليل أخوات كانت الفاتحة : ... طليعة الحملة المخاتلة : ...
باكورة الثمار الحبيثة التي أطلعنها شجرة التآمر للمعونة : ...

لكنها مضت فرادى حينذاك ، من هنا مرة ، ومن هناك مرة . تنطق بها
أفواه بعض الناس من رجال الشام ، ولا تكاد تلتقطها إلا آذان بعض الناس من
رجال المراق . غير أن أذنين اثنتين كانتا أحفل بها ، أحرص على الامتلاء منها
حتى تضاقتا بغيرها من ضجيج الديدان وأخلط أصواته . . .

وأرھف الأشعث بن قيس سمعه ، الليلة الأخيرة في حياة القتال ، ليلة الحرير
وسكن يصيح :

« يا أهل العراق : من لدرارينا إن قتلتمونا ؟ . . . ومن لدراريكم إن
قتلناكم ؟ . . . الله الله في البقية ، يا أهل العراق ؟ . . »

أفهى العلامة التي تم عليها الاتفاق ؟ . أم الصادقة وحدها قد دفعت أولئك
القوم في الجيش الآخر إلى هذا الداء الذي تردد مثله منذ قليل على شفتيه ،
فيجدر إذن أن تكون الصدفة التي تزدى بكل اتفاق ؟ . . . طي أية حال كانت
هذه الدعوات المنطلقة مع الليل صدى لما رده الأشعث بن قيس ، في نفس الليلة

قل أن تضيع عندما وقف بين رجاله من كندة موقف الخطيب ، والرحى حينذاك تطحن ، ونار الحرب تأكل وتطلب للزبد . . .

قام ، في تلك اللحظة الحامية ، بارد القلب هادئ للشاعر بين قومه ، يلجمهم ولا يدفعهم ، ويفل من عزمهم ولا يشحذهم ، كأنما الخير قد غدا في التثييط — والوغى تستمر — دون التحريض . . .

قال ، والسامع يوشك أن يتهم فيه بصره فيحسبه اكتسى الآن مسوح الحكمة والوعظ وخلع عن نفسه شكة القتال :
« يا معشر المسلمين . . .

قد رأيتم ما قد كان في يومكم هذا للماضي ، وما قد فنى من العرب . فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيتم مثل هذا اليوم قط . . . »
وأصغت إليه كندة . . . بغير هذه الكلمات طالع الأشعث أمير المؤمنين منذ قليل . بالحمة ، والرغبة الطاغية في البذل ، وموالاته الحرب إلى غايتها حتى يفتح الله أو تكون الشهادة . . . فكيف تبدلت الحال ؟ . ما الذي غيره ، وانتقل بنفسه هذه النقلة العجيبة من المغالاة في الهمة إلى المغالاة في التخاذل ، بين سوية وسوية ، ليلة الحرير ؟ . . .

ومضى يقول ، وصوته يتشكل وفق منطقته ، إشفاقا ، أورقة ، أو جزعا لعله يجاوز خشية الجزوع إلى أسفل التائب ، وألم النادم على ما فات :

« . . . ألا فليبلغ الشاهد الغائب إننا إن تواقفنا غدا إنه لفناء العرب ، وضیعة الحرمات ؟ . . . أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الخنف . ولكني رجل مسن ، أخاف على النساء والذرارى غدا إذا فني . . . »
ويرفع وجهه الحزين للسماء :

« اللهم إنك لتعلم آتى قد نظرت لقومي ، ولأهل ديني فلم آل . وما توفيقي إلا بالله . . . »

لم توقع هذه الخطبة ، التي حبيت القعود إبان النصر ، عوامل الوهن في قلوب كندة أصحاب الأشعث وحدهم ، بل تجاوزت نطاقها إلى غيرهم من الناس . لاحت باديء الأمر رأيا خاصا بذله لطائفة خاصة هي قومه من البجانية ، ثم لم يكد يسير فيها إلا أسطرا قليلة حتى أرادها عامة ، وجعل نشرها بين السكافة من جيش على أمانة معلقة في أعناق أصحابه ، يؤدونها عنه ، شاهدا لغائب ، وسامعا مقبلا لبعيد قد نأت به حركة القتال ... كانت بذرة جرثومة من جرائم دائه رعى بها الجماعة السليمة وقد بما انطوت نفس الأشعث على دخل للإسلام حتى خلع نفسه وثاقه وارند طائعا إلى الجهاد العمياء . وبالأمر القريب ، وحرب صفين في مدها وجزرها ، خايله عتبة بن سفيان ، بلسان أخيه معاوية ، وحرك فيه نزعات غروره واستعلائه . والذيلة ، وجيش الإمام على حافة النصر ، والحق قد بلغ مقطعه ، يجنح للرتد للغرور إلى دعوة الوهن والتوهين وما زال ضراعة أهل الشام سرا تكتنه الخواطر ، وغيا تسره الظنون

فكيف تبدلت الحال ؟

ما الذي غير الأشعث ، وانتقل به هذه النقلة العجيبة من المغالة في الحمية والهمة إلى المغالة في التخاذل والتخذيل ؟

ليست الصدفة على أي وجه ، أو هي الصدفة التي تساوى التدبير المحكم ، وتمدل الاتفاق

وتنطلق العيون من هذا المعسكر إلى ذاك ، تبلغ معاوية الخطبة . فإذا هو ينفى إلى بعض طمأنينته . وإذا قلبه الداهب يشوب . وإذا عيناه تسرحان مع خياله عبر الصفوف الهائلة ، الزاحفة إليه ، الداهمة كالتضاء هذه إذن فرصته . الأمل الرقوب . الثغرة التي انشقت له في عدوه ينفذ منها إذا شاء لما شاء وعندئذ يحمد الرأي الذي دعا به شيخ كندة ، ويشيد به في حماسة واهتمام :

« أصاب ورب الكعبة . . . »

ولم لا ؟ . لقد أصاب الوحدة العلوية في الصميم

ويعضى المعاهل في ثنائه :

... لئن نحن التقينا غدا لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ، وتميلن فارس على نساء أهل العراق وذراريهم .. أصاب والله ! ... وإنما يبصر هذا ذوو النهى والأحلام ... » .

ثم يذهب يستهدى رفيقه ابن العاص فينسج له ، ويحك ، ويحك الشراك التي نصيها عبد اشراقة الصباح

وفي الجانب الآخر يقع الاختلاف ... ما يكاد الأشعث يلقى بدعوته للموهبة بالنصح ، المزيفة بالحكمة ، حتى تنتقل من أذن لشفة ومن شفة لأذن ، فتذيع بين القوات العلوية مقرونة باللفظ والمناقشة والجدال . لقيت هوى من لدن الأعضاء للمفتر ، والأبدان المنهوك ، وأوسعت لها في دخيلتها مكانا نفوس قرحها الحزن ذوى قرابة ورحم حطمهم الحرب القاسية هنا أو طحنهم هناك ... الدولاب الدائر أخذ يتروح ويتمايل دون أن يبلغ غاية انطلاقه !

وثار الجدل . مرارا كثيرة ، في الليل والبكور ، تواقف الصحاب يبحثون الأمر ، ويقلبون أوجهه . من عاد ليباغ الإمام سير القتال . من نهى ليجد . من أفسحت لهم الحرب من لحظاتها ما يشغلونه بحديث ... يقول عدى بن حاتم :

« يا أمير المؤمنين ... كل مقروح ، ولكننا أمثل بقية منهم . وقد جزعوا وليس بعد الجزع إلا ما تحب . فناجز القوم ! ... » .
ويقول عمرو بن الحمق :

« .. والله ما نصرناك عصبية على الباطل ، ولا طلبنا إلا الحق ، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوت إليه لكان فيه العجاج ... يا أمير المؤمنين ، قد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا معك رأى ... » .
وبهتف الأشتر بعلى :

« ... افرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله ! ... » .

في مستهل الجدل كان القوم أميل إلى الثائرة ، أحرس على موالاته النضال في لحظاته الأخيرة حتى يشمر لهم نصرا قاطما تتبعه وحدة وتقواه سلم . لكن ...

الأشعث وحده هو الذى خالفها ، أو بدا حينذاك المستمسك بدعوة الموادعة التى أطلقها فى الليل . إنه لا يخضع للرأى الغالب . لا ينزل على حكم رفاقه . لا يزال يلحف وبلح حتى يبلغ به إلحافه وإلحاحه حد الغضب والثورة كأنما يريد أن يحملهم حملا على قبول دعوته :

« إننا لك اليوم على ما كنا عليه أمس . وإيس آخر أمرنا كأوله . وما من القوم أحد أحق منى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام منى ... فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق بهم منه . وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال ... »
ويهدىء على تأثيرته

« هذا أمر ينظر فيه ... »

لكن الرجل ، فيما بدا ، لا يرضى لرأيه أن يغفل ، أو يغلب ، أو يتناوله العقول بالتمحيص . فمضى ينشره ، ويروج له فى الصفوف ... لم يرض بالسكوت بل كان أعظم الناس قولا فى إطفاء الحرب والركون إلى الموادعة ، والرحى حينذاك تطحن ، ونار الوغى تأكل وتطلب للزيد ...

فى هذه اللحظة كان الأشعث يصبح برجاله ، صيحته التى تبعده عن أذهانهم خيالات التجاذل البادية فى ثياب عرائس السلام .
« اصبروا ! . . اصبرا يا معشر المؤمنين ! . . »

إنه يمضى الحديث الذى زخره الأشعث لم يفل عزمه ، ولم يخفف ضرباته . الجدل الذى تركه وراءه بين رفاقه من قادة الرأى فى صفوف الإمام كان أدنى فى ظنه من محاورة قد تختلف فيه النظرات ثم لا توقع — آخر الأمر — الاختلاف . الحق بين والنصر بين ، وإن هى إلا خطوات إلى القبة الكبيرة البيضاء ويسقط آخر معقل للأعداء ، فيسكت المحاور وينفض السامر ...

ومضى قدما بلا تلكؤ بغير صدى يتردد فى خاطره لهذه الصراعات التى بحث بها أصوات جند الشام . بغير ظل للعطف أو للرثاء ترسمه على ملامح وجهه الصارم لحفة الغريم المغلوب . وما هو اللوت يدنو معه ، وماهى المسافة تذوب ...

ورجف معاوية .. ما لأمله لا يبرغ ؟ ما لفرسه لا يشمر ؟ .. ما لهذه الثغرة
التي حسبها في الليل قد انفسحت له بين صفوف الإمام لينفذ منها الخداع والديسة
قد بدت الآن تضيق وتضيق كلما تبلغ النور ؟ ..

ويجزع الرجل . ويجزع معه أصحابه الذين علقوا حياتهم بذلك الحيط من
أمله ، فيصيحون حمية :

« يا معاوية ! .. ما نرى أهل العراق أجابوا إلى ما دعوتهم إليه
فأعدها جذعة ! .. »

فيتفكر برهة ، وهل بقي له ولحم عزم ، أو فرصة لثبات على الأقدام !
وينفثون في روعه :

« .. إنك قد غمرت بدعائك القوم ، وأطمعتهم فيك ! .. »

لكنه لا يصنى . مرة أخرى يمد بصره على أجنحة خياله ما وراء تلك
الصفوف المظفرة ، إلى وكر هناك تعيش فيه الديسة وتفرخ . مرارا أيضا
يماود الأشعث بن قيس دعوة للوادة ، وإطفاء الحرب ، والوهن والتوهين .
والأشعث حينذاك ينطلق ، بغير أذن تسمع الضراعة ، وبغير عين ترى للصاحف
الرفوعة خياله على الرماح كالأعلام ! ..

٣

ثار الإمام بالذين ما ونوا يلحون عليه في الاستجابة لضراعة أصحاب معاوية ،
وتلبية دعوة الحكم بالقرآن :

« إنها كلمة حق يراد بها باطل ! .. »

ولكنهم ظلوا يلاحون ..

الآن وجد توهين الأشعث بن قيس سبيله إلى النفوس ، في صورة حكمة ،
وعطف لرحم ، وبقيا على الدارارى والنساء ! . وأخذ ما كان يردده أهل الشام
يتردد على السنة أهل العراق : « من للروم ! . من للترك ! . من للكفار ! »

واستنامت الكثرة في جيش على لمظهر الدعوة البراق دون الحذر من إيهام الخبيث .
فما يهمهم الفوص في قلبها ، أو الكشف عن سرها المستور . إنما يجدى عليهم
أن يقبلوها كما هي — وإن كانت طلاء وقشرة — ففي قبولها الحياة .

كالنعام أغمضوا عيونهم عن شرك الصياد ، وأخفوا ردوسهم في الرمال .
أولئك الذين نهضوا لله ، وهاجروا من ديارهم في الله ، وحاربوا فقتلوا وقتلوا
وهم على بينة وإيمان ، فترت الآن منهم العزائم ووهى الجلد والنصر أمامهم
يعاينونه من قريب . . .

وهتف بهم يحذرهم :

« عباد الله . . . إني أحق من أجب إلى كتاب الله . ولكن معاوية ،
وعمر بن العاص ، وابن أبي معيط . . . ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن
إني أعرف بهم منكم . . . صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا ، فكانوا شر أطفال
وشر رجال . إنها كلمة حق يراد بها باطل . . . »
ثم مد يده إلى المصاحف لترفوعة كالأعلام :

« ... انهم والله ما رفعوها لأنهم يعرفونها ويعملون بها ، ولكنها الخديعة
والوهن والمكيدة . . . »

فما أجدى تحذيره . وبقوا يرنون إليه بعيون جوفاء . حق إذا استيأس صرخ
فيهم كأنما يستعين بقية من حميتهم القديمة ، وشرعة الجهاد والتضحية ، على
نفوسهم التي قتلها خوف الموت ، وفتنها حب الحياة :

« عباد الله . . . أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق
مقطعه ، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا . . . »

فقليل سمع ووعي ، وكثير عاند وكابر ...

تصايح فريق يليه :

« نقاتل . . . »

« نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه أمس . . . »

فإذا أصواتهم تضيع في هدير معارضيه :

« أكلتنا الحرب ا . ا »

« قتلت الرجال ا . ا »

« أجب القوم إلى ما دعوك إليه فإننا قد فنينا ا . ا »

وماج الناس . وتواترت حشودهم عليه من أرجاء الميدان ، على أجسامهم الزرد ، وعلى وجوههم أقنعة الحديد ، وفي أيديهم السلاح ... جموعا وفرادى جاءوه . فرقا وكتائب من هنا ومن هناك . مختلفين الفراغ في الساحة . لغير تلبينه كان هذا الإقبال ا . لغير التبصر بما أشار ا . لغير نصرته كل هذه العدد والأعداد من المدروع والنصال ، ومن للغاوير والأبطال ا . وقت الفتنة واضطرب لليزان ...

وضاع صوت الإمام . أغرقه المهرج والجدل والضجيج . فما بقي ثمة من هذه الجموع الحاشدة سوى عيون جوفاء ، وقلوب مغلقة ، لا تراه الآن إلا داعية حرب هم الذين كانوا يتبعونه ، منذ ساعات ، خفافا سراعا إلى مفاوز الموت ، في سبيل الحياة ا . فما أعجب القلب من قلب ا . وما أقوى الوهن وأعنى سلطانه حين ينطلق من عقاله فتسرى إلى النفوس عدواه ا

من خمة الليل إلى تألق النهار تبدل الأمر حالا بهال . سرعان ما تغير . انقلب ... الفلة المكدوعة ربت ، ونمت ، وأثمرت فأصبحت كثرة . والكثرة الواعية التي كانت ترى الاستمرار في القتال إلى النصر ، عزت الآن عليها الأعمار وهانت القيم الرفيعة ، فأخذت تتسرب ، رويداً رويداً في أغوار تخاذلها ، تسرب الوابل المطال في الرمل إلا بقية — كقطر الندى — على سفوح كسبانه ا .

الآن قد استمعى الداء . كل ما حاول الإمام أن يحمل به رجاله على الاستمسك بالصبر ، والتذرع بصدق البلاء ساعة — ساعة واحدة تأتيم بعدها العزة ، ووحدرة الأمة ، والسلم الدائم ، لم يجد صدى في قلوبهم التي استعبدتها خدعة معاوية . لكنهم في الحلق لم يكونوا جميعهم مخدوعين . فطائفة أضلها تقاها حين حسبت أن في إبانها الاحتكام إلى كتاب الله خروجاً على شرعة الدين . وطائفة

أنهكتها الوغى ، وأكلت من عشاؤها للوزعة بين جيش العراق وجيش الشام
فأثرت تعجيل السلامة وطائفة ثالثة خاضت الحرب عن حمية لا عن إيمان
فاكتفت بتلك الضروب للبسالة التي أبدتها خلال ماساف من أيام القتال ، ففيها
غناء حين تمشى بسيرتها الأحاديث . وبين أولئك وهؤلاء فريق غيرهم خايلته
دنيا ابن أبي سفيان ، إن بالملق أو بالمغنم من ثراء وجاء ، في وقت أيقنت فيه
أن عليا صاحب آخرة ليست تطلب عنده أطايب الحياة ...

هذه الصفوف من « الأحزاب » لم تكن كلها في جيش الإمام يوم خرج
مخرجه من ذي قار . ولقد رأينا حينذاك حريصا الحرس كله على أن يوفر
لقواته اللوامة والانسجام بين عناصرها ، فلم يستلحق أحدا كره النهوض معه ،
كما أبي الإباء كله أن يضم إليه كل امرئ قال الشبهات إنه شرك في دم عثمان ...
لكن انتصاره في البصرة على أصحاب الجمل قد أمدده من العناصر التي خالطت
جيشه ولحقت به ، بما لم يكن يرضاه لو وكل بالقلوب يقرأ خباياها ، وبالنيات
للكنونة يكشفها ، وينقدها خالصة ومدخولة . فلقد جرى القوم حينذاك على
ما يجري عليه الناس ، في كل زمان ومكان ، فلحقوا بذيله إذ هو غالب . وجاءته
منذ ذلك اليوم من جمادى الثانية ، عامه الماضي ، زمر ووفود من أقاليم دولته
لتسائده في كفاحه ...

من هذه الأخطا كان جيش صفين . وللغاية التي مضى إليها الإمام مضت معه
وقد ازدهاها أن تساند ابن عم الرسول ، صاحب الحق الشرعي في ولاية أمر
الناس ، وهي تبغى — إذ تظاهره — إعلاء كلمة الحق ، ورد كيد أيما مبطل
حدثته نفسه بالتمرد على سلطانه . ومع ذلك ، فلم تكن نفوسهم بلا ريب فارغة
الفراغ كله مما يداخل نفوس البشر من نزعات خاصة إلى الشهرة أو المغنم
أو السيادة التي تفيئها عليهم الحرب المرقوبة وإن طغت عليها — حين الزحف —
تلك الحماسة الطاغية لله ، والإمام ، والمثل النبيلة الرفيعة التي أذهلتهم عن الدات .
أما الآن ، وقد خف ذلك الطوفان الأمثل الذي جرفهم إذ ذاك في عبابه ،
وصدمتهم محنة الحرب ، وأصبحوا ينظرون بالعيون بعد أن كانوا يرون بالبصيرة ،

ويسمعون بالآذان دون القلوب ، فقد تبدلت بهم الحال ، وهووا من صماء الروح إلى أرض للمادة . . .

العيون مفتوحة ، والقلوب مغلقة . النفوس حاضرة والأرواح غائبة . هم شخوص وجسوم ، تسمع وتشخص وقد عدمت الوعي والتبصر . نصب فيها الغداء والإيثار . ذوى الشعور بالقيم . غلا الموت عليها في سوق صفين . . .

وضاق الإمام :

« .. لم يزل أمرى معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب وقد والله أخذت منكم وتركتم وأخذت من عدوكم فلم تترك ، وإنها فيهم أنكى وأنهك ... »
وكانما هم بعضهم — على مألوف ماجروا عليه خلال السويغات القلائل صبيحة الجمعة الثانية من صفر — أن يقطع عليه حديثه ، إن بالتهوين أو بالمعارضة :

« يا أمير المؤمنين ... »

فلم يتمهل له ، بل أتم ما شرع فيه من كلامه ونبراته تقطر للـ :

« ... كنت أمس أمير المؤمنين ، فأصبحت اليوم مأمورا ... » وكنت ناهيا فأصبحت منيئا ... قد أحببتكم البقاء ، وليس لي أن أحكمكم على ما تكرهون ... »
وجلس وهو قانط نقض منهم أمره ..
وتحلقوا حوله ، حلقة وراء حلقة كأنهم في ندى لا في ميدان قتال . . .
وأقبل شيوخهم يتبارون في أحاديث يلوونها ليا ، تلف في الفاظها للتأية تنهاقهم المخزى على الحياة . ومن ورائهم عامة الجند ينصتون للدعوة المثبطة ويتنادون جهرة بالموادعة والسلام .

يقف شقيق بن ثور البكرى ، يخطب :

« أيها الناس ، إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا ققاتلناهم عليه . وإنهم دعونا إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم .. »
وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا في اللوادة ... »

فكانما شاء شقيق في هذا للوطن أن ينسى أن صفين لم يقع بها سلاح في يد علوى إلا بعد أن استنفد الإمام كل حيلة لمنع الحرب أن تنشب ، بالكتب

والرسل بضعة شهور . حتى عندما أخذت الأكف — في بدء الواقعة — تتلون بالدم ، حاول أن يكبح شهوة أعدائه للقتال فدعاهم مخلصا إلى كتاب الله ، ولكنهم ردوه ، وأبوا الاحتكام إلا للسيف . . .

نسى هذا كله شقيق ، بل هو قد حمل نفسه حملا على تناسيه ، في ذلك للوطن ، ليجد حجة لتخاذه ، ويضع حجة في أيدي أخصائه وإنه ليعلم حق العلم أنهم قوم صفرت يدهم من كل حجة ، وفرغ وفاضهم من المعاذير . . . ويمثله يتحدث حريث بن جابر البكرى :

« ... إن عليا لو كان خلفا من هذا الأمر لكان للفرع إليه ، فكيف وهو قائده وسائقه ؟ . وإنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا مادعاهم إليه أسس . ولو رده عليهم كنتم له أعنت . . »

أفلم يرده فعلا ؟ . . . ومع ذلك يزعم حريث أن الإمام « رضى » للوادعة فيحمل كلماته اليأسه غير ما تطيق . . .

واحد فحسب من بين هذه الجماعة كان أقدرها على رسم صورة صادقة للموقف ، فيها صراحة آذت زملاءه ، وأقلقت معاوية من ورائهم وكان يتنفس ريح الأخبار التي تأتيه عن سير النقاش .. غلام منهم لم ترتفع به السن وإن ارتفعت الهمة ، هو الحضيض بن للنذر الرقاشى ، صاحب راية ربيعة التي ثبتت بعد انهيار جناح عبدالله بن بديل ، واستطاعت بثباتها المعجز أن تميل بجيش طي من الهزيمة إلى النصر ...

قال الحضيض ، ذلك الغلام يرد على أوائك الأشياخ :

« أيها الناس . . . إنما بنى هذا الدين على التسليم فلا توقروه بالقياس ولا تهدموه بالشققة . . . إن لنا داعيا قد حمدنا ورده وصدره ، وهو المصدق على ما قال ، المأمون طي ما فعل ، فإن قال لا قلنا لا ، وإن قال نعم قلنا نعم . . » فأغضب قوله المتنادين بالموادعة من البكريين ، الذين ادعوا أن تنادبهم صدى لرغبة الإمام . . . أغضبتهم صراحة الغلام ، وضاقوا بها ، وامتلأت لها نفوسهم بعداوة كادت توقع الشقاق بين قومهم وقومه ، وتدفع بهم إلى مقاتلة إخوة لهم في السلاح في نفس الوقت الذي اختاروه لمسألة الأعداء . . .

« امنن عليا . . . »

فأخذت ابن هبيرة أريحته كما أخذته يوم استعانته معاوية على ربيعة . فإذا هو يشترين من بيت المال ، ويمنن عليهن بما يتق

وهذه لاريب مروءة ، تكشف لنا عن ناحية في خلق الرجل محمود ، وقد تلقى ضروا على موقفه ذاك من استعانة معاوية به ، فتبديه كلفاً بالنجدة يبدلها لأيماء ملهوف وإن كان صديقا أو كان عدوا في العدا . ولكنها — كما تلوح — نجدة منشؤها حب الفخر والمباهاة ، وليست عن إيمان بالمدكارم . . . فما هو أن رأى أن نمن العتيقات قد أبهظه ، وعسر عليه أن يؤديه لبيت المال حق حزم أمره ، وتخلي عن علي في وقت تزاخت عليه الأزمات ، والتجأ إلى معاوية . فكأنما إذن قد أثر الفرار من الأداء على الوقوف بجانب أمير المؤمنين إبان محنته والوفاء لهدمه ، والولاء له وهي لاريب أكرم المروءات .

وقال الإمام فيه لما بلغه نبأه :

« قبح الله مصقلة . . . فعل فعل السيد وفر فرار العبد . . . »



استشرت دعوة المواجهة في جمهور الجيش ، ولم يقد في كبح جماحها تحذير الإمام ، ولا صراحة الحضيض ، ولا استدامة الأشتر المجهوم بفشته القليلة على معسكر معاوية . وخرج الأمر الآن من يد سادة العشائر الذين طالما تناولوها ذلك الصباح بجدل وتقاش ومداورات تظهر طاعة « رقيقة » لملي تشف عن تمرد وعصيان ، وتبدى عزما على تأييده ورائه في الحقيقة تقاعس يداني الحور ، ويهوى إلى درك الانهيار . . .

وقعد الناس ، هنا وهناك . وما لم يقاتلون والمهدة تلوح ؟ . . . وارتخت القسي . وقرت السيوف في الأغمام . . . في ناحية من الميدان خديعة ، ومصاحف كالأعلام ، ودعوة تصيح : « كتاب الله ! » . وفي الناحية الأخرى غفلة ،

وتمرد غير مستور ، ودعوة تصبح : « كتاب الله ! » . . ولا رهب إلا حيث ينطلق الأشر . ولا ضجة حرب إلا على مقربة من القبة البيضاء . . .

وكأنما أبطأت على رقيق الحياة غايتهم ، فأقبلوا يهرعون صوب الإمام ، على القدم والطنى ، يتمجلون السلامة . . كانوا جميعا من رجاله ، الغالين من قبل في نصرته . كانوا المشوقين لإحدى الحسينين : النصر أو الشهادة فإذا هم الآن يرون الحياة غاية الغايات . . .

في شكة القتال أقبلوا عليه السيوف على العواتق والرماح في الأيدي . والدروع والأقنعة على الصدور والوجوه . ومن وراء الحديد الذى أخفى ملامحهم كانت الحدق تأتلق غضبا وموجدة . . .

لو أنك لفيتهم قبل يومهم هذا لحسبتهم ممن قال الإمام فيهم حين تحدث عن خيار العباد :

« .. لولا الأجل الذى كتب لهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب ، وخوفا من العقاب . عظم الخلق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم . فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون . وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون . . قلوبهم محزونة ، وشروهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة . أرادتهم الدنيا فلم يريدها ، وأسرتهم فقدوا أنفسهم منها . . . أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا . . .

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين وحزما فى لين . وإيمانا فى يقين . وخشوعا فى عبادة وتحملا فى فاقة وصبرا فى شدة . . يحسى وهمه الشكر . ويصبح وهمه الذكر . . . لا يدخل فى الباطل . ولا يخرج من الحق »

وقد كانوا حقا يتلون القرآن ، فهم حفظته وقراؤه وتهزيم معانيه هذا عنيقا فتخشع الجوارح وتدمع العيون . وصلوا نهارهم بليهم ، تقربا إلى الله ، بالصلاة والقيام . وصرفوا وقتهم خشية من الله ، فى الدعاء والبكاء والسجود ، حتى يمت الأصوات ، وتفرحت الجفون ، واسودت الجباه . .

لكنهم اليوم غيرهم بالأمس — أولئك الذين أقبلوا منهم على على عليهم الدروع

والأفئدة . فإن يكونوا قد بقيت بهم تلكم العلائم الجسدية ، فقد غدت دخالهم كأنما هم فرقة من أهل النفاق الذين وصفهم فقال :

« ... الضالون للضالون ! . يتلونون ألوانا ، ويفتنون افتنانا ... يشون الخفاء ، ويدبون الضراء ... قولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء ... إن سألوا الحفوا ، وإن عذلوا كشفوا ، وإن حكروا أسرفوا . قد أعدوا لكل حق باطلا ، ولكل قائم مائلا ... يقولون فيشبهون ، ويصفون فيموهون ... » .

آلاف عديدة أتته منهم ، لم تغن عنهم قراءتهم ، ولا عبادتهم ، ولا شوقهم القديم للموت ابتغاء الثواب وخوف العقاب . وكانت الآفة التي نخرت في قلوبهم فأوهنتها هي نفس تقام — ذلك التعصب الديني الذي يضيق معه الأفق ، وتنحسر النظرة فلا تنفذ من الأمور إلى ما وراء سطحها المغلف بقشرة رقيقة من الدين ، لحقت عندئذ عليهم قوله : « رب عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه ! ... »

آلاف عديدة من أولئك القراء أضلهم النظرة الكلية ، وآلاف أخرى من البمانية رجال الأشعث للصديرين عن رأيه إذ هو شيخهم الأمر للطاع ، وآلاف نائلة من أعراض الجيش الذين شاموا البقاء في دعوة معاوية ، قد أقبلوا جميعا على الإمام ، ليفرضوا مشيئتهم ، وينفذوا الرغبة التي أملاها عليهم الجسد المنهوك ، والجنان الخليع ، والقلب الواهن الذي لا يثبت على لأواء ...

وتقدم هذه الطائفة المتمردة جمهور من أصحاب الجباه السود — قوام الليل ، عباد النهار ! — على رأسهم مسعر بن فدكي ، وزيد بن حصين وعصاة غيرهم ممن غدروا بعد رؤوس الخوارج وعلى وجوههم قنق الحديد ، وفي أيديهم السلاح ، وفي أحداقهم للتسعة بفضهم تتوالب أبالسة الفتنة ، يصيحون :

« يا علي ! ... » .

حتى إمرة المؤمنين أبوها عليه ! . وكيف يدعوها بها وقد صورت لهم أخيلتهم السقيمة أنه لا يستجيب لدعوة القرآن ؟ ... وأنى لنظرهم الحسيرة أن تنفذ إلى غور الحقيقة بعلمهم وإنه لاطلاء غطى منهم اللحي والجباه ولم يخالط القلوب ؟ ...

« .. أجب القوم إلى ما دعوك إليه ... »

فرمقهم بعين محزونة . فجعته فيهم الأيام ١ .. وهذا الأسى الذى يترقق كالدمعة فى مآقيه كان لهم ، وعليهم ، فما نفعهم عليهم ، وما أغنت عنهم كثرة السجود ١ ..

ونادوا يزجرون :

« أجب القوم إلى كتاب الله ، إذ دعيت إليه ، وإلا قتلناك ١ .. »

فصاح بهم :

« ويحكم ١ .. أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجب إليه ،

وليس يحل لى ولا يسعنى فى دينى أن ادعى إلى كتاب الله فلا أقبله — »

فقطعوا قوله :

« فأجبه ١ .. »

« .. إني إنما أقاتلهم ليدبشوا بحكم القرآن ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم

ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه ... »

هنا تردد صوت صائح الشام ، بين الصفيين يتلو :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم

بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ... »

فكأنما الأشعث كان المعنى بالتلاوة ، فهتف بقومه :

« والله لا نأى هذه أبداً ... »

وقال الإمام :

« لن نرضى أن نقاتل معك ... »

ودوى وعيد القراء ، من كل ناحية :

« يا على ... أجب ١ .. أجب ١ .. »

عندئذ ألقى بآخر ما فى جعبته :

« .. قد أعلمتكم ١ .. إني قد كادوكم . وإنهم ليسوا بالعمل بالقرآن

يريدون . فامضوا على حقكم ، وخذوا فى قتال عدوكم ... »

فتصالح الجمع :

« اذعى إلى كتاب الله فنأبى أن تقبله . . . »

وتخلقوا حلقة حوله ، يهزون في وجهه سلاحهم ، ويتوعدونه بالقتل إن هو لم ينزل عن رأيه ، ويستجيب لمشيئهم المجنونة ولم يرضوا منه بأقل من أن يطغى بنفسه بقية النار التي بقيت بعد مندلة في جانب من الساحة ، عند القبة الكبيرة البيضاء :

« ابعث إلى الأشتر ليأتيك . . . »

كان الأشتر حينذاك قد أشرف على معسكر معاوية ليدخله ، لا تثبت أمامه قدم ، ولا تلقاه مقاومة تمرقل اندفاعه . . . النصر معه والخذلان حيا له في فلول أحراس أهل الشام . وإن هي إلا شفة ضيقة يقطعها ثم يفتح الله . . .

لكن رسول على جاءه :

« انت أمير المؤمنين . . . »

فعجب الأشتر :

« آتية . . . قل له ، ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزياني فيها عن

موقفي . . . إني قد رجوت الله أن يفتح لي ، فلا تعجلني . . . »

غير أن هذا الرد الذي عاد به الرسول ، ودلائل النصر التي بدت لهم واضحة والرهج يعلو وصيحات الهزيمة تنفث جزعة من أفواه أهل الشام ، لم ترد أولئك القراء اللعنتين عن غلوائهم ، ولا خففت من عصبيتهم لرأيهم للنهاية . إنما تركتهم أنكى عى ، وأشد ضلالة . فإذا بهم يعدون طوقهم فيعصفون بالإمام في تجبر وإعنات :

« ما نراك إلا أمرته بقتال القوم . . . »

« أرايتموني ساررت رسولى إليه ؟ أليس إنما كلمته على رءوسكم علانية ؟ »

« فابعث إليه فليأتينك ، أو لنقتلك بأسيا فإنا كما قتلنا عثمان ، أو لنسلمك

إلى عدوك . . . »

ونظر الأشتر إلى الرسول وقد أتاه ثانية :

« أرفع هذه للمصاحف ؟ »

« نعم » .

« أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع اختلافا وفرقة ... »

ولكنه لم يعد تمهل مليا كأنما نازعته نفسه إلى النصر الذي يفتح له ذراعيه .
إنها لحظة العمر . فرصة الدهر كله قد أتته صاغرة بعد طول كفاح وجهد
ومشقة . فما يدفعه الآن إلى إفلاتها من بين يديه ؟ ..

أحسبه حينذاك قد تفكر برهة يقلب الأمر . ثم يتفكر برهة فيؤثر البقاء
بمكانه من اللبدان . ثم يتفكر برهة فلا تخطى النصر عينه وهو يشهد تصدع
آخر الخطوط الشامية ، وتفرق الحماة عن قبة معاوية تفرق الصيد بعد رمية
صياد . . . لم يعد هناك شك في الظفر . والوقت القصير الذي يقطعه في المودة
إلى على كنفيل — لو ثبت بمكانه — أن يحسم الواقعة . . .

وسمع الرسول يلح :

« يا مالك . . . إن الفتنة قد وقعت ! . . . »

« ويحك ! .. ألا ترى إلى الفتح ؟ .. ألا ترى إلى ما يلقون ؟ .. ألا ترى

إلى الذي يصنع الله لنا ؟ .. أينبغي أن ندع هذا ونصرف عنه ؟ »

قال الرسول :

« أحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يفرج

عنه ، ويسلم إلى عدوه ؟ .. »

فارتج كيانه ، وهتف وكأنه يئن حسرة :

« سبحان الله ! .. »

وثقل قلبه . . . ودار على عقبيه ، ناكس الرأس ، غائم العين ، خافت النفس

وهو يتلع قدميه من الأرض ليعود . . .



لم يكد الأشر يقارب القوم حتى اندلعت في كيانه نار غضبه فعاد للحياة بعد أن كان كالخطام .. ولم تسكد عينه تقع منهم على اللحي المرسلة والجباء الحشنة حتى تقبضت كفه على سيفه ، وصرت أسنانه وهو يصيح :

« يا أهل القمل والوهن ! .. »

فلم يباله أحد منهم ، فحسبهم أن قد عاد ! ..
وراح يرميهم بما يسعفه به لسانه ، مرة ضراعة ، ومرة جدالا ، ومرة لعنة ! .. كالغرقى بين اضطراع الأمواج يستسلم آونة ، ويضرب أخرى يمين وشمال ، ويشلق ثالثة بأى طافية على سطح اللجة ...
قال كأنه يتوسل منهم بأفهام تدرك ، وتستطيع أن تستكنه عواقب الأمور :

« أحيى علوتم القوم ، فظنوا أنكم لهم قاهرون ورفعوا للمصاحف يدعونكم إلى ما فيها ؟ .. قد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنة من أنزات عليه ...
لا تحييوم ! .. »

ولكنهم قالوا :

« لا ! .. »

« أمهلوني فواقا — »

« لا ! .. »

« أمهلوني عدوة الفرس ، فإنى قد طمعت في النصر »

« إذن ندخل معك في خطيئتك ! .. »

كان في رأيهم خطيئة أن يظلوا يقاتلون وفق ما تملى شريعة الحرب وقواعدها حتى ينتهى ذلك الكفاح نهايته الطبيعية بنصر فريق وتسليم فريق — كان خطيئة دينية ! .. فكأنما قد وكلوا وحدهم بما سنه الله في كتابه عن هذا النزاع وأمثاله يتأولون عليه التأويل الذى تشبهه أنفسهم ، ويخرجون به عما أراد له الله أن يسير فيه .

لقد أوشك أراهم تشبثوا بقوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن جاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » ... أوشك أراهم تمسكوا بظاهر القول الإلهي دون لبه فتظاهروا بأن في رفع أهل الشام الصالح فيثا إلى الحق ، وعدولا عن البغي .

إنهم لا ريب ضلوا السبيل ، واعتسفوا التأويل .. قال في رجوع . والرجوع يقضى إعادة الأمر إلى بدئه . والبدء في هذه القضية الذي وقع بسببه النزاع للمسلح بين الطائفتين هو إمامة علي التي بغى عليها معاوية واستقبلها بعصيانته . فكان إذن حتما ، وفاقا لآيات الله ، أن يرجع العصاة عن عصيانهم ، ويقرروا بخطئهم حين اقترفوه ، ثم ينظر من بعد في الإصلاح بينهما وبين البغي عليه .

لكنهم مع هذا أمعنوا في البغي وأسرفوا في التأويل وقفز بهم انهيار الروح المعنوية إلى نتيجة لا يقتضيها منطق الحرب ولا منطق السياسة ولا منطق الدين . وقد وضع من البدء هذا الخطأ الذي وقعوا فيه للإمام فجهد غاية الجهد ليجنبهم زلله ، مؤكدا لهم أن تنادي أهل الشام بالقرآن إن هو إلا تنفع بكتاب الله يحميهم السيوف والحتوف . ووضع لهم هم من بعد فقاموا ينقضونه ويدعون لنقضه ، ثم يغالون الغلو كله فيقرون على أنفسهم بالكفر يوم قبلوه . ووضع أيضا للأشتر وهو يحدثهم فشاء لو أمالهم عنه . . . قال يجادلهم وقد كاد الغيظ يخرج به عن طوقه :

« ... فحدثوني عنكم — وقد قتل أمثالكم وبقي أراذلكم ! — متى كنتم محتمين ! . أحين كنتم تقاتلون أهل الشام فأتمم الآن حين أمسكنكم عن القتال مبطلون ، أم أتمم الآن مبطلون ؟ » .

« الآن محتمون » .

« فقتلناكم إذن ، الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيرا منكم ، في النار ؟ ... »
فأمعنوا في المكابرة :

« دعنا منك ! . قاتلناهم في الله ، ونذع قتالهم في الله ! » .

ولم تعد هناك جدوى وراء مناقشتهم وقد أصروا واستكبروا . ووقع بينهم وبينه تلاوم عنيف ، ثم ثار بهم يسبهم :

« خدعتم والله فانخدعتم ، يا أصحاب الجباه السود ! . . كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق إلى لقاء الله ، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت ! . .
ألا فقيحا ! . ما أنتم برائين بعدها عزا أبدا ! . » .

ونزا عليهم بسوطه ، ونزوا عليه بالسياط . وساد المهرج . وهمت فتنة جديدة أن تنشب لولا أن صاح بهم على :

« كنوا ! . . »

وعندئذ اتجه الأشر إلىه :

« يا أمير المؤمنين . . . احمل الصف على الصف يصرع القوم . . . » .

فتصايحوا بأصوات محرومة ، اهتزت لها الأرض :

« قبل أمير المؤمنين الحكومة ! . . »

« لسنا نطيعك فاجتنبنا . . . »

« رضى أمير المؤمنين بحكم القرآن ! . . »

وانفلت الأشعث مخاطب الإمام بهدوء :

« . . ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيئوا القوم إلى ما دعوهم

إليه من حكم القرآن . . . »

قلب عينا ساهمة ، من الأشر ، إلى الأشعث ، إلى هذه الحلقات حوله من الحشود المتراكبة ككسف الظلة ، الهادرة كموج الشلال . .

قال له مرة بعض اليهود :

« ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه . . . »

فرد يجيبهم :

« إنما اختلفنا عنه لا فيه . ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم

لنبيكم : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون . . . »

وقد وقع فعلا هذا الخلاف الذي فرق المسلمين أحزابا حول أمور لا تتصل بلب الدين ، ولا تمت إلى أصول العقيدة . ولكنه خلاف أوقع الفرتة في الصفوف ، ورمى بينها بالبأس والشدة والتناحر وفي ذات يوم من صفيين ، كشف الإمام لأصحابه عن هذه المغرة للؤسفة ، حين قال :

« ... ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها ... »

ويومها حزن عمار فقد رقت له هذه الكلمات عن العقي الخبوءة ، وقال وهو أسيان :

« . . . قد أعلمكم أن هذه الأمة لن تستقيم عليه أولا ، ولن تستقيم عليه

آخرها . . . »

واليوم يكشف الزمن عن خبيثته فالأمة لا تستقيم وقع بينها بأسها . مضى الباطل لغايته ، ووقف الحق حيران . حدث ما نم عنه قول على وما استشفه عمار . . .

قضى الأمر . . .

الآن حلت العقي التي لعلها عصفت حيناً في خيال الإمام وصحبه حينذاك ملتدين حوله التفاف الكتبية بالعالم ، لا تدين به لياذ للستأمن بالحرم الآن كأنما يرجع التاريخ أدراجه إلى سحرة الخلافة ، حين منعه قومه حقه ونازعوه اللقام الذي كان أولاهم به أبعد الرسول . الآن يفقد بين جمعه اللجب نصرة الولي وولاء الناصر ، حتى لكأنه يعيد — هذه اللحظة — على الأصماع ما صكها من كلامه القديم :

« . . . فنظرت ، فإذا ليس لي رافد ولا زاب ولا مساعد إلا أهل بيتي . . . »

فأغضيت على القذى ، وجرعت ربي على الشجى ، وصبرت من كظم الفيظ على أمر من الملقم . . . »

فماذا أبقت الدنيا ، وماذا لعلها ستبقى له ؟ . . .

أن يصبر مغموما ، أو يموت متأسفا كما قال . . . حتى أولئك الذين استصفاهم

لنفسه من ذويه لم يعدم فيهم على دورة الزمن من تفرقوا عنه : بعضهم لحوف ،
وبعضهم من يأس ، وبعضهم إلى مال ...

لقد غدا كما بدأ ، يدور في عجن البلوى . أسبابه منقولة ، فيمن ؟ . . . وسبله
مقطوعة ، فإلى أين ؟ . . . الناس حوله يدنون من منزلة الفتنة التي أنبأها
رسول الله ذات يوم .

« سيغتنون بأموالهم ، ويمنون بدينهم على ربهم ، ويتمنون رحمته ، ويأمنون
سوطته ، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية »

وهو بينهم قائم على ما يمليه مقامه : يشير ويصبر ويحل على الجادة ما أمكنه
سلطانته . ولئن كان رجاله قد رضوا لأنفسهم الخروج عن حدود الرعية ، فقد
بقى هو يلتزم حدود عمله ، ويعمل على نسق للبادي التي رسمها للإمامة ، فإنما
« ليس على الإمام إلا ما حمل من أمر ربه : الإبلاغ في الوعظة ، والاجتهاد في
النصيحة ، والإحياء لسنة ، وإقامة الحدود على مستحقها ، وإصدار السهمان
على أهلها . »

صدق فيهم الآن حديثه :

« . . أصبحت الأم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيي . »
وحق عليهم عجبه وإنكاره :
« أشهود كغياب ، وعبيد كأرباب . . . »

* * *

ويمود الأشعث بن قيس مخاطبه ، ملاينا مداورا ، ليستل منه إقراره :
« يا أمير المؤمنين ... إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد ، ونظرت
ما الذي يسأل ... »

فهل لم يعلم السائل حقيقة الأمر قبل مشيه للعاء العاهل ؟ ... وفيه إذن
سعيه ؟ . . وما هي جدوى استئذانه علماً في هذا اللقاء والناس جميعا يرددون :
لمن الشيعة الآن ؟

يعلم الأشعث الجواب . . . ويعلم أيضا من الكلمة . . . يعلمه لأنه احتضن مادته بذرة صغيرة غرسها في نفسه منذ استهواه إبان الواقعة حديث عتبة بن أبي سفيان عن السلام . ولأنه صاغ من بعد هيكله ، فتنة عمياء أضلت العقول والقلوب بالأهواء الساهية والشبهات الكاذبة . . . ويعلم كذلك من غدت الكلمة ، فما كان مستطيعاً أن ينسى ما لفظه على لفظ الثمرة للمرة عندما قال : « كنت أميراً ؛ فأصبحت مأموراً . . . » ولكنه ، مع ذلك ، يسأل ويستأذن ليبدو في هيئة مأمور .

ويجيبه على ، على مضض ، وبغير مبالاة :

« اتته . . . إن شئت » .

٦

وهذه نهاية الأمر كله . . .

هذه اللحظة التي أطلعتها صفين ، يوم الجمعة الثانية من صفر ، والجموع تتحلق حلقات ، والأسلحة تهتز متوعدة ، والأصوات تهاجر عملية مشيئتها ، هي الخاتمة لإمرة الإمام .

ولم يكن يملك إلا أن ينزل على حكم القوم وهو كاره له ، برم به ، يراه يقودهم وإياه إلى فاجعة ، ولا يستطيع أن يصدح عنه . كانوا شلالا يحرق الحصى والصخر لا طاقة لقدرة بمنع انحداره . وكان الأسى والأسف والنم هي كل ما تحس نفسه ويعتمل بباطنها ، ويفعل فيها فعل الشفار . . . ولو وسعه لثبت ، ولقاوم تمردهم ، ولكنهم حفروا الأرض تحت قدميه ، ثم دفعوه للهاوية .

لكم كان يود إذ ذاك أن يكرههم على الحق ، ويحملهم على الجدل الذي تنكبوه ، لكنها أمنية كالحلم تنسخه اليقظة . . . ولقد تبدت رغبته تلك في صورة من لفظه ، رسمها من بعد منطقته ، ونقل لنا فيها ما كان إذ ذاك يعانيه :

« . . أما والله لو أتى حين أمرتكم بما أمرتكم به ، حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيراً ، فإن استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قومتكم ، وإن أبيتم تداركتكم ، لكنت الوثقى . . . ولكن بمن ، وإلى أين ؟ . » .

أجل ، بمن ، وإلى أين ؟ . ما تداويه بهم وهم داؤه ؟ أين عتاده ، ما أعداده ، من أولياؤه وهم بلاؤه ؟ . .

ليوشك الأشر أن يبرز لنا من خلال هذا التساؤل كأنه وحده الرجل الذى كان يملك تغيير هذه الخاتمة الحزينة . . . حين تأزمت الأمور ، يوم الخميس ، وكادت الدحرة تقع فى الجيوش العلوية ، وسعه أن ينهد ، فيجمع الفلول ، فيقاوم ، فيهاجم حتى يبلغ « شاطئ » الظفر . وحين شاعت دعوة التخاذل يوم الجمعة ووقمت الفتنة ، كان قد أخذ يعد دلوه إلى « النهر » . . فقيم صدره عن النصر إذ ذاك وهو عطشان ؟ . .

من العسير أن نؤاخذه ، ومن العسير أيضاً الاعتذار عنه . فلقد كان واحداً من بين قواده وجبت عليهم طاعة القائد العام ، الاثمار بأوامره ، والانهاء عند نواهيهِ . وهو بهذا مشدود إلى الجيش كله ، ليس له أن يتحرك حسباً تمكنه قدرة كتيبته وهو مغفل طاقة غيرها من الكتائب والألوية والصفوف . وهو كذلك حلقة فى سلسلة الخطة العامة للوقعة قد يسبب انفصالها عن بقية الحلقات كارثة كنتك التى أصابت جيوش الإمام حين بدا لابن بديل أن ينحرف بجناحه إلى قلب العدو ويدع مركزه للرسم .

ومع ذلك فقد رأينا الأشر يتردد فى الاستجابة لعل عندما دعاه إليه بإملاء مشرى الفتنة . يتردد ، ولا يلبث أن يأبى ترك مكانه والنصر بادی الإشراق ويقول للرسول : « ليس الساعة ! . . » ، ثم يتردد ثانية ، ويرد الدعوى مرة أخرى ، أو يحاول أن يردّها وهو يصيح بوافد على عليه : « ويحك ! . . ألا ترى إلى الفتح ؟ . . » ، ثم لا يدع ما كان من تردده فى قبول هذه المسألة الخداعة التى أرادها القوم عليها كما أكرهوا عليها الإمام ، ويظل مؤمناً بأن نصره رهن

دقائق لا تزال يضرع لهم أن يبيحوه إياها « أمهلوني فواقا ١ . . . أمهلوني عدوة
الفرس ١ . . . »

في تقديره — الذي لا نراه جانب حقيقة الحال — كانت بينه وبين الظفر
خطوات . عدوة جواده . ما دون سوية من زمان . . . كانت قدمه على
« الشاطئ » . وكانت يده بدلوه تتدلى في « النهر » .

لكنه صدر وهو عطشان ١ . . . ترك الدلو فارغا على الشاطئ وعاد ١ . . .
لقد كان خوفه أن يقتال « دعاة السلام » عليا ، أو أن يسلموه ،
لو لم يأمر بأمره فيرجع عن القتال ، هو كل ما قد دفعه إلى الرجوع . تهمست
في وهمه فاجمة تطلع الإمام راسفا في القيد وهو يساق إلى عدوه أو غارقا في دمه
وهو صريع بأسلحة تلكم الطائفة الماوية المندوعة من رجاله : أصحاب الجباه
السود . . . الخوف وحده من هذه العقبي هو الذي رده من النصر ، وقضى عليه
أن يكتب بعودته آخر كلمة في تاريخ الإمارة الفعلية لابن عم الرسول . . . أفلم
يجمع به خياله وهو يطلع عليه بهذه الخاتمة في مثل صورتها السوداء ١ . . .

بل قد جمع لا ريب ، وساطته من وفاء الرجل لعل ، ومن حبه إياه
سياط ١ . . . فما أحسب أمرا في الجيش تنادى بالموادعة ؟ وغضب للسلام ، كان
يجرؤ في تلك اللحظة على لمس أمير المؤمنين بسن حربته لو أبى الأشتر المودة
وبقى حيث كان يواصل القتال . كانت نفوسهم — وإن تمردوا — لا تزال
تأرجع بهم بين إيمان مطلق تتأكد به « شرعية » الدعوة الأموية للاحتكام
إلى القرآن ، وبين إيمان مقلقل بها ، سطحي لم يتعمق الشفاف ، وكانوا أيضا
قريبى عهد بفتنتهم ، التي لم يمس على مولدها سوى سويحات ، فليس من طبيعة
البشر بحال أن تذهابهم عن مواضعهم الطويلة ، وتنسخ — بهذه السرعة وهذا
اليسر — عواطفهم للولاية ، الراسية في الأعماق ، وإن منهم لكثرة تعرف
للإمام قدره ، وقدمه في الإسلام ، ومكانه من الرسول ، وجهاده القديم ،
وتسكن له من مودتها وإكبارها ما لا يجتثه انحرافها عن أمره ، وميلها عن رأيه
في دعوة التحكيم .

هذه عوامل أحسبها كفيلا بأن تمنع من القراء دماءهم وهم بعد في مستهل اختلافهم عليه ، وفي أول شوطهم من طريق الفتنة . وهي أيضا أ كفل بدعوى تسليمه إلى يدي عدوه حق لتجعلها أدنى إلى التشديق باللفظ الأجوف الطنان منها إلى العزم الراسخ الذي يتبعه التحقيق . فما معاوية في رأيهم ؟ . وما قدره ومزاياه ؟ . وما جريرة الإمام — بعد هذا وذاك — إن دعا إليه الأشتر وشاء الأشتر أن يعصاه ويستمر في القتال ؟ . . .

إنما كان قولهم وعيدا تلفظه ألسنتهم ولا ترجمه ألسنتهم . . . فطالما توعدوه . . . مرة وهم يدعونه إلى قبول للوادة . وثانية وهم يطلبون إليه رد الأشتر لتسكن نائرة الحرب . وثالثة وهم يماودون طلبهم وقد رأوا الأشتر يؤثر البقاء والقتال على العدول والرجوع . ولقد أبى هو أن يخضع لخدعة السلم فلم ينالوه بمضرة . وأبى الأشتر أن يلجأ أولى دعوتيه له فلم ينفذوا ما رددوه من وعيد . فهلاك كان أولى بالأشتر إذن — حين بلغته الدعوة الثانية — أن يصم عن الدعوة أذنه ، ويصبر ، ثم يسدد فرسه إلى النصر فتكون عدوة إلى أمام لا إلى وراء . . .

كان هذا أولى به . وكان أيضا يسمعه ولا يعضله ... لكنه حين قدر النصر أصاب ، وحين قدر « الفاجعة » خاب ؟ .

فات الأشتر التوفيق . غلته عاطفته على حسابه ، فطفا خوفه ، وغاص إدراكه في القاع . . . وليس يشفع له أنه كان قائدا من قواد يجب اثماره للقائد العام . ولا أن كتيبته قطعة من الجيش لا تملك العمل وفق قدرتها وحدها . ولا أن سيره في القتال حلقة من سلسلة خطة عامة .. لا يشفع له هذا كله . لا يبرر تراجعهم . لا يكاد يعدل الاعتذار عنه . . . فما كان ثمة تلك اللحظة ، وهو يبرح موقفه ليعود ، « قائد عام » . ولا « جيش » . ولا « خطة حربية عامة » . . . إنما مضى الأسر ، بعد ذبوع دعوة للوادة . فوضى . . . هنا فرقة محارب ، وهنا أيضا فرق ألقت السلاح . في هذه الكتيبة رجل يقاتل وفيها أيضا آخر يهادن . . . ولم يعد الحكم للقواعد والنظم التي تسود الجيوش في الأحوال

العادية ، وتسوس أجنادها ، بل غدا الحكم للطبايع للهمة ، والبداية للساحة التي يسعها أن ترى وتزن وتقيس — في مثل طريقة العين — دقائق الموقف ، ثم تنفذ من خلال عتمتها إلى العقبي المأمولة ، ثم تعمل على إدراك غابتها وهي تستعين القوى الموالية ، وتستغل الظروف المحيطة ، وفق وحيها وحده لا بخطة سالفة ، ولا بأمر مفصوب ١ .

وكانت ظروف الأشر موالية .

وكانت القوات الزاحفة معه موالية له

ولكن بديته لم تسعفه إبان المحنة ، ولم تقفز به إلى ما كان ينتظر من محارب جرى مثله أن يبلغه لو أنه أحسن التقدير . فما عدا ذلك الوعيد الذي انداع في صفوف على من بين جحفل القراء أن كان ضجة تلقفتها طبيعة الجماعات فأعدت السنة القوم بعدواها حتى راحت ترددها كالبغاوات ١ . وما كان تمردهم — في ساعاته الأولى — هيكلا راسخ الأسس ثابت القواعد بقدر ما كان مثل قلمة من ورق وطلاء . الهيئة تهول والقلب خواء ١ . . . ولو قد كان ابن بديل ، في بدء الوقعة ، أوتي « تربث » الأشر والتزامه الخطط والأوامر لذهب معاوية وجنوده منذ يومين في الغابرين ، ولو قد كانت للأشر اليوم « روح الغامرة » التي كانت لابن بديل لنال من عدوه الوطر فنزل « الشاطئ » وباغ « النهر » وأدلى دلوه ثم عاد وهو ريان ١ . . .

كانت الأمور فوضى — كالجواد الجوح — تنتظر صاحب حاسة ملهمة مبصرة ، ونفس مغامرة ، ليقفز فيأخذ العجاء ١ . كان القائد العام « مقودا » . . والخطة الحربية « هرجا » . . والجيش « زحاما » بغير نظام . . والموقف ينتظر الحسم . فماذا على الأشر — ومعه فرقة طائفة ، وأمامه الفرصة التي لا تتكرر — لو أنه أسرع فغامر ؟ .. إنها عندئذ للغامرة التي تضع العجاء يمينه ، وتستوى به على الجواد الجوح ١ . . وإنها إذن لاندفاع في القتال — في عمر فواق كما قد قال — تبلغه القسطاط الأبيض ١ . . . وإنه من بعد للنصر الحاسم القاطع الذي يجنيه قبل أن يأتيه الرسول « ثالثة » والقراء لا يزالون — على رأيهم — يتشدقون بالوعيد ١

هذا النصر الذى كان يمكن قطعه ، كان حريا بأن يشغل الأذهان عن كل ما عداه ، ويحرك الألسنة بذكره ، ويأتى على تلك القلعة من الورق والطلاء التى تهول وهى خواء . . . فما أن يذيع حتى يتلقفه الناس — طائهم وعاصيمهم من جند على — بالعيون والآذان ، ثم يسرى على شفاههم نشيدا وأهزوجة . وكأنى بهم إذ يكون ، قد راحة الفرحة فى قلوبهم تهتف : « النصر ! » بعد أن كان يأسهم يهتف : « السلام ! » فالنصر عندئذ كيان « يقينى » يشهدونه والسلام كيان « ظنى » كانوا يأملون أن يشهدوه وراء أستار دعوة التحكيم . . . وكأنى من بعد بالقراء : أصحاب الجباه السود قد انتكسوا — كاتتكاسهم بعد سوبعات — وعاد إليهم صوابهم الذى أذهبتة خدعة ابن العاص . وكيف لا والسلام الذى تمردوا له ، ودعوه إليه ، يقبل عليهم من أوسع السبل ومعه الظفر ؟ . . . غير أنه تقدير . . .

تقدر . . . ويقدر الأشتر . . . والله قدر ! فما كان آلم للنفس أن يكون من قدر هذا الرجل الذى أحب عليا كما لم يحبه أحد من صحبه ، ووقف دائما إلى جواره يشد أزره على الحن وأفنى عمره كله فى الولاء له ، أن يكتب بعودته تلك — يوم الجمعة الثانية من صفر ، بناحية بصفين — آخر سطر فى سفر الإمرة الحقيقية للإمام ، وما انقضى على فاتهته سوى عام ، وشهر ، وأيام . . .

٧

ما كان أسرع انتقال الأمر من يد إلى أخرى ذلك النهار . من يد على وقد تمرد عليه رجاله وخالفوه . ومن يد الأشتر وقد ترك موقفه فى الميدان وعاد . . . أفلت من الصاحبين ، فلما تلقفه الثالث : الأشعث بن قيس تشبث به ، وعض عليه بالسن والبنان .

وأصبح الأشعث سيد الموقف . برأيه تهافت الخارجون على النظام العام تحت ستر السلام وبدعوته المثبطة لهجت الستهم ، ثم اهتزت الستهم لترجم حديثهم إلى أفعال ، وعندما غدا « التحكيم » رهنا بكلمة ينطقها على إذ هو

— في حساب المظاهر ١ — أمير المؤمنين وصاحب الرأي الأخير الذي تبرم به الأمور ، نطقوها هم بغير تردد كأنما أباحهم الكلام عنه ، ونحلهم لسانه ومكانه : « قد رضى أمير المؤمنين . . . » .

وبهذا استقر للأشعث الأمر ، وسيطر وحده على مصير الأحداث .
ومضى الرجل الزهو إلى ابن أبي سفيان ، على وجهه هيئة نائب عن الأعداء وفي جوفه ضمير حليف ! .

وقال يسأل حيث لا موجب أسؤال :
« يا معاوية . . . لأى شيء رفعت هذه المصاحف ؟ . . . »
« انرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه . . . » .
« هذا هو الحق ! . . . »

فأى حق إلا أن يكون ذلك الذى أراد هو أن يكون ؟ . . . ذلك الذى غرسه ذات يوم بقلبه للدخول بذرة خبيثة عتبة بن سفيان حين دعاه أثناء القتال بصفين وقال له : « لو كان معاوية لاقيا رجلا غير على لفيك إنك رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن . . . » .

الآن قد طابت نفسه المنهومة إلى الاستعلاء . ارتوى غروره وشبع حق التخمرة . . . فلم يعد فرضا ما حدثه به عتبة ، بل حقيقة واقعة تلسها الأصابع وتراها الأعين وتسمعها الآذان . صار وحده الرأس في حزب على ، وصاحب الرأي النافذ المطاع من دون الخاصة والسكافة . يعلى فيستجيب الناس . ويشير فيحرك عواطفهم في جنوبهم ، وأفكارهم في عقولهم ، وأسلحتهم في أيديهم فإذا هو يسوقهم أمامه كالقطيع ؟ . . . آن أن يتأخر على ليتقدم هو — الأشعث بن قيس عرف النار ١ — وعلى على بعد هذا ، الرضوخ له ، يأتمر حين يأمره ، ويتنهي حيث ينهاه . . .

وقال له معاوية يشرح خطته :
« . فابشوا منكم رجلا ترضون به ، ونبعث رجلا . ثم نأخذ عليهما أن يعملوا بما في كتاب الله لا يعدوانه . ثم نتبع ما اتفقا عليه . . . »

ويعمل هذا الملقى جرت رسالة من العاهل إلى الإمام :

« . . . قد قتل فيما بيننا بشر كثير وأنا أتخوف أن يكون ما بقى أشد ممّا مضى . . . إنا سوف نسأل عن ذلك الموطن ولا يحاسب به غيرى وغيرك ، فهل لك فى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة ، وصلاح للأمة ، وحقن للدماء ، وألفة للدين ، وذهاب للضغائن والفتن ؟ — أن يحكم بيننا وبينك حكمان رضىان ، أحدهما من أصحابى ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بما فى كتاب الله بيننا ، فإنه خير لى ولك . . . » .

وانطلقت الفتنة بعض شوطها فرضى الناس بما جاء به الأشعث ، وما أجمله كتاب معاوية . وتلاقى فريق من قراء الشام وقراء العراق يهدون بحديثهم لتحكيم وينظرون فى الغاية التى هدفت إليها دعوته ، وفى الوسيلة التى تبلغهم نهاية الشوط . رضوا والإمام ساكت ، وقضوا والإمام مغلوب . فما عاد قيادهم فى يمينه ، بل قياده هو فى أيمانهم يتجاوزونه كيفما حركتهم الأهواء . لكن اجتماعهم على الدعوة الخداعة ، وإصرارهم على الاستجابة لها ، وإنفاذ كل ما يحقق لهم السلم وإن على حساب نصرهم ، قهره على الكتابة لمعاوية : يحذر ويبصر ويوافق فى آن :

« . . إن البغى والزور يذيعان بالمرء فى دينه ودنياه .. فاحذر الدنيا فإنه لا فرح فى شيء وصلت إليه منها . ولقد علمت أنك غير مدرك ما قضى فواته وقد رام أقوام أمراً بغير الحق فتأولوا على الله فأكذبهم ، ومتعهم قليلاً ثم اضطرمهم إلى عذاب غليظ . . . »

إنك قد دعوتنى إلى حكم القرآن ، واست من أهله ، واست حكمه تريد . وقد أجبنا القرآن إلى حكمه . . . »

كان التحذير هو كل ما بقى له ، فلمله أن يرشد القوى ويهذى الضال . وكان موقنا بأن معاوية غير مختار حكماً عن أهل الشام إلا عمرو بن العاص فلم يرد أن يدع هذه الفرصة دون أن يحاول استمالة هذا الداهية إلى الحق وليه عن مزالق الباطل وحمأة الحموى وإن علم أن محاولاته هذه هباء وقبض الريح . ولكنه مع ذلك كتب يعظه ، ويحذره الرّيح والدنيا وسطوات الله .

« . . . إن الدنيا مشغلة عن غيرها ، ولم يصب صاحبها منها شيئا إلا فتحت له حرصا يزيد فيه رغبة . ولن يستغنى صاحبها بما نال مما لم يبلغه . . . فلا تحبط أجرك أبا عبد الله . . . »

وكتب أيضاً :

« . . . إن الذي أعجبك من الدنيا مما نازعتك إليه نفسك ووثقت به منها منقلب عنك ، ومفارق لك ، فلا تطمئن إلى الدنيا فإنها غرارة . ولو اعتبرت بما مضى لحفظت ما بقي ، وانتفعت بما وعظت به . . . »

لكن عمرا كان صاحب دنيا ، وثق بها ، وسمى إليها ، ولم يزل يسير في ركبها حتى أوهنه السير وقد فرغ عمره ودنا قبره . وعندئذ تبين أن نصيبه من دنياه غير مغنيه عن آخرته . فاستصغر جناها واستعظم جنايته . . .
كان ينظر ، أخريات أيامه إلى ماله ويقول :

« من يأخذ هذه بأوزارها . . . »

وكان يحس الندم فينزع إلى التوبة التي عساها تخفف عنه عند ربه ، فيدعو :
« اللهم إنك آتيت عمراً مالا فإن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله . وإنك آتيت عمراً ولداً فإن كان أحب إليك أن تشكّل عمراً ولده ولا تعذبه بالنار فأشكّله ولده . وإنك آتيت عمراً سلطاناً فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه . . . »
وحين دنا أجله بعد أعوام ، وحوم الموت عليه ، وعاده ابن عباس يسأله حاله :

« كيف أصبحت ، أبا عبد الله ؟ . . . »

قال :

« أصبحت وقد أصلحت من دنياي قليلا ، وأفسدت كثيرا . فلو كان ما أصلحت هو ما أفسدت لفزت . ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت . ولو كان ينجيني أن أهرب لهربت . . . فعظمي بموعظة أتنفع بها يا ابن أخي . . . »
فرد زأثره :

« هيهات ، أبا عبد الله ! . . . »

وعندئذ رفع إلى السماء وجهها غشاء يأسه ، ودعا الله :

« اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك ، فخذ مني حق ترضى ؟ . . »

غير أنها دعوات من ضاق جهده ، وفتر أيده ، وأعجزته الحيلة ، وتقطعت به كل وسيلة عن طلب دنياه وتلّس للزبد في الحياة . . . ولو قد كان يحسب في هذه الآونة أن العمر موصول ، والبقاء مأمول ، لرجا أن ينال من الدنيا فوق الذي نال ، ولأبطره الرجا عن الدماء . . . فأما وقد بلغ حافة اليأس من العاجلة الزائلة فلا يأس إذن من رحمة الله . . .

وكذلك أفلحت حيلة معاوية في خدع الناس . واستغلقت نفس عمرو عن الرشاد . وبلغ الأشعث بن قيس بعض ما راودته عليه نفسه من سنين حين ارتد عن الإسلام ليشتري بالردة ملك كندة ، ويعلو بعرشه المرتقب على البلاد والعباد علوا يغذى صلفه ويشبع غروره . فما هو أن اتى الرجل معاوية ، وأحس من نفسه أنها أصبحت محور الرحي للحوادث الجارية ، حتى يروج لقضية الحكيم وهو يحرس الحرس كله على أن يظل الأمر دائماً في يمينه ، لا يفلته . وأن يبقى الرأي لسانه لا يبرم بمنطق سواء . وهل ثمة امرؤ في أصحاب الإمام يستطيع الآن أن يرد على الرجل رأياً براه وإنه في عيون العامة لصاحبها ، والبطل الشعبي الذي دعا وروج حتى نجحت دعواه .

لقد كان واضحاً من بدء الفتنة أن معاوية لن يعدل بعمرو بن العاص حكماً له ، وأن أهل الشام لن يخالفوا عن اختياره ، فهم دائماً أسرع إلى طاعته وأسبق إلى الاستجابة إليه من نفسه وإن دعاهم لباطل . وهم كما قال فيهم عمرو الذي ذاق حلومهم ومرهم : « أطوع الناس لمخلوق ، وأعصاهم لخالق ! » . . . وكان واضحاً أيضاً أن أهل المرق سيمضون على مزلتهم فلاخيرة لهم غير الأشعث إذا شاء ، أو من يرى لهم ترشيحه ، إن أبي هو أن يكون حكمهم المختار . فهم قد ساندوا رأيه ، واجتمعوا على إنفاذه ، وغرهم منه أن أتاهم من مأمونهم فكانت دعوته « كتاب الله » وإنهم لقوم تدارسوا الدين وقرأوا القرآن . وهم على قولة

ابن العاص أيضا — الذى خبر أمرهم ، وتكشف له بالنظرة للصيبة باطنهم من خلال ظاهرهم ، وعرف ما سيكون منهم بما قد كان : « أطلب الناس للعلم وأبعدم عنه ! » ..

واختار معاوية ، فأمن رجاله على اختياره ..

وحاول على أن يختار خيل بينه وبين الاختيار .. وهل كان هناك من جدوى لمحاولته وقد ابتزه القوم أمره ، وغدا كل ما يربطهم به خيط كالشعرة هو لفظة « الإمرة » — إن شاءوا مدره ، أو شاءوا قطعوه ؟ ..

٨

قالت عصابة من قراء أهل العراق :

« قد اخترنا أبا موسى الأشعري ... »

الأشعري ؟ ...

وعجب على ، وهل نسى القوم موقف أبى موسى منه قبيل الجمل ، وتثبيطه الناس عنه فى الكوفة كأه عدو وليس بولى ؟ . كيف يستطيع امرؤ له قلب هذا الرجل أن يمثل الإمام ، وينقل إلى منافسيه وجهة نظره فى الخلاف بأمانة ، ويقوم بالدفاع عنها وما تراه كان مؤمنا بها فى يوم من الأيام ؟ ..

لو تعقل القوم لحضرتهم لحظتهم هذه كلمات الإمام التى أرسلها للأشعري وهو عامل من قبله على الكوفة ، يحذره تمردده عليه ، وينذره مغبة تخذيل أنصاره عنه :

« بلغنى عنك قول هو لك وعليك . فإذا قدم رسولى عليك فارفع ذيلك واشدد مؤزرك ، واخرج من جعرك ، وانذب من معك فإن حققت فانفذ ، وإن تفشلت فابعد ... وايم الله لتؤتين حيث أنت ، ولا تترك حق يغلط زبدك بخائرك ، وذائبك بجامدك ، وحق تسجل عن قعدتك ، وتحذر من أمامك كحذر من خلفك ... » .

لكن العامل للمتمرد لم يرفع حينذاك ذيله ، ولم يشدد مثزره ، ولم يخرج ملبيا دعوة أميره للجهاد حتى أعجل عن قعدته تلك ، ودخل الأشر الكوفة وافداً من لدن على فائز أهلها عاملهم الذي حرب ، ثم اعتزل لا يدلى في نصرة أمير المؤمنين ولو بكلمة . . .

فكيف اليوم يختاره الناس حكماً يمثل الإمام ؟

من وراء هذا الاختيار الأشعث بن قيس — لا ريب . فهذه إحدى الحلقات من سلسلة مؤامراته الطويلة التي بدأت يوم استماله عتبة بن أبي سفيان إلى اعتناق فكرة السلم بالملق وللداهنة والتعظيم . ثم امتدت حين وقف ليلة الحرير يحذر جنود العراق الفناء إن هم استمروا في الحرب . ثم اتصلت بتهافته على دعوة القرآن التي ختل بها معاوية أعداءه عن النصر . ثم ارتبطت بهافة جديدة وهو يبرز عليا سلطانه الفعلي وقد روج بين أنصاره للدعوة المخذلة ثم وقف بعدها يظاهرهم حتى هزوا سيوفهم توعداً في وجه إمامهم ليرضخ أو يقتلوه . وها هو الآن وقد بلغ أوج نفوذه الذي ترتضيه نفسه الكلفة بالاستعلاء ، وبات كلمته العليا ، ييخل أيضاً على أمير المؤمنين بالحق الطبيعي الذي يستطيع أسفر أجناده ممارسته ، ألا وهو حقه في اختيار من يمثله . . .

وقال على وعجبه لا يبيض :

« إني لا أرضى بأبي موسى ، ولا أرى أن أوليه . . . »

فإذا العصابة تنبرى له معارضة ، على رأسها الأشعث بن قيس ، وزيد ابن حصين ، وفريق من أشياخ القراء الذين أمعنوا من بعد في عداة الإمام حتى تقدموا يقاتلونه :

« إنا لا نرضى إلا به . . . »

فما أقرب قاع الأنفس البشرية لا تكاد المحن تحرك ماءها الضحل حتى ينكشف ما جهدت لتخفيه في الأغوار . . . وما كان أشد عيث الأهواء بضمائر الناس ! بالأمس القريب ، وقد دعاه على ليأحق به ليطفىء معه فتنة البصرة التي شها عليه أصحاب الجمل ، تردد الأشعث ، وخشى وهو الكلف بالسلطان والنفوذ ،

ألا يجد لنفسه مكانا حرموقا في دولة الإمام ، وأن يقصيه عن عمله بأذربيجان كما أقصى غيره من ولاية عثمان ، فراودته نفسه على التماس دنيا معاوية ، وقال لحاصته :

« إن كتاب علي قد أوحشني . وهو آخذ بمال أذربيجان . وأنا لاحق بمعاوية . . . »

فلولا أن ثبتته محبته ، وخوفه أن يصبح « ذبلا » لأهل الشام هو الذي يطمح إلى مكانة « الرؤوس » لفر إذ ذاك إلى مغانم ابن أبي سفيان . .
ثما الذي يربطه اليوم بالإمام وقد غدا وحده « الرأس » الذي تفتى إليه طاعة بقية الرؤوس ؟ . .

وبالأمس القريب أيضا كان زيد بن حصين يشتعل حمية ، ويتحرق حماسة إلى مقاتلة معاوية دون أن يسمع منه أو يصل جوابه على دعوة الإمام بالتزام الجماعة فوقف يصفى إلى مقالة عدى بن حاتم بالترث وهو برم ، ضيق النفس ، مغیظ . . . يقول عدى :

« يا أمير المؤمنين . . . إن رأيت أن تستأني هؤلاء القوم وتستديعهم حتى تأتيهم كتبك ، ويقدم عليهم رسلك فعلت . فإن يقبلوا يصبوا ويرشدوا ، والعافية أوسع لنا ولهم . وإن يتنادوا في الشقاق ولا ينزعوا عن الفى فسر إليهم وقد قدمنا لهم العذر . . . »

فيندفع زيد بسفه الرأي :

« . . . أما والله لئن كنا في شك من قتال من خالفنا لا يصلح لنا النية في قتالهم حتى نستديعهم ونستأنيهم . ما الأعمال إلا في ثياب . . . ولا السعى إلا في ضلال . . . إنا والله ما أريتنا طرفة عين فيمن يبتغون دمه ، فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم ، القليل في الإسلام حظهم ، أعوان الظلم ، ومسددى أساس الجور والعدوان ؟ . . »

وعندما يحاول بعض أصحابه أن يجد من غلوائه :

« اكلام سيدنا عدى بن حاتم تهجين ١ . . . » .

يسارع بالرد عليه :

« ما اتم بأعرف بحق عدى منى ، ولكنى لا ادع القول بالحق وإن سخط

الناس ١ . . . » .

أما اليوم فهو غيره بالأمس ، وما كان حقاً أبليج لا يداهن الناس فيه ،
ويجبههم به وإن أسخطهم ، تنحرف نفسه فيراه الباطل الذى لا باطل سواء ١ . . .
ويحاول على ، بكل حجة ممكنة . حمل هذه العصابة الغالية فى معارضته ،
على الترحيح عن رأيها ، الذى لا يستند إلى منطق ، ولا إلى دعامة من ماضى
مرشحها الأشعري ، ولا إلى ضرورة تقضيها طبيعة الحوادث الجارية :

« إنه ليس لى برضا ... قد فارقنى ، وخذل الناس عنى ، ثم هرب حق
أمنته ... ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك . . . » .

فكأنما قد ختم على قلوبهم الشيطان فآثروا العنف وإن أودى بهم إلى
خسران كل ما قاموا فيه . وما جاهدوا من أجله . وإن قضى أيضا القضاء للبرم
على أميرهم الذى كانوا يرونه إلى الأمس فقط ، للأأمون على الدنيا والدين ...
يشورون به وقد عدموا مجرد القدرة على تخير اللفظ الذى يؤدى ولا يسوء :
« والله ما نبألى أ كنت أنت أو ابن عباس ١ . . . لا نريد إلا رجلا هو منك
ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكنا بأذى من الآخر . . . » .

بهذه الخشونة وهذه الجلافة واجهره . ومعهما أيضا بالرأى الذى لا يمكن للملوب
الذى يصيب قضيتهم فى مقتل يستعصى على وسائل العلاج والمداواة ، ويهدمها
من قواعدها هدمًا ينقض فيها كل جدار ، وكل حبر ، وكل حصاة ١ . . .
فهل كان عمرو بن العاص رجلا هو من معاوية ومن على سواء ١ . . .
أم هو العناد والعنت وعمى القلوب والعقول ...

لمن شاء أن يعجب فليعجب لهذه الطائفة كيف تحرم على أميرها ما تحله
لعدوه ، فتأخذ عليها بوجوب اختيار حكم له « محايد » ثم لا تدع له حرية الاختيار ،
بل تملى عليه رجلا هو أدنى إلى عدائه ، أو هو أدنى إلى خذلانه وفى ماضيه

ما ينضج بهذا الخذلان ، بينما قد أباحت معاوية اختيار حكم أحرص منه على مطاعه ، وأكثر الناس انغماسا في شأنه إلى أذنيه . . .

ولمن شاء أن يعجب فليعجب أيضا لهذا الأشعث بن قيس — الذي دس وتآمر وأمر بالرأى السفیه الخبيط يضعه له الشعب والسلاح موضع النفاذ — كيف لا تبقى له بقية من حياء تمنعه أن يلحق جريرة تديره بالإمام
فلقد وقف على ذات يوم ، بعد هذه اللؤامرة وعقب ارتداده عن صفين ، يخطب الناس في شأن التحكيم ، فاذا رجل من القوم يسأله :

« نهيتنا عن الحكومة ثم امرتنا بها ، فلم ندر أى الأمرين أرشد . . . »
فأرسل الإمام عينا ترمق سائله ، وأرسل أخرى اخترقت الأشعث ، وصفق بإحدى يديه على الأخرى تأسفا وهو يقول :

« هذا جزاء من ترك العقدة . . . »

فاذا الأشعث قد وجد في نفسه الجرأة على وأد الحياء وادعاء النبء ، وآثر أن يبدو أمام الناس كأنما الإمام لا يعنيه بقوله ، ولا يلقي عليه وعلى حزبه المتمرد تبعة هذه النكسة ، فقال في خيلاء :

« يا أمير المؤمنين . . هذه عليك لالك . . . »

وعندئذ هاجت غضبية الحليم في صدر على ، فثار به :

« ما يدريك ما على مما لى ١ ؟ — عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين . . . »

حائك ابن حائك ، منافق ابن كافر . . والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى ، فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك . وإن امرا دله على قومه السيف ، وهاق إليهم الحتف لحرى أن يمتقه الأقرب ولا يأمنه الأبعد . . .
ولم يكن الإمام ليعنف كل هذا العنف بالرجل إلا وقد أياسه أمره ، وأعضلت به مشاقته ومشاقة قومه اليمانية الذين تابعوه فأفسدوا النصر في الحرب ، والأمان في السلم سواء بسواء . وبهم قامت من بعد عميد الملك الأموى حتى ثله العجم بمد سنين طويلة وأقاموا على أنقاضه خلافة العباسيين . فليس إذن بمستغرب أن تخل سماحة الإمام المكان لمثل هذه الغضبة الفائرة وهو يلطخ الرجل وقومه بأسود (٧ — الإمام خاس)

ما نضع عنه تاريخه ، وبأقذع ما جرت عنهم الأحاديث . وقديما وصف خالد ابن صفوان — حكيم العرب الذي ذكرته في أنبيائها — أهل اليمن فقال عنهم : « ليس فيهم إلا حائك برد ، أو دابغ جلد ، أو سائس قرد . . . ملكتهم امرأة ، وأغرقتهم فأرة ، ودل عليهم هدهد . . . »

وأحدث من هذا في حساب التاريخ ردة الأشعث بعد إسلامه طمعا في الملك الذي عدمته كندة . فقد ارتد بنو وليعة بعد وفاة الرسول ، فلما قاتلهم زياد بن لبيد الأنصاري وعرضهم سيوفه ذهبوا إلى الأشعث يستنصرون به . . . وقال لهم وقد وجدها فرصة سانحة لتحقيق حلمه في عرش باذخ يعيد عرش كندة القديم إلى الحياة .

« لا أنصركم حتى تملكوني . . . »

فارتضوا شرطه . وصبا عن الإسلام . وتوجوه كما يتوج الملك من قحطان . فلما أن حسب سلطانه الجديد مانعه ، وخرج فيهم يقاثل المسلمين ، لم يلبث سوى قليل ثم تبدد غروره ، وتهاوى كبره وهو يرى قوات زياد تضيق عليه الخناق حتى تحصره في حصن لجأ ورجاله إليه . . . وعندئذ تدبر أمرة فآثر أن يشتري حياته بالقدر وإذا هو يستأمن للمسلمين في غفلة من قومه ، على نفسه وعلى عشرة من أهل بيته ، ثم يفتح الحصن ، ويبيع « أعداءه » دماء رعاياه !

كبا به مرة طموحه إلى السلطان على حساب الدين ، فما له اليوم لا يحاول ممارسة نوع شبيهه على حساب على ؟ . . لا تلوم ولا حريجة ، قطيعه الغادر بهذا كفيل . . .

وقف الإمام في وجه السيل . . . ليست هذه بوقفته الأخيرة فلسوف يقف لسيول وسيول . إن محنة صفيين قد فتحت ثغرة في هيئته التي كانت تؤلف سدا هائلا يقوم بينه وبين الناس ، أخذت تتدفق من خلالها المشاقة والاجترار والعصيان ، يوما يوما ، إلى آخر خلافته . . .

ولكنه لم ين عن بذل النصيح ، ومحاولة إعادة العقول إلى الرءوس التي ملأتها الأوهام فلم تعد تدرك ولا تعقل . وهو الآن يحاول أن يخرج بالخلاف بينه وبين الداعين إلى تحكيم الأشعرى إلى ميدان أوسع ، يطل عليه ملأ الناس من رجاله ، قادة وجنودا ، أشرافا وحشلة ، ليفقد قضية عامة ، وليؤدى ما عليه من إعداء أمام الجميع . . .

وقال مخاطب الجموع وهو يبسط القضية التي بينه وبين مخالفيه الذين أبوا إلا أن يفرضوا عليه حكما بعينه يتحدث بلسانه ، وحرموه بهذا أحد حقوقه الأولية كفرد عادى ، فضلا عنه إماما له نفوذ وسلطان :

« . . . إن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما تكرهون وإنما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس يقول : (إنها فتنة ، فقطعوا أوتاركم ، وشيعوا سيوفكم) . . . فإن كان صادقا فقد أخطأ بمسيره غير مستكره . وإن كان كاذبا فقد لزمته التهمة » . . .

وقد علم السامعون لا ريب هذا التصرف الذي أتاه الأشعرى وهو عامل له على البصرة ، وما انطوى عليه من اجترار على الأمير الشرعى للدولة لم يبلغ فحسب حد التقاعد عن نصرته بل مبلغ تخذيل الناس عنه وإنه لجريرة تقارب الخيانة . . . ومع ذلك ، فماذا كان رأيهم في اختياره ليكون نائبا عن إمامهم عند الأعداء . . . ؟

لكأنى بتذكرة على إذ ذاك ذهبت صيحة في مقبرة ، لا عملاً أذنا ولا نحرًا جارحة . . . فقد وقف الجمع يشهد ولا يرشد ، ويبصر ولا يتبصر ، وحتى أولئك القادة الذين كانوا من قبل يملأون العيون والخواطر ، ويكتبون مع على سطور التاريخ ،

قد ألقوا الآن — فيما يبدو — الأقلام ، وسكبوا مدادهم ، ثم انتظروا ما قد تسفر عنه الأمور . . . فلا الأشر ، ولا ابن عباس ، ولا الأحنف بن قيس ، ولا غيرهم من الخاصة قاموا بدور إيجابى أمام الجماهير لتنجية الأشعرى عما اختاره له الأشعث وعصابات القراء . . . وما فعلوا ، على ما يظهر ، أكثر من لقاء على فرادى ، وفى خفية من العيون ، محاولين أن ينقض اختيار الرجل بعد أن أجبره للتمردون على التسليم لهم بما أرادوه ، وما أحسب تصرفهم هذا ، فى مثل هذه المحنة الحازبة التى قوضت خلافة الإمام ، إلا دليلا واضحاً على انفراد الأشعث بن قيس — فى ذلك الوقت — بالسلطة انفرادا لا تؤمن معه مغبة معارضته والاختلاف عنه . .
وأكمل الإمام ما بدأه من حديثه :

« . . . ادفعوا فى صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن عباس . وخذوا مهل الأيام ، وحوطوا قواصى الإسلام . . . ألا ترون إلى بلادكم تغزى ، وإلى صفانكم ترمى ؟ . . . » .

هكذا ود لو يفيدوا — ماوسعهم ، وما أمكنتهم الظروف — من خدعة الهدنة التى جازت عليهم ، وسلبتهم وهم غافلون ثمار النصر ، فابن عباس أعرف الناس بالأعيب ابن العاص ، وأقدرهم على مفاوضته وهذه الهدنة التى فرضت عليه فرضاً على أية حال فسحة من زمن لا يجدر أن تتسرب وتنقض دون أن يعملوا على استغلالها لتقوية جيوشهم ، وتنظيم صفوفهم من جديد تأهباً للقاء عدوهم ثانية إن فشل التحكيم . . .

لكنهم عموا عن رأيه ، وفشا بينهم اللفظ الذى ينبىء بما اعتادوه من معارضته . مرارا عموا عنه ورفضوه ، ولم يشفع لديهم منطقته الذى لم تثبت أمامه لهم حجة ولم يستقم برده . وكم من مرة بعد مرة حاول أن يحملهم على الاقتناع فما زادتهم محاولاته إلا لجأجا فى العنت وإصرارا على الإصرار . . .

ثم يأتى الأشعث فيجهز بعنفه وعنفوانه على كل أمل فى العدول عن ذلك العناد المرذول وهو لا يخفى ما تنضج به طبيعته التى شاءت أن تخرج بالأمر من قضية عامة يهم مجموعة المسلمين علاجها بما تتفق وصالحهم العام ، إلى قضية خاصة ينال

من كبرياته حلمها بوسيلة لا توافق هواه ولا تفسح أمامه ساعة التعالي والاغترار ...
يقول الإمام في بعض محاولاته :

« . . إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وإنه لا يصلح للقرشي إلا مثله . فمليكم بعبد الله بن عباس فارموه به ، فإن عمار لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ، ويحل عقدة إلا عقدها ، ولا يبرم أمرا إلا نقضه ، ولا ينقض أمرا إلا أبرمه . . . »

لماذا يكون رد الرجل على هذه الحجة التي تستلهم طاقات الأنفس البشرية فتعد للخصم كفوه ، المنحدر من نفس أصله ، الثابت في نفس بيئته ، الناهل وإياه من نبع كما تعد الحديدة لتطرق الحديد . . .

إنه يشور . . لا يبالي تعرف المنطق السليم في حديث الإمام أو تبين النتائج الناجمة عن إنقاذه . فلا كانت قضية . . . ولا كانت نتيجة مرجوة ما نهض بالمفاوضة غير من شاء ، خصوصا إذا كان هذا الناهض رجلا من « قريش » يكاد هذا الغادر للريب أن يرى في نهوضه دلالة قاطعة تدمغ « اليمن » بالقصور والمهوان عن أن يسند إليها التحكيم . . .

يمثل هذه النظرة الكيكية — يمثل هذا العمى يستقبل الأشعث بن قيس رأى الإمام فيدفعه صلفه إلى الوراء بضع عشرات من السنين إلى عصبية الجاهلية الأولى التي وأدها الإسلام . فهل حقا ثار . . أم هي الحجة للعجزة تلجئه إلى الفرار منسترا بالثورة حتى لا يحق عليه التسليم والإقرار . . .

على أية حال لم تعجزه الوسيلة التي تحقق له غرضه ، وككل مكابر يفض العيني عن نور الحق حين ينبلج ، ويصم أذنه عن هتافه حين تدعوه دواعيه ، تظاهر الأشعث بالثورة ، أو زار حقيقة وثار . فاعله غضب لنفسه وقد جرح غروره ، ولقومه وقد هانوا ، ولسلطانه الغض وقد رآه وشيك الانقاص والقبول لو استجاب لرأى على ، وسلم لمنطقه ، وما كان قد نم بعد بهذا السلطان لإساعات . . .
ويصبح كخبول :

« لا والله ! — لا يحكم فيها مضرين إلى قيام الساعة . . . »

فأى حجة هذه وأى برهان . . .

ثم يندفع مرددا نفس رأيه القديم :

« اجعله رجلا من أهل اليمن إذ جعلوا رجلا من مضر . . . »

فيجيبه على بهدوء :

« إنى أخاف أن يخدع بمنيكم ، فإن عمرا ليس من الله في شيء إذا كان له

في أمر هوى . . . »

لكن هذا التحذير الهادي* يزيد ضلالا ، فيقول :

« والله لأن يحكمكم بيهض ما نكره ، وأحدهما من أهل اليمن ، أحب إلينا

من أن يكون ما نحب في حكمهما وما مضر يان ! . . . »

* * *

وهكذا يكشف الأشعث خافيته فلا يخطئ* امرؤ في تبينه على حقيقته : رجلا

يمكن لسلطانته ما وسعه التمكن . يستهوى الأنفس أولا بهريق دعوته المضللة للسلام .

ثم ينشر هذه الدعوة حق يغدو نديها في عيون الجماهير . ثم يفرض إرادته . حق

إذا غدا مؤزرا بالزعات النفسية لم ينس أن يوفر أيضا لنفسه القوى للمادية التي

تضمن بقاء تحكمه في مصائر الناس والأمور فيختار حكما من قومه ويتحصن

وإياه بالمصيبة اليمنية وإن أفرادها إذ ذاك لحزب لا يستهان به في جيش على ،

وقوة غالبية في جيش الشام . . .

هنا يحق أن نتساءل : أكان لرجل مطمع وراء التحكم . . . ما هي غايته ؟

وما قصاره من هذا التحكم الذي قد مهد له ، ورسم خطوطه ، وابتدع له حكما

من قومه صنعه بيديه هو ذلك الأشعري اليمنى الظنين ؟

أخبال ، أم شرود مع الخيال ، أن يطمع الرجل في إمرة المؤمنين لنفسه بعد

كل هذا التدبير والتحكم ؟ . . . قديما اشترى عرشا بدينه . وأمس فقط اشترى

السلطة بهيبة على — بل بدولته ! . فلم اليوم — وقد اجتمعت له عوامل النجاح

والقوة ، نفسية ومادية ، من نفوذ ، وسيطرة على عواطف الجماهير ، وأعوان

غفيرة هنا في هذا الفريق وأعوان تفوقها هناك في ذاك — لا تنو عينه إلى

الخلافة وإن أحد الحكيمين الذين يملكان إلباسه طيلسانها لصنيعة يده ؟ . . .

إنه أعلم باتجاه الأشعري . . . يعلم أنه لن ينصر معاوية لأنه يرى فيه أحد طرفي الفتنة التي اكتواها السلدون كل هذه الثهور . . . ويعلم أنه ينصر عليا في غد وقد سلف منه أمس ما سلف من خذلانه . . . ولم يكن علمه هذا سراً خافياً ظل مستغلقاً على سواء ، ولا كان مما جرى في الأفهام مجرى الظنون ، بل كان من قبيل الخبر الشائع على الألسنة ، المستقر في الأخلاق استقرار اليقين . . . نسمعه في معسكر معارية كما نسمعه في معسكر علي ، ونسمعه قبل أن يكتب الحكمان صحيفة التحكيم كما نسمعه بعد كتابتهما . . .

يقول الأحنف بن قيس أعلى يحدثه في شأن أبي موسى :
« . . . قد حلبت أشطره ، فوجدته قريب القمر ، كليل المدينة ، وهو رجل بمان وقومه مع معاوية . . . »

وينشد شاعر من الشام ، هو أيمن بن خريم ، ينمى على أصحاب علي سوء اختيارهم حكمهم :

« لو كان لا قوم رأى يعصمون به من الضلال رموكم بأبن عباس
لكن رموكم بشيخ من ذوى يمن لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس
أبلغ لديك عليا غير عاتبه قول امرئ لا يرى بالحق من باس
عا الأشعري بمأمون »

ويلتقى عمر بن سعد بأبيه سعد بن أبي وقاص ، إبان اجتماع الحكامين بدومة الجندل ، فيقول له وهو يمنيه الخلافة :
« . . . إنك لم تدخل في شيء مما تكره هذه الأمة ، فاحضر دومة الجندل ، فإنك صاحبها غداً . . . »

ولا يكاد الأحنف بن قيس يودع أبا موسى الأشعري إلى مقر الاجتماع ،
حتى يسرع إلى الإمام يقول له :
« لا أرانا إلا بعثنا رجلا لا ينكر خلمك . . . » .

فهل هو خيال ، أم شرود مع الخيال أن يطمع الأشعث بن قيس في إمرة
للمؤمنين وقد مكن لنفسه كما مكن ، وأعد كما أعد ، وأمامه من قرائن الحال
ما قد يغنى عن جواب سؤال ؟ . . .
الصحيح أنه تأمر ، وأنه دبر ، وأنه احتال . ولا عبرة بعد هذا بفشله .
فقد رتب للمقدمات ثم خائنه الخواتيم . ولو كان تديره كله أغير غاية رمقها من
البداية فهو إذن عايت خامل ، يلهو بالسلطة ، ولا يهزه الطموح ، ولا يحايل
عينه عرش كندة القديم

١٠

ليوشك امرؤ أن يستبعد طمع الأشعث بن قيس في خلافة كانت الناس ،
إلى قريب ، تراها حقا اقريش دون غيرها من العرب . . . يوشك أن يكون
هذا ، لولا أنه ، فيما أحسب ، استبعد قد يسير النظرة الحديثة التي تنظر إلى
للشكل الآن وهو غارق في عشرات من الحجج والجدليات ابتدعتها مئات من
السنين ثم لا يسير نظرة القوم الذين كابدوه حين نشوئه وعاشوا فيه . فالخلافة
الإسلامية — كنظام من نظم الحكم — هي في حقيقتها وليدة رأى وليست
وليدة نص ديني ثابت لا يحتمل التأويل . ورسول الله وهو يستقبل ربه ، بعد
أن فرغ من أداء رسالته ، لم يوص لأحد بعده بالحكم وصية صريحة وإن بدرت
منه في أوقات شتى إشارات وتلميحات تاه أصحابه في تفسيرها عقب وفاته بين
الاحتمال والترجيح . وثمة أحاديث فيها من الصراحة ما قد يرسم لنا صورة
للمستخلف يوضح — كحديث « الغدير » وحديث « خالص العمل » —
ولكنها أحاديث « توجيهية » تهدي إلى الحقيق بالإمرة ولا تلزم الناس باستخلافه .

وحتى على نفسه لم يدع الحق في الخلافة يهد من محمد قاطع يحبسها عليه ويحصرها فيه . بل كان يقول في ذلك : « لو عهد رسول الله إلينا عهداً لأنفذناه . . . » .

كانت هذه نظرة القوم عامة إلى مشكل الخلافة والاستخلف والنبي حينذاك لم يتوسد مستقره الأخير . وبين هذه الحدود اضطربت الآراء من بعد ، وتشعبت شعباً ، وراح كل فريق من المختلفين يحاول أن يلتقط من أقوال رسول الله ، ومن أفعاله ، ومن تلميحه ، ومن الأحداث التي لازمت مولد الإسلام ونموه ما لهه يسند دعواه . وفي بدء الأمر كان ثمة معسكران للرأى : أولهما معسكر الأنصار ، وثانيهما معسكر المهاجرين الذي ما لبث أن انقسم على نفسه حتى فتت الخلاف كتلته القرشية ، فإذا به يغدو « بيوتاً » كبيرة مستقلة إن يكن نماها أصل واحد فقد تفرقت بها فروعه . وإذا بكل بيت منها يرى الخلافة الإسلامية حقاً له وحده ، ثم إذا بالبيت الواحد الكبير قد انقسم أيضاً إلى « أسر » كل منها تنفرد بالعمل لحسابها الخاص .

وليس يعنينا هنا تتبع هذه الانقسامات في الأعصر وما تفتقت عنه من الفتن والدول والدويلات . ولكننا نعود بها إلى نواتها الأولية يوم خرجت إلى الوجود ورسول الله مسجى على فراشه . حينذاك لم ير الأنصار ضيراً في التطلع إلى تقلد السلطان الزمني الذي بات لزاماً على المسلمين إقامة بنيانه بعد أن رسم لهم محمد خطوطه وأرسي قواعده . ولقد شجعهم لا ريب على هذا التطلع أن الإسلام وضع أهله جميعاً في مكانة سواء ، ولم ينص على حصر الحكم في طبقة معينة أو أسرة بذاتها دون سائر الأسر والطبقات . وشجعهم أيضاً دورهم الفعال في نصرة الرسول مستهل الدعوة حين عز النصير من قومه ، وما كان من فضل هذا الدور في استفحال شأن الدين واشتداد ساعده حتى بطش بالشرك في الجزيرة العربية ودان له الناس . فالأنصار إذن وقد تقدموا يرنون إلى قيادة الدولة الجديدة الناشئة إنما يتقدمون ولهم صحيفة تزكيم ، فيها « العمل » الذي أسلفوه ، الكاشف عن اقتدارهم على القيادة الزمنية ، الجدير بالثناء والجزاء ، وفيها « اللبداً الديني »

الذى لا يميز بين المسلمين ولا يفرق بين طبقاتهم وأجناسهم وإنما يجعلهم جميعا سواء . . .

لكن هذه النظرة التي تدنو نوعا من التحرر اصطدمت فورا بأخرى تقابلها قد غلب عليها الخضوع للأحياز وكان من مبادئها تقييد « الأهلية للحكم » وحصرها في حدود وشروط . فما اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة وهم رأيهم يجتمع على البيعة لسعد بن عباد رئيسا سياسيا للدولة حتى انطلق رجال من المهاجرين إليهم يحاولون ثنيهم عما اعتزموه . وكان الناطق بلسان هؤلاء أبا بكر ، ومن ورائه وقف أصحابه أبو عبيدة وعمر بسندانه . وكان الرأي المناوئ الذي جاءوا به هو تضيق نطاق تلك الأهلية للحكم بالعدول عن التعميم إلى التخصيص ، وعن العرب إلى المهاجرين ، وعن المهاجرين إلى قريش ، وعن قريش إلى أدناها من الرسول .

واضطرب الناس ذلك اليوم بالسقيفة حتى لكادت الفرقة توقع بينهم فتنة لا تحمد مغبتها لولا تيقظ الخلاف التاريخي القديم بين الأوس والخزرج وانبعائه من رقدته ، وعندئذ تفتت وحدة الأنصار ، وتراخت قبضتهم على الخلافة فافلتوها وهم يرون السلامة — من انقسامهم ، ومن فتنة قد تصيب الأمة عامة — في البيعة لقريش بالزعامة السياسية على العرب في شخص أبي بكر الصديق .

حق على في هذه الآونة كان يرى رأى أصحابه أوائله من المهاجرين ولا ينكر منهم إلا خروجهم على ما دعوا له وألزموا به الأنصار من شروط . فلقد جاءته الأنبياء بالحادث ، وما أدى إليه من استخلاف أبي بكر ، فسأل من أنبأوه :

« ما قالت الأنصار ؟ . . »

« قالت : منا أمير ومنكم أمير . . »

« فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله وصى بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز

عن سيئتهم ؟ . . . »

« وما في هذا من الحجة عليهم ؟ . . »

« لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم . . . »

م — ث .

« فماذا قالت قريش ؟ . . »

« احتجت بأنها شجرة الرسول . »

وعندئذ قال :

« احتجوا بالشجرة ، وأضاعوا الثمرة . . »

ولقد أضاعت قريش « الثمرة » حين فوتت على ما يراه حقه في الخلافة إذ هو أدنى من أجرى قريش حسبا ونسبا وقلبا من الرسول . ولكنها لم تترك هذا ما قد يحسب عليها جريرة إذا ما قيست الجرائر بمقاييس النصوص الصريحة ولم تقس باجتهاد الرأى في التأويل والمفاضلة والترجيح . فإن هو إلا رأى ارتأته إبان داهية ، وما ثمة سند « رسمى » كان يلزمها البيعة لعل وإن وضعته شروطها على رأس قائمة الحقيقين بالخلافة . . .

والذى لا شبهة فيه أن نظرة أبى بكر كانت دعوة صريحة إلى « أرستقراطية » الحكم لا ينكرها الدين وإن نجد اليوم من عساه ينكرها بين مروجى المبادئ الشعبية التى لا ترى قط افتراض حصر الرئاسة فى أسرة من الأسر أو فى طبقة من الطبقات . وهى فضلا عن أرستقراطية مظهرها قد توسلت أيضا بوسيلة مثلها أرستقراطية لتبلغ حظها من التحقيق . فما كان لعامة الناس رأى فى اختيار الخليفة ، ولا هم دعوا للمشاركة فيه ، بل قد دعوا بعد الاختيار للموافقة والإقرار . وحين نعرض لاختيار أبى بكر ، ومن بعده لاختيار عمر وعثمان ، ترى « الخاصة » من المهاجرين والأنصار ، فى مجتمع المدينة دون غيرها من البلاد الإسلامية ، هم وحدهم الذين يبدأون البيعة فتبرم برأيهم إمرة المؤمنين ولا يبقى بعدهم لأهل بقية المدن والأمصار إلا قبول الاختيار . . .

فلتكن إذن هذه الخاصة التى نصبت نفسها لاختيار الخليفة نوعا من « المجالس النيابية » أسفر عنه « الانتخاب الطبيعى » فى مجتمع قبلى ، يتبع العرف والتقاليد ولا يعرف من أساليب الانتخاب الوضعية ما نعرف الآن . . . وليكن رأيها ممثلا للرأى العام ، محققا لرغبة الشعب إذ هى قادة الرأى فيه ، ومناطق رجائه فى أمور الدنيا والدين — ليكون هذا ، ولتكن هذه . ومع ذلك فإن « المظهر الشمى »

لا انتخاب الخلفاء لم تتضح ملامحه إلا عندما « انتخب » على أميراً للمؤمنين بعد مضرع سلفه . فهذا الرجل الذي اجتمعت الآن الأهواء على حربه ، وتنكر له رجاله ، لم تنفرد باختياره الخاصة في مجتمع محدود ، بل انتخبه أقوام من المدينة ، والبصرة ، والسكوفة ، ومصر — أمهات بلاد الإسلام وأقطاره — كانوا يمثلون إلى حد كبير التيارات السياسية الشعبية .

هذا المظهر الشعبي الذي اصطبغ به انتخاب على هو في الواقع نكسة شعبية أصابت الاتجاه الأرستقراطي الذي استن يوم السقيفة وأدى إلى اختيار الصديق . وهو تحرر جزئي وخطوة نحو الانطلاق . وإذا كانت هذه النكسة لم تمس مبدأ الاختيار ، ولم تهدم الحدود والقيود التي تعميده ، فإنها غيرت أسلوب التطبيق . وإذا كان الزمن لم يمتد بهذا التحرر ليسير في طريق التطور الطبيعي ، وينمو ، ويبلغ اكتماله ، فمرد الأمر إلى نكسة أرستقراطية مفاجئة ، عصفت به وهو وليد ، وأقامت على أشلائه الطرية الغضة ملكاتيا متوارثا لا مجال فيه لانتخاب ولا اختيار... كان انتخاب على إذن وسطا بين النظرة الأرستقراطية التي دعا لها أبو بكر وبين النظرة الشعبية التي دعت لها الأنصار فالأمة « عامة » — ممثلة في أقوام من أقطار دولتها — قد انتخبته من « طبقة » محددة ، لها ما يرجع كفتها على بقية الطبقات حين لا تحسب للزايا بحساب التقاليد المرعية ، والنفوذ الأدبي ، والصلة بالرسول . والشعب الذي شارك في انتخابه قد وجد في هذه المشاركة متنفسا لرغباته ، واكتسب لنفسه حقا طبيعيا ، لم يكن له من قبل ، هو حق الانتخاب... ومع ذلك ، وحق تلك اللحظة ، فإن الخاصة لم تكن لتقر هذه النزعة السياسية الجديدة ، وظلت ترى أن حق اختيار الخليفة وقف على طليعة المؤمنين وحدهم بالمدينة ، وتجعل تبعاً لرأيهم بقية الآراء .

وما من شك في أن رأى الخاصة ، وإن خالف الاتجاه الشعبي في مظهره ، إنما كان يهدف مخلصا إلى الصالح العام للدولة الإسلامية الناشئة ، التي لم يحض على بنائها سياسيا إلا سنوات قليلة ، توفرت لها خلالها بعض مقومات الدول منذ حمل رسول الله من عناصر المجتمع المدني المضطربة وحدة متسقة ، يحكمها قانون

مرسوم ، وتركز آمالها جميعاً في غاية واحدة لا تنهون في الدفاع عنها ولو بقوة السلاح . ويوم دعا أبو بكر لنظراته لم يكن فيما نحسب داعية يؤيد الأرستقراطية لذاتها ، ويوم تابعه أصحابه على هذا الرأي ، إبان عهده ومن بعده ، لم تكن متابعتهم في حقيقتها الظاهرة والخفية تنكراً للشعب ، ولا انتصاراً للخاصة فيه على حساب عامته ، وإنما كانت الدعوة والمتابعة كلاهما امتثالاً لحكم الظروف المحيطة بدولتهم الجديدة . فالبناء حينذاك لم ترتفع منه إلا قوائمه . والدين الغض جب كثيراً مما خامر العقول والنفوس من العرف والعادات والتقاليد . والبادئ الإسلامية قد تترنم بها الألسنة ولكنها لم تتعمق غالبية القلوب . . . لذلك كان أدنى إلى المنطق ، وأليق بمقتضيات الحال ، وأقرب إلى تحقيق الصالح العام للأمم أن يكمل البناء من شاركوا في وضع قواعده ، وأن يحمي الدين من ثورة التقاليد المكبوتة من ناهضوا من البدء هذه التقاليد ، وأن يرسى مبادئ الإسلام في القلوب من أشربوها ولم تنل منهم الحن والخطوب . .

فهل كان عجبا إذن — وقد اجتمعت كل هذه المزايا لقريش — أن ينادى لها بالزعامة السياسية في وقت كانت العرب فيه لا تنكر عليها صدارة الناس ؟ . . أو أن يلقى النداء صدى في النفوس التي عاشت طويلاً تؤمن بالنفوذ الروحي لقريش منذ كانت لها ولاية البيت الحرام في الجاهلية ثم من بعد إذ غدت موئل النبوة في الإسلام ؟ . إنما العجب أن تفشل الدعوة وأن يتبدد النداء ولا متقبل في الجزيرة العربية ولا مستجيب . . . وإنما الأعجب بعد هذا أن يظل النداء يتردد وأن تظل النفوس تتقبل ، والعالم منذ مولد الدعوة تتكشف للعرب مجاهيل بقاعه ، وتتداني أباعد رقاعه فتعمد النظرة وينفسح الأفق أمام المفكرين والأفكار . . . جيل جديد من الناس يبرز الآن من الأغمار . عنصر جديد . أخلاط من الشعوب التي احتواها الإسلام في ذراعيه من بحر الهند إلى البحر المحيط ، ومن جبال القوقاز وسهول التركستان إلى هضبة النوبة بجانب النيل . . . إن ثلث قرن من الزمان قد آتى بأحداث غيرت الأرض والبشر . فالدولة الناشئة لم تعد محصورة — كبديتها — بين أسوار بلدة صغيرة ، بل انسابت أماما وخلفا ، وبمنة

ويسرة ، تأكل العالم ، وتهدم الحدود كأنها طوفان . انتشرت تسرح كالنار وتفيض كالنور . استطاعت بين قرنى الشمس ... والشعب الإسلامى لم يعد خصب عربا أطلعته الرمال ، وروثهم العيون والآبار ، ولا بدوا تخبطهم المحل فمرة جيرة الفرس ومرة جيرة الروم ، بل غدا أمما حجة ، تتناثر فى الشرق والغرب ، وفى الشمال والجنوب على وجه ذلك العالم القديم المعروف ، وتختلف بها الأصول والعناصر والألوان ، فتباين فهما وفكرا وعاطفة ... وبعد أن كانت « المدينة » خلال عهود الخلفاء الثلاثة الأولى حاضرة الدين والسياسة ، ومهوى القلوب والعقول والأبصار من أنحاء الدولة ، خبا ضياؤها لا يخطف ، وخفت صوتهما لا يطاع ، وأشرفت على جيلها الثانى وهى بلدة فى عمر البلدان ..

تلك الثورة على عثمان أنزلتها من علياء عزها للوئل . فقد هانت حتى اقتحمها أهل الأمصار ، ومن لاذ بهم حينذاك من عبدان ، وحكموا فيها بسرعة الثورة لا بشرعه التقاليد . الهيبة التى كانت تصدم عنها غدت خيال غابر ، كثيف الظلال ، خفيف الأضواء ، والنفوذ الأدبى الذى تسربلته منذ عهد الرسول رث كأسمال . فالدين أسهموا فى بناء مجدها أكلت منهم الفتوح فغابوا عنها فى ثرى غريب ، أو استهوتهم العوالم الجديدة التى غزاها الإسلام فهاجروا إلى الخير والدعة والثروة . والدين مكثوا على أديمها تربطهم بها بقية من وفاء للغابر ظلوا قعودا شهودا لا يمنعونها عن مقتحميها ولو بإشارة بناف . بل إن منهم لمن أعان عليهم فخرض وتنفخ فى النار يؤازر الثوار ...

وحين تذكر الثورة تذكر المساواة . فما هى إلا نتاج هذه التعاليم الجديدة التى طلع بها ذلك الدين الجديد على عالم من العبيد تملكه حفة من الطغاة . فيها وجد الدليل عزه ، والحائف أمنه ، والضعيف قوته . وبها تحرر الأسود والمهجين والأصفر من معرة الجلود والأبشار . وحيالها أصبح الناس سواسية ، لا فضل لأحدهم بعنصر ولون ، ولا بأصل وقبيل وحين تذكر المساواة فقريش إذن على مكانة سواء ومن داناها ومن باعدها من رحل الصحارى ، وبدو العراق ، وبربر إفريقيا ، وأهل الجبال فى هضاب آسيا ، وفالحى الأرض بشاطئ النيل . . .

كانت المساواة هي القبس الذي استضاءت به أذهان الناس في البلاد الإسلامية . ثم استوى شعلة ، ثم توهج وتأجج نارا غصبي راحت تأكل الفروق الطبقيّة التي استطاعت لدروتها في أخريات أيام عثمان . ولم تذق قريش حينذاك عن تراثها — عن تلك النظرة التي ارتأها لها أبو بكر يوم السقيفة وبوانها سلطانها السياسي على الدولة الناشئة إلى جوار ذلك السلطان الروحي الذي استمدته قبله من ولاية البيت الحرام في الجاهلية ، ومن ولاية النبي في الإسلام . كان منها ، حقا ، من تقدم إلى اللهيب يحاول أن يطفى نأثرته ، ويهدى نأثرته . ولكن أكثرها كان يشهده وهو ساكن أو صاغر ، وبعضهم كان يذكره بالتحريض أو بالتآمر . فلما أن طعن عثمان وقضى نحبه ، لم تكن الطعنة التي أصابت خاصرته بأنكى من تلك التي أصابت قريشا قبيلته وذهبت بهيبتها مع الدم المراق .

إنه لأدنى إذن إلى مطابقة منطق الأمور — بعد هذا كله — أن يرنو إلى الخلافة كل ذي عين تستطيع أن ترنو ، وقلب يعرف كيف يطمح ، وذهن قد ير على المكايمة والتدبير . أيما امرئ وسعه أن يفعل فلا حريجة ولا جناح ما اجتمعت له مقومات الطموح وأسناده ، يستوى في هذا من شبه الرمل ومن أنبتته الظلال ، من انحدر من خاصة ومن كان من عرض الناس . . . فسلطان المدينة تقوض ، وهيبة قريش تهاوت ، وتلك المهالة حول أرستقراطية الحكم قد عفاها التطور الفكري وذهبت بها الاتفاعات الشعبية . . . القوة الآن حيثما تكون القوة لا حيثما كانت التقاليد . وميزان التفوق هو الأسناد للمادية وليس العاطفة الدينية . . .

جرى حديث الصحيفة الصفراء :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . »

هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وشيعتهما ، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه . قضية عليّ على أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب ، وقضية معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب »

وبمثل هذه الفاتحة يبدأ التحكيم . . .

فلولا أن استهلوا الوثيقة باسم الله لحسب المسلمون أنهم طووا أزمانهم إلى الخلف جيلا حتى وقف بهم عند « الحديبية » يطالهم فيها عنت قريش بلسان صاحبها « سهيل بن عمرو » وهو على عليهم مشيئة الجاهلية التي استسفرته لعقد الهدنة وكتابة عهدها حينذاك . . . فما عدا مما بدا . . . وما خالف الخلف عن سلفه كأنهم شخوص وظلال . . .

كما أبو أمس أن يلحقوا النبوة باسم محمد أبوا اليوم أن يلحقوا الإمرة باسم علي وإن علموا أنما قد بايعه بها الذين بايعوا قبله أبا بكر وعمر وعثمان . وهل يضيرهم وقد تأثروا خطا الآباء ؟ . . . وهل يعضل بهم أن ينكروا عليه ما قلده الناس وسلفهم قبلهم أنكروا على ابن عمه الكريم ما قلده الله ؟ . . .

يهول معاوية أن رآهم يلحقون الإمرة باسم خصمه في وثيقة التحكيم ، فيقول :

« بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين . . . »

ويعقب صاحبه عمرو ، مخاطبا من كتب :

« اكتب اسمه واسم أبيه . . . إنما هو أميركم ؟ وأما أميرنا فلا . . . »

وتلبث على مليا يفكر ، حين جاءوه بالصحيفة الصفراء ليحو اللفظة التي هالت ابن أبي سفيان - يتفكر هادئا في غير ضيق ، وفي سخرية وترفع . وهل ينقص

المؤمنه ؟ . . . وهل يزيد الإثبات فيه ؟ . . . إنما كان ذهنه يكره به إلى أطراف
الماضي ، من جيل ، إذ راح يكتب لرسول الله ، بجانب ماء الحديبية ، عهد الهدنة ،
فيعنت سهيل ، ويعلم محمد ، ويعجو هو وإنه أسكاره حتى تجيء الصحيفة على الهيئة
التي يرضاها هوى سهيل ومن بعثوه . . . راح يكتب والنبي يملأ عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . »

لكن سفير الجاهلية أبي :

« لا أرضى . . . اكتب : باسمك اللهم . »

فأمره الرسول :

« اكتب : باسمك اللهم . »

ففعل . محاً وأثبت .

ثم كتب :

« هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . . . »

فاعترض سهيل : « لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . . . اكتب اسمك

واسم أبيك . . . »

وعندئذ غضب على :

« بلى والله . . . إنه لرسول الله وإن رغم أفتك . . . »

غير أن محمداً يأمره :

« اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله . . . »

وكأنما يتبين النبي في وجه ابن عمه التردد ، فيهدى من روعه ، ويعيدها عليه :

« اكتب ما يأمرك . . . إن لك مثلها . ستعطيا وأنت مضطهد . . . »

وهو يوشك أن يعطيها الآن . . .

ويقبل عليه الأحنف بن قيس في لفحة . . . الجزع في قلبه ، والنصة في حلقه ،

والحزن يتواتر على وجهه ظلالاً كثيفة دكناء :

« يا أمير المؤمنين . . . لا تمح اسم إمرة المؤمنين عنك . . . لا تمحها . . . »

فبيتسم له .

ويماود الرجل الجزع الرجاء والتحذير :

« لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ... إني أخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبدا ... »

ثم يقبل عليه الأعمش . في خطوة اختيال ، وفي قلبه خيانة ، وفي عينه تجبر ... يقول باستعلاء :

« امح هذا الاسم ! ... »

فيبتسم أيضا له .

« امح هذا الاسم ! ... »

وفي سخرية وترفع يرمقه الإمام بعين لا تكاد تستقر هنية على شعثه حق تنفلت تغززا ، إلى وثيقة التحكيم الصفراء فننفذ منها إلى صحيفة الحديدية وعنت سهيل ، وحلم الرسول ... ما عدا بما بدا ... الأمس واليوم في لحظة ... السلف والخلف في فرد ...

ويهتف على في إيمان وتسليم :

« لا إله إلا الله والله أكبر ! ... سنة بسنة ... »

ثم لا يأبى على اللعنات ما شاء ، فيمحو ويثبت ... ويقول :

« أما والله لعلى يدي دار هذا الأمر يوم الحديدية حين كتبت الكتاب عن

رسول الله ... فاليوم أكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله إلى آبائهم

سنة ومثلا ... »

٢

الأشعث ليس يسهه ثوبه انتفخ من فرح . وبدت على وجهه صولة الظافر وهو يلوح في يده بالصحيفة الصفراء كأنما قد ملك مفاتيح المجد

وحق له فالقوة الآن في يمينه : اليمين في ظهره . ودعاة الهدنة . والخدوعون . وكل منافق . وأصحاب الدنيا الذين تخاييلهم مطامع السلام . ومن نهكتهم الحرب وأفزعتهم الدماء وأمام عينيه ، إلى هذا كله ، دنيا فسيحة من أحلامه .

غدا الرجل سيد للوقف . الأمر له . والنهي له . لا راد لما أراد ، ولا معقب عليه أكره عليا فقر السلاح . وأكرهه فكان حكمه من ذى يمن . وأكرهه فامحت إمرته من الصحيفة . والناس من وراء هذا شهود قعود ، من رضى فأقر ، ومن أكره فصبر سواء بسواء

حق الصفوة المختارة من رفاق الإمام وذويه اتسعت رقعة كتاب التحكيم لأسمائهم ، يذبلونه بها ، ويشهدون على أميرهم وشيعتهم وأنفسهم بما فيه ليس عن تخاذل كان توقيعهم ، ولا عن فتور إيمان ، ولكنهم اتعنوا للعاصفة ، وانساقوا مع التيار وعند ما دار الأشعث بن قيس ، يضع الوثيقة تحت أقدامهم ، كانت في قلوبهم حسرة ، وفي حلقهم مرارة ، وخلف أجفانهم للرغبة قطرات دموع تهم أن تسيل مع الخبر

ومد الأشعث بالصحيفة يده إلى الأشتر ، ليشهد كرفاقه . فإذا هو ينكش ، وينأى كأنما مدت إليه حية ثم يصيح في إنكار :

« لا صحبتني يعني ، ولا نفعتني بعدها شمالي إن كتب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادة »

وبدت السخرية في عين الأشعث ، ثم رد في صلف واستعلاء كأنما يأمر :
« هلم فاشهد . . . »

« أشهد . . . أو لست على بينة من ربي ، وبقين من ضلالة عدوى ؟ . .
أو لستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الجور ؟ . . »
جاء الرد ثانية ، قد آنحه الغرور ، وقطرت من حروفه خيلاء صاحبه ،
وكبره ، وعجبه بمقداره :

« هلم فاشهد على نفسك ، وأقرر بما كتب في الصحيفة ، فإنه لا رغبة بك
عن الناس . »

وعندئذ ثار الأشت ، واندفع جوابه كالحم للتهبة :

« بلى والله إن بي لرغبة عنك في الدنيا للدنيا ، وفي الآخرة للآخرة . .
ولقد سلفك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندي ولا أحرم دما . . »
وتقبضت يده على مقبض سيفه ، والامح من عينيه مثل الشرر . . . وما يمنع
وبال غضبه عن هذا للشاء بالخور ، للدل بضلالة ؟ . . لولا أن يعصى إمامه —
ولولا أن تكون فتنة جديدة لا يحتملها هذا الجيش الذي مزقته الفتنة ، لسل
وقتل ، وألحق الغاوى الغرور بالغابرين . . .

وانكش الأشعث في جلده . . . واستخزي . وتغير وجهه بمثل الرماد . . .
وقيل للإمام :

« إن الأشت لم يرض بما في هذه الصحيفة ، ولا يرى إلا قتال القوم . . . »
فلم يغيره القول على صفيه الوفي . بل قد بدا كن استشف من الخبر وقيمة
نسجوا خيطها لتفصل بينه وبين صاحبه ، فرد يلومهم ويثنى عليه في آن :
« وأنا والله ما رضيت ، ولا أحببت أن ترضوا . . فإذا أبيتم إلا أن ترضوا
فقد رضيت . . . »

ثم انثنى يبين لهم وفاء لعهد وإن أكره عليه ، وثقته في رفيقه وإن دسوا له :
« . . . لا يصلح الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديل بعد الإقرار إلا أن يعصى
الله ويتمدى ما في كتابه . . . بلى . . إن الأشت ليرضى إذ رضيت . وأما الذي
ذكرتم من تركه أمرى وما أنا عليه فليس من أولئك . . ياليت فيكم مثله اثني . .
ياليت فيكم مثله واحدا يرى في عدوى ما أرى . . إذن لحفت على مؤوتكم ،
واستقام لي بعض أودكم ، لكن — نهيتكم عما أتيتكم ، فعصيتوني . . . »

على أن هذا كله لم يوقع الندم في قلب الأشعث ، ولم يكفه عن اختياله ...
 إنما نضح بما فيه ، وفضح خافيته . فلقد مضى على عجل ، الصحيفة يمينه ، والبشر
 على ثغره ، والزهو في لح عينيه ، يدور على الجيشين فيقرأ عهد التحكيم الذي أنجبه
 اليوم تزواج حرام بين النفاق والخديعة ! .. مضى تياها بمولوده ، يكشف للناس
 عنه ، ويعرضه عليهم وهو يود لو حملهم أجمعين على الإشادة بحسنه وإن رأوا فيه
 قسبات أيه ! .. فأما ذوو الأم : أصحاب الشام ، قفروا خاطرا وعينا ، وأعبت
 الفرحة بهم إذ جنهم الفضيحة اعتراف الأب الأثيم بالوليد ! وأما ذوو الأب :
 أجناد على ، فمنهم راض ، ومنهم كاره مستكره ، ومنهم منكر أشد الإنكار ...
 وما أكثر الآن من أنكر ! .. من سويغات ، حلت الحياة في عيونهم فران
 على قلوبهم حب البقاء حتى آثروا الحذر واشتروا السلام بالتسليم ... ثم ، هام
 الآن : ذهبت السكر . فترت النشوة . خفت عنهم حميا الدعة ، وحمى
 المخادعة والتضليل ..

ويمجب الأشعث للناس ، يطوف بصفوفهم ويعرض بضاعته ، كيف
 تبدلت بهم هكذا سريعا الحال حتى توشك أن تفسد ما دبر ، وتجيء بغير ما قدر ...
 لكنه يطوى عجيبه ، ويكتم قلقه ، ويمضى شوطه مكافحا مناخا عن غرضه يلقي
 في آذانهم شاج دعوته : ما ضمته الصحيفة الصفراء ...

كان رأسها : فصل الإمرة عن الإمام . فهو على ، وليس له من أمر المسلمين
 شيء تنص عليه الوثيقة إلا مثل ما لحصمه وإن كرهت الحقيقة الواقعة وكرهت
 البيعة التي أدتها له الأمصار ...

وكان هيكلها كما رسموه :

« ورضينا أن نترل عند حكم القرآن فيما حكم ، وإن تقف عند أمره
 فيما أمر وإنا جعنا كتاب الله فيما بيننا حكما فيما اختلفنا فيه ، من فائتته
 إلى خاتمته ، نهي ما أحيأ ، ونميت ما أمات »

وكان المحور الذي تدور حوله :

« . . . إن عليا وشيعته رضوا أن يعيشوا عبد الله بن قيس ناظرا وحاكما ، ورضى معاوية وشيعته أن يعيشوا عمرو بن العاص ناظرا وحاكما ، وإنهم أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، ليتخذان الكتاب إماما فيما بعث له لا يعدوانه إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطورا . وما لم يجداه مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة فإن لم يفعلا ، برئت الأمة من حكمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمة . . »

وكان من ختامها :

« والناس آمنون على أنفسهم وأهلهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل . والسلاح موضوع . والسبل مخلاة . والغائب والشاهد من الفريقين سواء في الأمن وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما في هذا الكتاب ، وهم يد على من أراد فيه إلحادا وظلما ، أو حاول له نقضا . . »

وإلى جوار هذا ، وفي ثناياه ، مشئت نصوص بموعد الحكم ومكانه . فأما للكان فموقع عدل بين أهل المراق وأهل الشام يتفق عليه الحكمان . وأما للوعد فإلى انسلاخ رمضان إلا أن يرى الحكمان تمجيلاه أو تأجيله . فإن عجلاه فلهما ذلك ، وإن أجلاه فنهاية الأجل انقضاء للوسم ، يجب عليهما الحكم خلاله وإلا كان للمسلمين أن يعودوا إلى أمرهم الأول من الحرب دون شروط لفريق على فريق . . . »

هذه هي الوثيقة التي وضعوها للتحكيم بين الإمام ومعاوية . وهذه هي شروطها نصوصها التي مضى الأشعث بن قيس ، في غبطة الوالد بوليده ، يدور بها على جند على — بعد جند الشام — يقرؤها ، ويتحمس لها ، ويود لو آمن القوم مثله بمن أياها التي ابتدعها تفاهه ، وقرت لها عين هواه . . . إنه ليعجب : قيم همسهم ، وما إنكارهم الآن ؟ . . . ولكنه يعضى شأوه ، وهو يكتن عجيبه ، ويطوى قلعه . فحسبه اليوم أن قد أنجب ولو من سفاح . . .

٣

صفا صفا ، وقوما قوما ، وراية راية من الأشعث بالجيش يعرض وليده :
الصحيفة الصفراء : وثيقة التحكيم . . . ما أراه عرضها عليهم ايعان شروطها
ونصوصها ، وإنما ليروج لها ، ويغاييل الظنون والأوهام بما احتوته من الفاظ
السلام ، والدعة ، والأمن على النفس والأهل والمال ، ومثيلاتها مما يغرى كل
من قاسى من ويل الحرب .

وكان موقنا من رواج سلعته ، واثقا أنها ستلقى القبول . فمذ قليل ، من
سويحات لم تنسدل عليها بعد غيرة الغروب ، كانت الحشود الغفيرة إلى جانبه ،
تعيّنه ، وتظاهره ، وتهتف به في إلحاح أن يبادر بالإنتاج ! . . . فما لها الآن ،
والسلعة في يمينه ، تعرض إعراضا يكاد يهدد بضاعته بالبوار ؟ . . .

وعجب . وقلق . وأحس خوفا مخالسا يزحف على صدره . . . هذا اللفظ
الذى استقبلوا به الوثيقة حرى أن يفسد أمره ويقلب عليه ميزان تدبيره . وهذه
الحشود التى أيدته من قليل حرية أن تنفض يديها من شأنه الآن . فعهد بهما
ببغاوات ، تذسرها لفظة وتطويها لفظة كما فعل بها نداؤه المضلل إلى التحكيم . . .

أيتها خطأ كانت مهمة ، وأينا قرأ وتلا كان إنكار . . . اللحظة لا يقابلونه
باحتراف . إن أصغوا فإصغاؤهم وجوم وإنصاتهم إليه عن تشكك أو من تسليم .
لا مؤمن الآن بعهد . لا متحمس له يلقاه بالثناء بل الناس من هذه الوثيقة
اثنان : كاره صامت ، وكاره مجاهر . . .

« لا حكم إلا الله » كانت النداء الجديد . . . فى بدئها كانت حديث السرائر .
خلجة قلب ، وهمسة ضمير . ولكنها استوت بعد هذا فكرة تنمو وتكبر فتتخم
الذهن وتفيض عنه على طرف اللسان . . . كل من امتحن بعقله دعوة التحكيم
بعد أن غدت صكا مكتوبا حار فيها لم كانت ، وفي جدواها كيف تكون ؟ . . .
وفي وكر هذه الحيرة للقلقة أخرج الفكر فتنة جديدة . . .

في صفوف « غزاة » سمعها الأشعث . وفي ألوية « مراد » ، وفي معسكر « بني راسب » ، وفي رايات (تميم) . . . كلما مضى بسلمته من ناحية إلى ناحية انطلقت نحوه تدق سمعه ، وتمز قلبه وأطرافه . وكانت آنا عاتبة عاتبة ، وآنا آخر نائرة غاضبة أو شك أن يثبتق لصيحتها الدم . . .
هذان فتيان من غزاة يجابهان الأشعث بها :
« لا حكم إلا الله ! . . »

ثم لا يكاد يسترد دهشته حتى يراها انطلقا انطلاق إعصار إلى جند معاوية ، يشخان فيه ، حتى يقتلا على باب رواقه . . .
وهذا عروة بن أدية التميمي ، يزار به :
« لا حكم إلا الله ! . . أتحكمون الرجال في دين الله ؟ . . فأين قتلانا يا أشعث ؟ . . »

ثم يتبع إنكاره ضربة سيف تمزق كالأشهاب الثاقب . فلولا بقية من أجل لطالت الأشعث دون دابته ، وجعلت منه أحدى غابر ! . .

وكم من صور بعد هذا توالى . وكم من أفراد ومن جموع شاع فيهم هذا الإنكار كالوباء والصحيفة لم يحف على رقعتها الخبر ! . . وكان الأشعث يشهد فيعجب ، ويشهد فيقلق ، ويشهد فيوجس الحيفة كل الحيفة على وليده الذي لم يهنأ به غير طرف نهار ، . . لكنه يصطنع لنفسه الثبات والطمأنينة ، ويأخذ سبيله إلى الإمام ليلفقه رضا الناس ! . . .
يقول له :

« يا أمير المؤمنين . . قد عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام وأهل العراق ، فقالوا جميعاً : قد رضينا . حتى مررت برايات بني راسب ونبت من الناس سوامهم ، فقالوا لا نرضى ، لا حكم إلا الله —)

ثم لا يكاد يضع الأمر أمامه على هذه الهيئة الهينة حتى يردف تهويته بما ينقضه ، ويكشف عن تمويهه :

« . . . فلنحمل أهل العراق وأهل الشام عليهم فنقتلهم ! . . »

نبت من الناس ؟ .. قلة ! .. فقيم إذن دعوة الأشعث إلى الحل عليهم ؟ .
وكأنما يستشف الإمام خطرا خافيا وراء هذا التهوين ، فيسأل الرجل
مستوثقا منه :

« هل هي غير راية أو رايتين ونبت من الناس ؟ .. »
فإذا هو يؤكد له :

« بلى ! .. »

« دعهم . . . »

بل الصفوة أيضا من صحب على بدوا كأنما لا تسبخ حلوقهم مر الحسرة التي
خلفتها دعوة المهادنة . ركبهم الهم ، وغمرهم الندم ، وجاءوا له يودون لو وسعهم
أن يرجعوه عما أكره عليه ، وقد أنبأهم الحزن أنه لا ينقض العهد ،
ولا يخفر الذمة . . .

يأتيه سعيد بن قيس في مقاتلة من همدان كثيفة عليهم السلاح كأنهم قلعة ...
ويهتف به :

« يا أمير المؤمنين . . . هأنذا وقوى ! . . لا ترادك ، ولا ترد عليك .
فرنا بما شئت . . »

فيجيبه الإمام بهدوء وهو يرمى بعينه إلى جند الشام :

« أما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة لأزلتهم عن عسكرهم أو تنفرد سالفتي
قبل ذلك ! . . ولكن ، انصرفوا راشدين . فلعمرى ما كنت لأعرض قبيلة
واحدة للناس . . . »

ويأتيه أيضا سليمان بن صرد ، وهو يمسح عن وجهه دم جرح غائر كان
لا يزال يشخب منذ أصابه سيف عدوه ذات ساعة من الصباح . . . يقبل سليمان
محسورا يقول :

« أما لو وجدت أعوانا ما كتبت هذه الصحيفة أبدا ! . . »
وينبرى عند ذلك عوز بن جريش ، يضرع في تلهف وإشفاق :

« يا أمير المؤمنين . . . أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ؟ . . .
فوالله إنى لأخاف أن يورث ذلًا . . . »
فيكون الجواب الحزين الذي يسمعانه :
« أبعد أن كتبناه ننقضه ؟ . . . »

ومع ذلك لم يكونوا نبذا — أولئك الذين استشعروا بعد سطر الصحيفة
الندم ، وأسفوا على ما فرط من الاستجابة لدعوة المواجهة . . . ولم يكونوا
أيضا أنبا ذا شق مفرقة ، هنا وهناك بين الأجناد كتفرق السحب البيض على
وجه الأفق في ليل صائف . بل قد كانوا جموعا غفيرة ، وحشودا حمة
ذات قوة وخطر ، سواء أقيست القوى بالثبات والعناد أم بالسلاح والأعداد .
وليس يدفعنا عن هذا الإيمان بكثرتهم أن قد شاء الأشعث بن قيس أن يراهم
قلة ، وأن قد خدع الإمام بتقديره ذاك ، وأن قد خاب ابن صرد أو غيره في
تمسك أعوان يناصرونه بالحرب — قيل سطر الصحيفة — على أهل الشام
ويتابعون معه القتال . . .

كانوا كثرة قبل كتابة العهد ، حين راح الأشعث يلغظ ورجاله بوقف
الحرب والاحتكام إلى القرآن — كما كانوا كثرة بعد كتابته وإبرامه بالشهود
والمواثيق . . . لكنها كثرة توهم بالقلة ، إن جمتهم كلهم كراهة التحكيم
فأقلهم جاهر بهذه الكراهة وأغلبهم كتمها في ذات نفسه حتى بدا التفوق العددي
في جانب أنصار السلم . . . وكانت العلة وراء موقفهم هي الملل من الحرب —
الملل الذي طمس البصائر وشل الأذهان .

ولقد عرف الأشعث حينذاك بدهائه كيف ينقب لدعوته المثبطة أكثر من
ثغرة في صفوفهم تنفذ منها إلى ما اشتهاه . . . عرف كيف يستغل فيهم الوهن
النفسى والإعياء البدني اللذين جرهما عليهما طول القتال . وعرف أيضا كيف
يخاطب في نفوسهم المهطعة إلى الموت حب البقاء . وعرف ثلاثة كيف يلعب بعصبية
القبلية فيتهاقت عليه قومه ، من يمن الشام ويمن العراق . ثم عرف إلى جوار هذه
العوامل كلها كيف يحشد أنصاره ، ويضخم نداءه فلا يرى الناس سواهم
ولا يسمعون سواه . . .

هذه كانت حقيقة الحال ... ما عن إيمان هتف من هتف من جند على لدعوة
التحكيم ، أو سكت عليها سكوتا لاح كالقبول ، ولا عن روية وتدبر في دوافعها
وجدواها ... إنما كان الهتاف — كما كان السكوت — انفعالا انبثق في النفوس
من كراهة الحرب فتداعت له الأبدان المنهكة ، وصاحت به ألسن البغاوات ...
كانوا مسلوبى الإرادة ، لا نظر ولا فكر ، كمن يسير وهو نائم إلى هاوية ...
ثم هزتهم الوثيقة فصحا النوم . انتبه الغافل والذاهل ، سرت فيهم الآن
حميا اليقظة فجاشت القلوب والصدور ... فيم كان هذا الصك المكتوب ؟ : .
كيف ؟ : . بمن ؟ : . ما جدوا عليهم ؟ : . ما غاية القوم من ورائه ؟ : .
ما قصارى الحكيم فيه ؟ : . ثم ، قبل هذا كله ما هي القضية ؟ — ما هي ،
إن لزم قضاء ووجب تحكيم ؟ ...

عشرات من الأسئلة راودتهم والأشعث يقرأ عليهم العهد والشروط .
وعشرات غيرها خطرت لهم وقد خلفهم وهم منظون على عقولهم كالتقواقع ،
يديرون فيها قصة هذا الوليد الأشوه الظني ؟ : . عشرات وعشرات . عجب
وتساؤل والعقول حيرى ، تلف وتدور كالدوامه ، والأكف مضطربة تنقبض
على السيوف ، والنفوس ولهى تتلف على معاودة الحرب ... فما من جواب
معقول . وما من رد حاسم مقنع ، يسكن الفلق ، ويكف التلهف ، ويرخى
الأكف ، ويشبع الفضول ...

حتى قادة الراى من صحابة الإمام قد أعياهم أن يزدوا هذه الحيرة الغامرة عن
الناس . وأنى لهم وما ردوها عن أنفسهم ؟ : . وكيف وهم كغيرهم في غمرة ؟ : ...
هذا سهل بن حنيف ، رفيق صبا على منذ مولد الإسلام ، يعضل به أن يعالجهم
إلا بقوله :

« أيها الناس ... اتهموا زأيكم ... فوالله لقد كنا مع رسول الله يوم
الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا ... »

وهذا الأشتر النخعي — ولى على في الحلو والر ، وحين الرخاء وحين الشدة ..

الرجل الذي ثار كالعاصفة لحظة انبثاق نداء الهدنة — قد هدا الآن . . . ركد كالبركة الآسنة . . . مسه من اليأس ما جمد عاطفته ، وفكره ، ولح عينيه فلاح كتمثال . . . حق عندما عنف بالأشعث وهو يقدم له الصحيفة ، وزار في وجهه فأخزاه ، وحرك سيفه فشل كبرياءه ، كان عنفه عنو لحظة عاد بعدها إلى ركوده ، وقال في تمهات واستسلام :

« قد رضيت بما صنع أمير المؤمنين ، ودخلت فيما دخل فيه ، وخرجت مما خرج منه . . . فإنه لا يدخل إلا في هدى وصواب . . . »

وهذا أيضا على — على نفسه لا يجد لهم عنده غير الملامة على ما فرط . ملامة لا تشفى حيرة ، ولا تكف قلقا ، ولا ترد مصيرا قائما أصبحوا يماينونه من ثنايا الغد المجهول :

« إنما فعلت ما فعلت لما بدا فيكم الخور والفشل . . . »

واقعد قال وأسرف في المقال . . كم قال فأطال ، وقال فأقصر . . . كم حذر وكم بصر فما سمعوا منه . ولا وعوا عنه . . . وها هو الآن ، كمن قبل ومن بعد ، يضرب لهم الأمثال :

« ولقد كنا مع رسول الله ، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما ، وهضيا على أمم الأُم ، وجدا على جهاد العدو . . . ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا . . يتخالسان أنفسهما أيهما يبقى صاحبه كأس المنون ، فمرة لنا من عدونا ، ومرة لعدونا منا . فلما رأنا الله صبرا صدقا ، أنزل بعدونا الكبت ، وأنزل علينا النصر . ولعمري لو كنا نأقن مثل الذي أتيتم ما قام الدين ، ولا عز الإسلام »

ومع ذلك فمنطقة اللأثم يرهف فيهم الشعور بالإثم ، ويؤثر الحسرة ثم لا يكف الحيرة . . . وكيف له . . كيف الإمام الآن أن يشفى داءهم ، هم الذين لم يكفهم أن رموه بالداء بل أراقوا الدواء . . .

ولكنه يصبر : وهل يحيص عن الصبر على النعمة ؟ . . وهل سبيل

إلى الرجوع ؟ . . .

ويتلو عليهم :

« وأوفوا بعهده الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً . . . »

لقد جعلوا ! — غير أنهم حينذاك كانوا مسلوبى الإرادة من وهن الدهن والبدن ، لا نظر ولا فكر ، كمن يسير وهو نائم . . .

٤

ما هي القضية . . .

هذا هو السؤال ١ — السؤال الذى لعله دار بكل خاطر ، وحرار على كل شفة منذ كان ذلك العهد الذى كتبوه ، وما زال يدور ويختار إلى الآن . . . فالذين تهااتفوا بالرغبة فى الاحتكام إلى كتاب الله ، من الفريقين ، لم يفصحوا عن مداره . . .

والذين ترجعوا هذه الرغبة إلى ألفاظ مكتوبة . فيها شروط وعليها شهود ، لم يبينوه . . .

وتلك الصحف ، التى طالعنا مع الماضى الغابر بصور شتى من وثيقة التحكيم ، لا تدلنا عليه . .

وفى عماية هذا الغموض كله ، قد يعسر تلص الجواب الحاسم ، فيبقى السؤال ليفرخ لنا مائة سؤال وسؤال . . .

عشرات وعشرات من الأسئلة تحيط بموضوع القضية كالهالة ، وتدور فى فلكه بلا استقرار ثم لا تبحر تلف وتدور . . .

فما الذى دعا لهذا الإيهام ؟ . . .

هل كان القوم إذ ذاك فى غير حاجة تلجئ إلى الإفصاح والبيان ؟ . . .

هل كانت القضية ، فى رأيهم ، بديهية من البديهيات التى تقابل دائماً بتسليم ينتفى معه نشوء السؤال ولزوم الجواب ، فلا غناء إذن فى النص على موضوعها كما لا تقصير إن أغفلوه ؟ . . .

كأنهم بهم وهذه نظرتهم ! — أم لا فكيف تبرم على شاكلتها وثيقة خطيرة إلا أن يكون المتحاكون جميعاً ، هنا وهناك ، يعلمون فيم التقاضى علما يرقى بهم إلى درجة التثبت اليقيني ، ويرقى بالقضية إلى ذروة البديهيات ؟ . . .

أجل ، ما هي القضية ؟ . . .

ما هي حين نشأت ، وهي إذ ذاك — في حسابنا — ماطمة لا تشوبها ظلال ، واضحة لا تحتل التأويل ؟ . . .

ما هي في حساب هذا الفريق وإنه ، بغير شك ، حساب ذاك ؟ . . .

نعم . . . ما هي بعد أيها وتأويلها ؟ — ما هي من ثنايا خدعة الخادع ومن وراء وهم الموهوم ؟

وما هي — فوق هذا كله — أمس ، وما هي اليوم ، وما هي أبداً في كل جيل تغنى فيه الحقائق عن الوثائق ، وتهتك الوقائع عمارة الأباطيل ؟ . . .
يضرع أهل الشام ، عندما نهكتهم الحرب ، وأكلت عظمهم ودمهم ، وهم يرفعون للصاحف :

« يا أهل العراق . . . كتاب الله بيننا وبينكم . . . »

ويستجيب للضراعة من استجاب ، في البدء ، من رجال العراق ، فيكون المئات الذي يلحون به على الإمام :

« أجب القوم إلى ما دعوك إليه . . . »

كانوا يعلمون أنهم أسرفوا على أنفسهم ، كما أسرفوا على عدوهم ، بهذا القتال ، فإن تكن نجاة مما وقعوا فيه ، فبكتاب الله . . . كانوا يحسون هذا من قبل أن ترتفع لهم مصاحف الشام ، سواء منهم المنافق ، وعبد عمره ، وسواء المؤمنين والمخدوع . . .

ويزيد الإلحاح . . .

وتبتدر الأقوال في صور شتى من للشورة والمناجحة . ومن الإكراه والإملاء . . .
فشقيق بن ثور يقول :

« إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا فقاتلناهم عليه . وإنهم

دعونا إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم . . . »

وسعيد بن قيس يقول :

« ... لم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم ، ولا أهل الشام إلى شامهم بأمر أجل من أن يحكم بما أنزل الله ... »
والأشعث يقول :

« ... أجب القوم إلى كتاب الله ، فإنك أحق به منهم ... »
وكثرة غيرهم ، قبلهم وبعدهم ، على اختلاف في اللفظ ، واتفاق في الدعوة ...
ومن خلال لفظهم وتناديهم لم يمل واحد منهم إلى موضوع الاحتكام فيفصح عنه بكلمة واحدة تجلوه ، وتهتك غموضه إن كان فيه ما يستحق منهم الجلاء والتبيين .
بل الشام أيضا جرت على هذه الجادة التي يخالها المرء لأول وهلة فضاء فارغا بلا معالم كتيه الصحراء وما هي كذاك ... إن سيدها يملن عن القضية فلا يجيء في إعلانه بجديد ... وإن مشيره يتناولها فإذا حديثه عنها نفس ذلك الحديث الذي تلوح به غموضا من الغموض ...
يكتب معاوية إلى علي :

« ... فهل لك في أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة ، وصالح للأمة ، وحقن للدماء ، وألفة للدين ، وذهاب للضغائن والفتن ؟ — أن يحكم بيننا حكان رضيان ، أحدهما من أصحابي ، والآخر من أصحابك . فيحكان بما في كتاب الله بيننا ... »

ويكتب كذلك إليه عمرو :

« ... إن ما فيه صلاحنا والفتنا : الإجابة إلى الحق . وقد جعلنا القرآن حكاما بيننا ، فأجينا ... »

وحق الإمام ، رب البيان والتبيين ، لا يفصح أيضا عن القضية ذلك الإفصاح الذي يحسبه بعض الباحثين لازما كل اللزوم لإبراز موضوعها مكشوفاً عجولاً يقطع الحدس والتساؤل ... فهو يكتفي حين يلح عليه رجاله لقبول التقاضي بأن يقول :

« ... أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه . وليس يحل لي ،

ولا يسعى في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله . . . إني إنما أقاتلهم ليدِينُوا بحكم القرآن . . . »

وهو يكتبني حين يجيب معاوية بأن يكتب إليه :

« ... إنك قد دعوتني إلى حكم القرآن - ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن ، ولست حكمه تريد - وقد أجبتنا القرآن إلى حكمه ا ... »

كلهم إذن أبهموا — كلهم ، من هذا الفريق ومن ذاك ، كما قد يبدو للنظرة العابرة التي لا تتعمق الأمور فلا تنفذ إلى الأصول والجذور ... وبمثل إبهامهم «الجماعي» جرى ذلك العهد الذي كتبوه ، وشرطوا فيه ، وأشهدوا عليه الشهود ليكون موثقاً وحجة ...

تقول وثيقة التحكيم :

« ... إنا راضينا أن نزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر ، وأنه لا يجمع بيننا إلا ذلك ، وإنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكماً فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته ... »

كتاب الله هو الحكم ...

والقضية هي الخلاف ...

أما ، « ما هو الخلاف ؟ » فلا تفصيل ...

لا إفصاح ! ...

بل إجماع على الإبهام أيما إجماع ! ...

أجل ، فكلهم أبهموا ! — كلهم : الوثيقة ، وأولئك ، وهؤلاء ...

* * *

لقد يعسر ، في عمارة هذا الإبهام كله ، تلمس الجواب الحاسم الذي يبين لنا جلية القضية ، فيبقى السؤال عنها معلقاً بلا جواب ، أو يفرخ عشرات من الأسئلة وعشرات ، أو تتنوع الأجوبة عليه بتنوع الظنون والأخلاق ...

قد يحدث هذا مع النظرة العابرة التي ترى الحائقة وتغفل المقدمة ، ومع الرأي العجول الذي يلتقف ما يحمل الزبد ولا يتقصى ما تضم الأصول ، ومع الهوى حيث سرح وانساب ! ...

إته حقاً إبهام — إن جاز لنا أن نسمى الأمور بظواهرها دون ألبابها ...

وهو حقا إبهام — إن جاز أن ننساق وراء رأى يرى الغناء كل الغناء
في استخلاص المعاني من منطق الأشخاص دون منطق الحوادث ...
وهو حقا إبهام — إن جاز أن نغمض العين عن هذا « الإجماع على
الإبهام » ولا نحاول أن نتبين دلالة هذا الإجماع ...
أجل ، لا إفصاح ..
ولكننا نقول : لا إفصاح لأنه لا إفصاح عن معلوم ١ ...

٥

« لا إفصاح عن معلوم ١ ... »
هذه هي الحقيقة الثابتة التي ينبغي عنها ذلك الإجماع على الإبهام ، وتنبثق لنا
من منابع الحوادث ، وتتكشف أمام الاستقراء السليم ...
هذه هي ١ ... بها تنتهك عماية الغموض ، وبدونها يتزعج كل رأى ، وعلى
غير هديها يبطل أى تمثيل قد يجري به مرة منطق هذا الفريق ، ومرة ثانية
حديث ذاك في معرض المجادلة والتدليل ...
إنها مفتاح سر التحكيم ١ ...
فالقضية جلية ، بديهية من البديهيات التي تقابل دائما بالتسليم دون حاجة
إلى سؤال وموجب إلى جواب ، لأنها من الواضوح بحيث تغنى عن النص عنها
ولو بالإشارة المختصرة مع المبالغة في الإسهاب ...
جلية في ذهن طى ، وفي خاطر معاوية ، وفي أخلاق أولئك وهؤلاء من
الأنصار والأعداء على السواء ، وإن شابتها على الأيام أدران شق من التعليل
أو التأويل ، ومن التأويل والأباطيل ...
جلية بغير خلاف ، لأنه خلاف قط طى « موضوع الخلاف » ١ ...

من اليوم الأول الذي آلت الإمرة فيه لعل ، نشب ذلك الخلاف بين الرجلين

ولأنه لمفترض قبل أن تبدو بواكيره ، ذائع شائع بعد أن فرع واستطال ، يعرفه الناس هنا وهناك ويعرفون دواعيه . . .

ما من مسلم عاصر هذه الحقبة من التاريخ ، عربيا كان أو غير عربي ، وما من فرد ألم بأمر الأبناء وسير الآباء ، وما من باحث رد للظهور إلى العلّة والتأج إلى الأسباب إلا قد تبين عن يقين : لم ، وعلام ، وكيف دب الخلاف بين الرجلين اللذين نماهما أصل واحد ، وشاءت القادير أن يتجاوزا سيادة الدولة الناشئة ومسير الإسلام .

أما ما هو الخلاف ، وما هي دواعيه فليس أباح في تعريفها جيمًا من إجمالها في عبارة : « التنافس على السيادة » . . . ذلك للتنافس الذي ولد مع الآباء ثم انهدر — جيلا جيلا — في أصلاب الأبناء . . . وحين نكسر إلى الماضي نجد عنة نفسية امتحن بها بنو عبد مناف فشطرتهم شطرين ، وأوقعت بأسهم بينهم ، مرة منافرة يسوقها التفاخر ، وأخرى خصومة . . . الحسد ، وثالثة حقدا عن ترة ، ثم لا تزال المحنة تنتفخ وتنتفخ حتى تنفجر حربا مدمرة تكاد تأكل الخصوم والأولياء . . .

وندع جانبا ما وقع بين الآباء من فرعي هاشم وأمّية من الخصومة فأمره غير منكور ، ونعرض في إيجاز للخصومة الجديدة بين السليين : طي ، وابن أبي سفيان . . .

لم كانت ؟ . . . وعلام ؟ . . . وكيف والإسلام قد جب تراث الجاهلية وأمر أن تذاب في سماحة تعاليمه ؟ . . .

وراء هذه الأسئلة كلها : « النفس البشرية » بما جبلت عليه من نوازع منحركة قد يشذب الدين من أطرافها ، أو ياطف حديثها ، أو يداريها جملة إلى حين ، ولسكتها — إلى هذا — تظل منظوبة على ضعفها ، أو على بقاياها ، وهي تستمهل الزمن حتى تسنح لها فرصة موأية ؛ وعندئذ ترفع رأسها ، وتنفض غفوتها ، وتسعى سعيها الوخيم الوبيء . . .

وكانت فرصة معاوية مصرع عثمان .

كانت هي الثغرة التي يستطيع أن ينفذ من خلالها إلى دنيا النفوذ والسيادة ، ومن أمامه حلم آباءه بخياله ، ومن ورائه رواسبه النفسية تدفعه وتحث خطاه . ولقد ساعده على اعتبارها أنه كان تواقا للمجد لم يقعد يوما عن طلبه ، ولم يقنع بما بلغ في الدولة الناشئة من شأن فنوع غيره من الولاة والعمال بل كان يعمل ما وسعه وما أمكنته الظروف على توفير عوامل القوة لنفسه حتى قبل أن يصرع عثمان وقبل أن تمتلئ القلوب والأذهان بالسخط على سياسته . . . وساعده أيضا على توفير هذه القوة المرجوة أنه تفرد بحكم الشام عشرين عاما طويلة لا يكاد يرجع عليه في أمرها بشيء ، وأن أخاه يزيد عمل عليها عامين قبله فكانت بهما تحت حكم أموي خالص منذ دخلها الإسلام .

أجل كانت الشام في حساب الواقع دويلة مستقلة منقطعة من الدولة الجديدة ، وفي حساب معاوية ، وكثرة غيره ، والظروف السياسية التي لازمتها ، أرضا أموية ، مع تفاوت صغير أو كبير في درجات التقدير . فهو الذي كان يقيم من قبله على أقسامها العمال ، وهو الذي كان يكتز من مالها ما جمع لديه ثروة ضخمة يحسك منها أو ينفق إذا شاء ، وفي الأوجه التي يختار ، مخالفا بهذا السياسة العامة التي كانت إلى ذلك الحين تجري على سنة تقسيم المال في الناس . هو الذي شهدناه يتخذ الجند والأحرار على نحو يقارب ما نعرفه الآن في الجيوش النظامية الحديثة بينما بقية الأمصار ، وعاصمة الدولة نفسها ، لم تكن تعرف هذا النظام .

جاءت إذن الأيام لمعاوية بفرصته ، وأعد الرجل لهذه الفرصة للنتظرة فأحسن الإعداد ، فما له لا يقدم ولا يقتحم وكل الدلالات تكاد تهديه إلى نجاح مضمون . . . في الحق أعد ، وعمل ، وثابر . . . لم يكن الحامل القاعد الذي يحلم . ولم يكن النهاز الذي يغامر بغير أسناد ولا إعداد . فلقد رنا كما برنو كل متطلع لهدف ، وعمل كما يعمل بناء الدول وليس ببخسه قدرته في هذا السبيل التواء الوسائل أو اعتساف الأعاليل . ومع ذلك فقد كان « حاذقا » وهو يروض أساليبه على الالتواء نحو غايته ، « كياسا » وهو يسوق التملات والأسباب التي كانت ذرائعه

حق بدا — في أعين الكثيرين — كالحق النصف ، وبدا خصمه كالمبطل للتحيف .
ومن ثانيا هذا الخدق وهذه الكياسة نستطيع أن نستشف الصورة الحقيقية
للخلاف بينه وبين علي وهو موضوع القضية الذي لم تنص عليه وثيقة التحكيم .
على نحو ما كتب الإمام — عند استخلافه — إلى عمال الأقاليم ، كتب
أيضا إلى معاوية يطلب بيعته :

« . . . قد علمت إعداري فيكم ، وإعراضي عنكم حتى كان ما لا بد منه ،
ولا دفع له . والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أدبر ما أدبر . وأقبل
ما أقبل . فبايع من قبلك ، وأقبل إلى في وفد من أصحابك . . . »

للبيعة — الطاعة للرئيس الشرعي للدولة هي كل ما كان يطلبه علي ، يكتبه
ورسله ، من معاوية . ورد البيعة ، أو العصيان في كتمان أو إعلان ، هو جواب
معاوية ، في صمته ، وبكته ، وعلى ألسن وفوده ، إلى علي . ولم يعدم أبدا في أية
مرة ذريعة تسند عصيانه أو تلفه في علة مقبلة . . . تظهره أمام أنصاره غير
جانح إلى العصيان ، وتدفعه خطوة إلى الأمام نحو غايته وهو آمن كل الأمان أن
تزل به قدمه أو يفشل تدبيره . . .

كذلك أعد معاوية في تودة ، وخطا على مهل . لم تغره قط مقومات القوة
التي توفرت لديه كما لم تتوفر مثيلاتها لعامل آخر . لم تغش عينه الرواسب النفسية
التي راكمها الزمن والوراثة بعقله الباطن فيندفع في تيارها يتخبط على غير هدى
تخبط الخفاش في وهج النور . لم يقفز — مسرفا في التفاؤل والاعتداد — إلى
غايته . . إنما راح يتحسس طريقه فترا فترا ، وشبرا شبرا ، وهو يزبل ما يعترضه
من العقبات — صابرا مثابرا — حجرا حجرا ، بل حصاة حصاة ! . . . وعندما
تتعقب « العلة الكبرى » التي أصبحت مجازة إلى الإمرة للرجوة ، لسوف يدهشنا
كل الدهشة ألا نجد لها بين تملاته منذ البيعة لعل وحق بدء صفين ! . . .

كانت علته الكبرى ذلك الادعاء الصارخ الذي رمى به الإمام ليبيده للناس
والتاريخ قاتلا لمئان تلطخت يدها بدمائه . كانت هذه التهمة الشنعاء المختلفة هي
العلة التي توارى خلفها حينما ليتحلى بها من الطاعة المفروضة عليه نحو الرئيس

الشرعى للدولة . ومن التزام جماعة المسلمين إبقاء على وحدتهم . فمضى ابتدعها؟ . .
وأي من ذرائعه الشقى التى اتخذها مرة بعد مرة لتتفى عنه معرة السعى على
أشلاء وحدة الأمة كلنا بتحقيق أحلامه وبلوغ مأربه الخاص ؟ . .

الواقع أن معاوية لم يحاول قط فى مستهل خلافة الإمام الخروج على الأئمة
باتهامه البطل الجرىء ، لا عن تخرج وتلوم ، بل لأنه لم تكن ثمة تهمة فلم يكن
إذن موجب للاتهام . فهو عليم بسير الحوادث وتطور الفتنة التى أدت لمصرع عثمان
علما يضع عليا على رأس الدين دافعوا عن الشيخ إبان محنته وكفوا عنه أذى
الثوار . ولكنه حين رأى عائشة والزبير وطلحة ينهضون بحجة الطلب بدم
الخليفة القتل شام فى دعوتهم عاملا جديدا من عوامل القوة التى يستطيع بها
تحقيق سيادته . فالخلاف بينهم وبين على حقيق بأن يلقى بينهم الدماء والترات ،
ويضعف حزمهم جميعاً . ويوهى تلك السيادة التقليدية التى للحجاز على أقطار
الإسلام . ثم هو بعد هذا كله كفيل بأن ينال بالشبهات من سمعة الإمام : خصمه
الذى لا منافس سواء يؤبه لخطره أو بحسب له حساب .

لهذا سكن الرجل إلى شامه ، فى بدء تمرد عائشة وصاحبها ، يشهد ويتربص
دون أن يؤيد جانبهم تأييدا فعليا بقوة الجند والسلاح . لم ينغمس فى الصراع
الجديد انغماسا جديدا كما كان ينتظر منه أن يفعل ، بل أثر انتهاج خطة مائنة
أوشكت أن تكون سلمية ، وأوهك بها أن يكرر نفس خطته عند اضطراب
الأمر واشتدادها على عثمان . فما زاد عن التجمع على القتل ، والتحدث عن
فداحة الخطب فيه ، والقول المرسل بأنه مظلوم . وإذا كان قد كتب إلى الزبير
باليعة وإلى طلحة بولاية العهد بعده ، فلقد فعل وهو يعلم أنما بيعته للرجلين
ليست سوى الوقود الذى يشغل حماسهما ، ويدفعهما إلى الخروج بالدعوة من
نطاق الكلام إلى نطاق التنفيذ فتقع الحرب ، ويضمف الفريقان وهو وحده ،
من بعد ، القوى المكين الذى يسمه — فى سر — السيطرة على مصائر الأمور .
معاوية إذن لم يتهم عليا — فى الأشهر الأولى من خلافته — اتهاما صريحا
بقتل عثمان . ولا هو أيضاً اتهم أحداً بعينه من الناس . إنما كل ما جرى به قلبه
أو لسانه فى تلك الفترة كان قولاً مرسلًا بغير تحديد ، مبهما بغير تصريح . . .

هو حقا — كما شهدناه — بعث إلى طي ، بعيد استخلافه بشهرين أو ثلاثة ، برسالة مع رسول ، فارغة إلا من « بسم الله الرحمن الرحيم » ولا عبارة سواها تضيء خافية صدره وتكشف حقيقة نواياه . وهو ربما أباح رسوله الإفاضة في الحديث عن سخط أهل الشام ، وقوتهم ، وتحفزهم الظاهر للأخذ بثأر عثمان ممن خلفه على إمرة المؤمنين ... ومع ذلك فلسنا نملك ، عندما نستشف الظروف الملائمة إذ ذاك ، إلا أن نرى ابن أبي سفيان قد أراد أن يساوم ويشغب في آن . . .

أما الرسالة الفارغة فالإمام منه — فيما نحسب — إلى اتهاجه مؤقتا خطة سلبية مع الخليفة الجديد ، لا إلى موالاته ولا إلى معاداته ، حتى يندوق أمره ، ويستيقن سياسته ، ويستوثق لنفسه منه . ولعل اتخاذه جانب الحياد ، أو ما يشبه الحياد ، من بعد في حرب الجمل ، فيه ما يوصي إلى هذا الإلماح . . . والرسالة الفارغة أيضا إن حملت معنى التسلكو عن البيعة بالإمارة لعل فهي ليست بالدلالة الواضحة على إنكار حقه إنكارا قاطعا حاصما في البيعة . وهي بهذا قد يمكن اعتبارها « هدنة » تفسح الوقت للتفاهم ، أو « دعوة صامتة » من معاوية إلى علي بمعاودة النظر فيما قر عليه عزمه من خلع صاحبها عن عمله بالشام .

وأما حديث رسوله فله ؟ كما يبدو ، هدفان : أبعدهما أن يعلن للأمة أن دم عثمان لن يطل وإن عز خصومه ، وإن داهنتهم المدينة ، وإن خافتهم كثرة رأت سلامتها في الاعتزال . ومن وراء هذا الإعلان لاريب توجس الخصوم واستعدادهم . وتحجز للمعتزلة ومن يتابعهم للنهوض في الطلب بالدم ؟ ووقوع الفتنة بين الفريقين بما يفسد الأمر على الإمام . . . وأقربهما تهديد على نفسه بنفسية كامنة ، وراءها أكدها من السلاح والرجال ، لا يستطيع أن يكف غلواءها عنه سوى صاحب الشام . ولعل إذن الخيار بعدهذا ، لو شاء خلع العامل القادر ، ولو شاء أبقاء . . .

هذه هي قصة الرسالة الفارغة التي أقبل بها رسول معاوية من دمشق بعيد البيعة للإمام في المدينة بنحو ثلاثة شهور . وهذه دلالاتها وعبارتها لا تحمل اتهامات صريحة لعل يقتل عثمان وإن حملت « إرهابا » و « فتنة » و « هدنة » و « دعوة صامتة » إلى العدول عن عزل معاوية إلى إبقائه على عمله ، وعن معاداته

إلى تألفه . وقد عا تألف رسول الله معاوية بالعطاء بعد غزوة الطائف ، فما لابن أبي طالب لا يتألفه اليوم بالعمل ؟ . .

على هذا النحو « للائع » جرت سياسة ابن أبي سفيان صدر خلافة الإمام ، لا تقطع ، ولا تبت ، بل تلف وتدور ولا تكف عن التلف والدوران . كانت مشبهة ، مهزوزة للامح ، مختلطة القسجات . وعلى ما أكثر معاوية الخوض في قتلة عثمان فإنه لم يوجه تهمة القتل للإمام . وظل هكذا حتى بعد أن فرغ على من الجمل ونهياً للزحف إلى الشام . واصل في حديثه مع جرير بن عبد الله رسول على ، حين جاءه يطلب بيعته ، ما يؤيد الذي نراه . . .

يقول لجرير :

« اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية — فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعته في عنقي — وأسلم له هذا الأمر ، واكتب إليه بالخلافة ... »

وكتب جرير :

ولقد صدق الإمام عندما رد على رسوله يقول : « أراد أن يرثك حتى يذوق أهل الشام » . . . فالذي حدث فعلاً هو أن معاوية بدأ بعد هذا يتهم عليها علانية بالقتل ، لا يتلوم ولا يتحرج . وقد مالاه عمرو بن العاص وحرصه ومضيا يدهسان مما على رؤساء أهل الشام من يلصق التهمة بالإمام ويقيم عليها الشهادة الباطلة . حتى إذا عرف أن الدس قد جاز ، راح يتهم باجترأ . وبعد أن كان يقول : « إني ولي عثمان وقد قتل مظلوما » — وسعه أن يفترى فيقول : « إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعته على ، وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان . . . » . . .

وهكذا ولدت التهمة . . .

وهكذا ابتدعت العلة التي تحسب طائفة أنها مبعث الخلاف بين معاوية والإمام ، ابتدعت بعد الخلاف نفسه بشهور . . . فهل من نتيجة تسبق المقدمة ؟ وهل من معلول يسبق العلة ، إلا في منطق ابن أبي سفيان ؟ . .

مهد معاوية للتهمة كأبرع ما يمكن أن يعهد لتهمة زائفة مختلفة لتبدو صحيحة مشروعة . وماله لا يفعل ؟ .. إن مقتل عثمان ، لا ريب ، هو « المجال الحيوى » الذى تستطيع أن تتنفس فيه أطماعه . وهو وسيلته لما يريد . وهو أيضا الألوان الزاهية البراقة التى يسهل رسمها فى صورة أحد أبطال اللوآت فى التاريخ . . . ولقد نجح معاوية حيث كان خيرا أن يفشل ، فإذا نجحاه ينزل به فى اعتبار الأخلاق . وفشل على حيث كان خيرا أن ينجح ، فإذا فشل يعلو به فى اعتبار الفضائل . ولئن قيل إنه لم يصابر ظروفه حتى تسعفه ، ولم يدأورها مداورة السياسى المرن بل تعجل خلع خصمه فأثار خلافه ، وحرك عداوته فى وقت كان أحوج فيه إلى تألفه واستصلاحه — إن قيل هذا احتجاجا على قلة قبوله إذن غلو فى اعتساف العملة ، والقائل به إذن مبالغ فى العدل . ولئن عدل واعتل أن يرينا كيف كان على الإمام أن يعالج الأمور إبان ثورة عاتية أول أهدافها اجتثاث عثمان وولايته وقلب كل ما ابتدعه من أوضاع ؟ ..

نجح معاوية وفشل على ومن وراء النجاح والفشل عوامل شتى : نفسية وخلقية ومادية ، أصيلة وطارئة ، سبق بيانها ولسنا بحاجة إلى تكرارها والاحتجاج فيها إن بالإيجاز وإن بتفصيل . . . وكان النجاح نكسة كما كان الفشل نكسة إذا ما حسبنا النتائج بأسبابها الأولية الأصيلة ولم تحسب بالعوامل الطارئة والدخيلة . . . ولكنه على أى حال نجاح قفز بآبى سفيان إلى إمرة الدولة بعد أن كان قد أعباه أن يظل واليا على الشام . وما يعنيننا الآن أنه خالف ونجح بقدر ما يعنيننا كيف خالف ، كيف تذرع لهذا الخلاف ، كيف « طوع » طمعه فى السيادة حتى غدا تهمة — أو بالمبارة الرقيقة ، « حجة » مقبولة — أقنع بها أصحابه ، وما تزال إلى اليوم تجد من الناس ، بين قارئ سيرته والباحثين فى تاريخه ، من ينصره بها ، أو يراها الأساس الحقيقى للصومعة بينه وبين على ، أو يعتبرها — بأرفق رأى — لعبة سياسية بارعة يحسبها له ولا يحسبها عليه . . .

والظاهر الذى لا نراه خافيا عن العين الفاحصة هو أن الرجل قد عاش صدرا من خلافة الإمام دون أن يلهم التهمة التى اتخذها من بعد مطية لآرابه ، أو على الأقل دون أو يجاهر بها إن كان قد ألهمها فى ذلك الصدء الذى ذكرناه . ولعل خياله المبدع وبديته الخلاقة لم يسعفه إذ ذاك . ولعله تخرج وتلوم . ولعله خشى أن ينقلب عليه كيدى إن هو انساق مع هواء وخامرت الناس ظنة فى حقيقة نواياه .

على أننا ندع ماقد عساه دار بضميره لتتابع ما كان يجريه فعلا — تلك الفترة — بسن قلعه وعلى طرف لسانه . . . فماذا نجد ؟ . . . علام تقع فى بيانه المنطوق وبيانه المكتوب ؟ . . . ما هى الأسناد التى تغنيها الغناء كله عن التعلل والافتراض ؟ . . . هنا نجمل فنقول : إن معاوية قد أقر على نفسه ، قرابة ثلاثة أشهر ، بأن عليا « لم يقتل » عثمان .

وهذه هى أولى الحقائق التى تنطق بها شواهد الحال ويفصح عنها بيان للقال . وهى كذلك الحجة الداحضة لحجة معاوية للمعتسفة حين أعوزه من بعد تبرير مخالفته عن على بغير التعلل بأنه « قتل » عثمان .

فالبدى أن التهمة — أى تهمة — وجرمها يتلازمان . والبدى بعد هذا أن الجرم ، لو كان قد وقع من على . انقضت التهمة إلى على فى الحال ، وانضحت بها وأفصحت عنها أحاديث معاوية وخطبه وكتبه التى تعاصر الصدر الأول من خلافة الإمام .

لكن « تهمة القتل » التى ألصقت من بعد بعلى لم تلازم جرمها عند وقوعه ولا تفسير لافتراقها عنه إلا أنها لم تنبعث منه ، بل انبعثت من خارجه . فمن انبعثها إذن ، ومن أين كان ؟ .

بعد أشهر من المصراع ، ومن داخل معاوية ولا جواب غير هذا الجواب ١ من داخل معاوية انبعثت التهمة للمعتسفة . من دواعيه النفسية التى سيطرت طويلا عليه ولم تزل به حتى دفعته ، بأهون تعبى ، إلى إشباع نزعة طموحه وكلفه بالسلطان . وحين تتمقب المخالقات البيانية للعاصرة ، التى تركها لنا ابن أبى سفيان

في هذه الفترة ، سيظهر لنا أنها « فارغة » لا تحمل التهمة نصا ، ولا تشير إليها ولو بالإشارة العابرة ، لا من بعيد ولا من قريب . . .

ففي أول كتبه إلى الإمام لا يقابل البيعة بالرفض ولا بالإقرار ، ولا يذكر التهمة ، ولا يكاد يخط في رقعة طوماره سوادا في بياض . . .

وفي دعوته عمرو بن العاص ، إذ شاء أن يستعينه ، يشير إلى مقدم جرير عليه في بيعة على ، ثم يخائله بالمغم إذا لباه : « .. أقبل إذا كرك أمورا لا تعدم صلاح مغبتها . . . » ولا شيء بعد هذا أو قبله ينم عن اتهام أو خيال اتهام . . .

وفي بيعته للزعومة للزير وطلحة ، لا نكاد نلمح إلا تحريضا على فتنة وقودها منافسوه بمن أهلهم — دونه — سابقهم ومزايام لإمرة المؤمنين ، وغايتها التي داعبت خياله القضاء عليهم ، أو تجريدهم ، في القليل ، من قوام ليصبح وحده ولا منافس ولا نظير في الميدان . . . فهو يشيرهما على الإمام ، ويرسم لهما — وهو قاعد موفور آمن — خطة العمل وسبيل السير دون أن يعمل أو يسير :

« ... دونكما الكوفة والبصرة لا يسبقكما إليهما ابن أبي طالب ... » . . . وهو يدعوها إلى الالتفاف حول العلم المشترك الذي رفاه ، أو رفعت صاحبتهما عائشة قبله : « ... أظهرنا الطلب بدم عثمان . وادعوا الناس إلى ذلك » ، ولكنه لا يقول بمن الطلب ، ولا أين ثأر عثمان في الناس . فإذا علمنا أن أم المؤمنين وصاحبها كانوا يرون دم القتل إذ ذاك في الثوار الذين أجلبوا عليه ، وأنهم توسلوا لاختلافهم على الإمام — في أبلغ ما توسلوا به — بتريشه عن القصاص حتى تهدأ الثورة ، وتقر النفوس ، وتستبين الأمور . . . إذا علمنا هذا ، وضع لنا في غير خفاء أن « تهمة القتل » التي شاء معاوية من بعد إلصاقها بعلي لم تكن ، حتى هذه اللحظة ، قد ألهمها خياله للبدع أو صاغتها بديهته الخلاقة . . . ونعود فنسأل : متى إذن اختلقها صاحب الشام ؟ .

بعد للمصرع بأشهر كما أسلفنا ، وبعد مقدم جرير عليه في البيعة أيضا بوقت طويل : وبعد أن تمت حيل معاوية في مساومة على لإقراره على ما في يديه على أي حال . . .

وهذه حقيقة ثانية جديرة بالاعتبار ، تظهر الرجل لنا متجنبيا في اتهامه الإمام .
أجل . فلقد تردد معاوية منذ البدء في رفض البيعة التي كان عليه أن يؤديها
اتباعا لرأى المهاجرين والأنصار ووفود الأقاليم ومن بعدهم عمال الأمصار الذين
بائعوا عليا بالإمرة بعد مصرع عثمان . تردد ، أو على الأقل آثر على الرفض
الصريح الحاسم عندما قد بيديه في هيئة للتربيت ولا بيديه في هيئة المخالف الذي
يعلن العصيان . وهو بهذا ابتدع نوعا من الهدنة أجدى على غرضه جميعا :
غرضه البعيد وهو الإمرة ، وغرضه القريب وهو الاحتفاظ بعمله على الشام . . .
ولعلنا لا نخطئ إذ نراها « هدنة مسلحة » يسندها تهديده بالجند والعتاد ،
ثم نراها كذلك « هدنة مشروطة » توسع للمساومة ، وتفتح الباب أمام على
للمدول عن خلع ، تألفا له ، واستصفاء لودعه وبأسه . وما كان معاوية بالخاسر
على أى حال لو أنه فاز بأدنى غرضه . ففي إقراره على الشام دون بقية ولاية
عثمان ، وفي إلحاق جباية مصر به ، ما سوف يمدد بمزايا معنوية ومادية خطيرة
تزيد في تدعيم مركزه الحالي ، وهو عندئذ ، في رأى الكثرة وفي نظرة الواقع
بلا جدال ، الرجل الثانى في الدولة . وهى لا شك مزايا كفيلة بأن تظفروه بإمرة
للمؤمنين خلفا لعل لو صلح ما بينهما وأخلص هو النية في الولاء ، كما هى كفيلة
أيضا بتحقيق ظفروه معجلا إن أبى إلا النكث وآثر الشغب والانتفاض .

والأدلة على انتهاج الرجل سياسة المساومة في تلك الفترة كثيرة ، ليس أبينها
طوماره المنارغ — الذى استهل به ، فيما نرى ، عهد التلبت أو الهدنة للشروط ،
والذى قد يعتل عليه بأنه أداة تأويل وما هو بدليل . ومع ذلك ففيما نقلته إلينا
الأخبار والآثار ما يغنيننا عن التعلق بالطومار . . .

ففي حديث جرير إليه ما ينبىء عن اشتراطه للبيعة شريطة هى بقاؤه على
عمله . . . يقول له جرير :

« ... فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس . فإن قلت : استعملنى عثمان ثم لم
يعزلنى ، فإن هذا أمر لو جاز لم يقر الله دين ، وكان لكل امرئ ما فى يديه ... »

وفي مقاله هو لجريز : ما يغنى عن الاستفتاح والتأويل إذ يقول باللفظ
السافر الصريح :

« . . . يجعل لي الشام ومصر جباية ، وأسلم له الأمر ، وأكتب له
بالخلافة . . . »

بل لقد قر في الأذهان أن الرجل مثنى للبيعة ثمنا لا يعدل عنه ، هو عمله .
قر هذا من قبل مقدم جريز عليه بكثير ، ومن بعد مقدمه بكثير ، وشفت عنه
أعداد من النصائح والأحاديث . فالخبرة ، بدء خلافة الإمام ، ينصح لعل بأن
يبقيه على الشام . وابن عباس يشير بمثل نصحه . وأشباههما كثيرون ينصحون
ويشيرون وقد علموه لا ينهض في شيء مما أو هان إلا أن يكون له من وراء
النهوض فيه نفع أو — بعبارة السوم والمتاجرة — « جمل » حتى ولو كان هذا
الشيء دم عثمان . . . وصحب لعل أيضا يشيرون به ، بعد استقراء الخلاف وإراقة
بعض الدماء في صفيين ، فيقول منهم قائل ، والإمام إذ ذاك يستفسرهم لاستفتاء
الرجل إلى الحق والطاعة :

« ألا نطمعه — يا أمير المؤمنين — في سلطان توليه إياه ومنزلة تكون
به له أثره عندك هو بايعك ؟ . . . »

ثم تفشل سياسة المساومة ، فماذا يكون ؟ . . .

لا شيء إلا أن يقتل على عثمان . . .

وهذه حقيقة ثالثة ، أو حجة الحجيج التي تذرع بها معاوية للنيل من علي ثم
بلوغ أربه في السلطان .

فلقد استنفذ حيله في الفوز بأصغر غرضيه عن مصالحة وتراض ، ولا معدى
له إذن عن الخلاف ليدراً العزل عن نفسه . . . فما عليه لو خالف في سبيل
هدفه الأكبر ما دامت ثمة عوامل معنوية ومادية تهيأت له ، وما دامت
« التهمة » سوف تبديه في أعين الناس مناضلاً عن هدف عام لا متهاكاً على
مأرب خاص ؟ .

ولكنه — تحوطاً وحذراً — لم يفاجئ الناس بالتهمة في صورتها النهائية
الكاملة ، فهدم به لا يعرفها ولا ادعاهها وكانت أمامه الفرصة سانحة للدعاء والالتمام

إثر مصرع عثمان أو عقيبة بأيام قليلة . إنما مضى بينها حجرا حجرا ، ويطورها طورا طورا ، ويقطرها قطرة قطرة في الأذهان . فلما أن اكتملت ، وتخلقت تخلق الهوام الحفيرة يرقة ففيلجة فمذراء فحشرة ، راح يحط بقدرها على سممة الإمام . . .

فلعل قائلا يقول : إنما تلبث معاوية هذه الشهور بعد مقتل عثمان ليستقصى ويستيقن لا يطور ويقطر ، فلما تثبت اتهم ولا جناح إذن عليه في التلبث بالاتهام . . . وهنا يسعنا أن نقول : وفيه التاب الاستقصاء ، وما قصاره وجدواه إلا الإعداد لباطل أو التذرع بمحال أو بما يكاد يشبه المحال ما دام للصرع قد كان على ملأ ولم يكن خفية ، وما دام القتلة — كما هو معلوم من اللحظة الأولى — كانوا فريقا من الثوار إن اختلفت في أسمائهم الروايات فليس منها على على أى حال ؟ . . .

ونكر ثمانية إلى تخلق التهمة المفتراة بعد مراحل وأطوار لنعلم ما هي الأطوار . . . مع ما نسلم به من تفاوت بين الروايات التي تنقل لنا تاريخ العرب عامة وتاريخ هذه الحقبة الخاصة ، ومع ما يغلب عليها عادة من اختلاط بعضها ببعض ، وتداخل بعضها في بعض تداخلا واختلاطا يصعب معهما التوقيت لهذه الروايات وترتيبها الترتيب الزمني للمستقيم الذي يجعلها ثبنا آمينا لتعاقب الحوادث — مع كل هذا التفاوت والاختلاط والتداخل ، لا يعجز العين الناقدة ، وهي تعرض الخطب والكتب والأحاديث للعاصرة للأشهر الأولى من خلافة الإمام ، أن تقع فيها على حقيقة هذه التهمة ، وأن تتعقب في نصوصها ومعانيها على السواء قصة مولدها ، وأطوار نموها المختلفة طورا طورا من قم معاوية ، وبين أسطره ، وعلى لسان أخص حلفائه ومشيريه : عمرو بن العاص ، قبل غيرها من أسناد التاريخ . . . يخاطب معاوية أهل إقليمه ، بعد حديثه إلى جرير ، خطابا « مائعا » يذكر للقتل ولا يمس عليا باتهام ولا بشبهة اتهام :

« يا أهل الشام . . . إني ولي دم عثمان ، وقد قتل مظلوما . . . وأنا أحب

أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان . . . »

فهو يسند القتل لجهول . وهو يدعى لنفسه ولأية الدم من دون ولد القتل . وهو قبل هذا وذاك يستخير الناس حقيقة موقفهم أهم يا ترى متابموه لو أنه دعا للقصاص وما يهدف إليه من غاية خبيثة وراء القصاص ، أم لعلهم قاعدون عنه لا يجيئون ؟ . . .

لكنهم يجيئون ، وهل يستيحيون القعود عن دم مظلوم ؟ . . . ويقدمون عليه — تحثم النخوة — يبايعونه على الثأر ، ويقرون له بولاية الدم المسفوك . فإذا ذاق أمرهم ، وأيقن الجد منهم ، خطا خطوة جديدة فكتب للإمام :
« . . . أغريت بثمان للهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف . . . »

أخذت التهمة تنفض ميوعتها . . . لا تعمم الآن . لا إسناد إلى مجهول مادام في طوقه إسناد بعض أركانها ، على الأقل ، إلى معلوم ! — وأي معلوم ؟ إنه أولى معلوم بالاتهام في هم معاوية ومناه . . .
ثم يقدم الرجل فيدفع بالتهمة إلى طورها الأخير . . . لقد أعد ومهد ، وهياً الأذهان ، وملاً الصدور والآذان . ولقد تلبث وانتظر فما أجدى عليه الانتظار . فليقتل إذن على عثمان . . .

وهكذا نراه بعد ثلاثة أشهر قضاها في الراوغة قبل مقدم جرير عليه في أمر البيعة ، وبعد ثلاثة مثلها قضاها في المساومة عقب اللقمة ، يطالع بالتهمة للفترة كاملة التكوين ، فيقول لشرحبيل سيد اليمن ، ورأس أهل الشام ، وأقدر الناس على تحريك قومها وراء مبتغاه :

« . . . إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على ، وعلى خير الناس لولا أنه — قتل عثمان . . . »

هذه قصة التهمة بغير حاجة إلى استلهاها من دوافع معاوية النفسية . فيها نطقت وقائع الحال ، وعنها شفت أسناد التاريخ ، ومنها ثبت أن « الإمارة » هي السبب الحقيقي للخلاف بين علي وغريمه ، ولا عذر بعدها لمن يحاول لمس سبب آخر موهوم يجهد لاعتسافه من بين ذلك الغموض المزعوم الذي غلب على نصوص وثيقة التحكيم . . .

٧

نبحث « اللعبة السياسية » التي لعبها أبي سفيان . كانت حقيقة بأن يحالفها النجاح قدر ما تقدح من جدل ، وما توقع بين جماعة المسلمين من خصومة . . . وقد قدحت فأورت ، وأوقعت فأمعنت في الإيقاع ، ثم مضت ترتب النتائج على اللقدمات .

فما هي نتائجها ؟ .. ما غاياتها المنتظرة بعد عقد التحكيم أو قبل عقد التحكيم ؟ ليس أخطرها على أي حال شل على عن ممارسة سلطانه في الدولة فإذا هو « صورة » أمير ، أو هو — بلفظه — أمير مأمور . . . وليس أهونها أيضا « قشره » عن عمله بإفساد بيعته كقشره ولاية عثمان فيستوى العازل والمزول . . .

وبين هذه وتلك من النتائج « حل معقول » تطلع به اللعبة السياسية وصاحبها من ورائها يعلم أنه قل من يقول إنه غير معقول . . . هل يرى « تنحية » على عن الإمرة إلى حين . . . أو — بلغة القانون — « رده » عن أن يقضى في دم عثمان . . .

* * *

تلك إحدى النتائج المحتملة ، وإنها لا ريب نتيجة « مقبولة » لا تأبأها العقول التي تجهز اللعبة السياسية ، لأنها ترتبت على مقدمة « مقبولة » . . . فعلى قتل عثمان ، أو حرض على قتله في أهون صور الاتهام . . . ومعاوية ولي الدم . . .

فلن يكون الاحتكام . . . ؟
يأبى للنطق أن يكون على صاحب القضاء في هذه القضية لأنه متهم ، ولا يقبل منه أن يكون خصما وحكما في آن . . .

وإذن فقد وجب « رده » ضمنا لتزاهة الحكم ، وحرية التقاضى . ولن يجد امرؤ ينظر الأمر من هذه الزاوية ظل تحيف من معاوية على الإمام ، لأن « الرد »

هو الحل الوحيد المعقول الذي يدرأ الظنة عن القاضى ، ويوفر الطمأنينة للخصم ، ويكفل للقضية أن تمضى حرة إلى حيثما يجب أن تسير
لهذا يكثر معاوية فى قتل عثمان ، وفى ولايته دمه ما وسعه سبيل الإكثار .
لا يكاد يجد الفرصة أو يفتعلها حتى يكثر وي زيد ، ويبدى ويعيد ، ولا غاية له من وراء هذا إلا تثبيت حقه فى الطلب بالدم ، ثم تثبيت الدعوة إلى رد غريمه « القاضى الظنين . . . »

يحدث بعض قراء الشام ، قبيل صفين ، وقد رأوه يتهاى للقتال وراهم يوشكون أن ينكروا عليه ، فيقول :
« ما أقاتل عليا وأنا أدعى أن لى فى الإسلام مثل صحبته ، ولا هجرته ، ولا قرابته ، ولا سابقته . ولكن . . . أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما . . . »
قالوا :

« بلى ! »

« فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به . . . »

وينحطب للناس ، وقد طال تأييه عن البيعة :

« . . . إني ولى عثمان وقد قتل مظلوما . والله يقول : ومن قتل مظلوما

فقد جعلنا لوليهِ سلطانا »

لكنه يمزج ولاية الدم ، ودفع القتلة إليه ، بالشرط الوحيد الذى يحقق له غرضه الحثي : إقصاء غريمه الثفترى عليه عن الإمامة والسلطان ، فيكتب إلى أهل مكة عند مخرجه إلى صفين :

« إنما نطلب بدمه حتى يذفموا إلينا قتلته فنقتلهم بكتاب الله .

فإن دفعهم على إلينا كففنا عنه ، وجعلناه شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب . . . وأما الخلافة فلسنا نطلبها . فأعينونا ، إن أيدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمر واحد ، هاب على لما هو فيه ! . . . »

عزل بعزل . . . يريد على أن يعزله عن ولاية الشام ، فيدعو هو إلى عزل على عن خلافة الإسلام . . .

، ويمثل هذا الطلب بحبه عليا بعد أن فشلت للساومة :

« . . . قد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . فإن قلت كانت شورى بين المسلمين »

هذه هي الدعوة التي دعا لها معاوية ، وروج جهد الترويج . وهي إحدى ثمرات لعبته السياسية ، وأهون نتائجها للانتظرة . وهي لا شك أحبولة محبوكة وقع فيها كثيرون في أيامه ولا تزال تطبق إلى الآن — فيها يلوح — على كثيرين ممن يعرضون لتاريخه بالمناقشة والتدوين

على أنها حيلة لم تكن لتجوز على الإمام أو يخفى ما وراءها عنه . فذكره إياها متواتر ، ودحضه مزاعمها معلوم تفيض به كتبه إلى ابن أبي سفيان ، وحديثه عنه ، وسفاراته إليه . وبحسبنا منها عبارات تكشف الحيلة ، وتهتك الستر عن صاحبها حتى لتضعه من ولاية الدم موضع الدخيل للقتل ، ومن خذل معاوية — لا من نصره ! — بحيث كان ويجب دائماً أن يكون يكتب له الإمام مرة :

« . . . ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان . فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه . . . فأينا أعدى له ، وأهدى إلى مقاتله ؟ . . أمن بذل له نصرته فاستعده واستكفه ، أم من استنصره فترأخى عنه ، وبث النون إليه حتى آتى قدره عليه ؟ . . كلا والله ! . . لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً »

وما كنت لأعتذر من أنى كنت أنقم عليه أحداثاً . فإن كان الذنب إليه إرشادى وهدايتى له ، فرب ملوم لا ذنب له ، وقد يستفيد الظنة المتصح . . . » وكتب أخرى :

« . . . فأما إكثارك الحجاج في عثمان وقتلته ، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له ! . . . » وعلى هذا النحو جرى حديث أحد سفراء الإمام :

« يا معاوية ! . . إنك لا تجدد شيئاً تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلت لهم : قتل إمامكم مظلوماً ، فهلوا نطلب بدمه . . . »

فاستجاب لك سفهاء طغام رذال . وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر ، وأحييت له القتل بهذه المنزلة التي تطلب »

ويحق لنا أن نبين أن موقف معاوية من علي في شأن عثمان على الهيئة التي بسطها الإمام لم يكن غريبا على الناس إذ ذاك أو خافيا عنهم ، بل كانوا يعلمونه حق علمه ، ويعذلون الرجل عليه ، وينسكرونه منه وإن لم يكونوا ممن عرف تشيعهم املئ . ويكفينا هنا مثلاً رأى محمد بن مسلمة في هذا الشأن . فهو امرؤ أبي أن يدلي بالبيعة إلى الإمام حينما أدلى بها قومه الأنصار . وهو بهذا يحسب عليه ولا يحسب له . وقد يحسب بأرفق تقدير من المحايدين الذين لا إلى حزب العراق ولا إلى حزب الشام . . . يكتب ابن مسلمة هذا إلى معاوية يقول :
« . . . وأما أنت فلعمري ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى . . .

فإن تنصر عثمان ميتا ، فقد خذلته حيا . . . »

وإذن فلم تخف للراى الحفية وراء انتصار ارية لعثمان لا عن على ، ولا عن صحبه ، ولا عن أولئك الذين كانوا منه بمنزلة قطيعة أو كانوا منه ومن معاوية بموقف سواء . بل هى أيضا لم تخف عن أولياء ابن أبى سفيان وخاصة خلصائه وفي مقدمتهم : مرآة نفسه وأهوائه عمرو بن العاص . . . فما كان انتصاره سوى انتصار لنفسه يلبيه بما يشاء ليديه كما يشاء . بولاية الدم ، بالخذل ، بالتحريض ، بالقتل ، بأى من هذه التعلات المعروفة أو بها كلها مجتمعة . فيحسبه أن يبلغ أربه ، وأن يلقي بغريمه المفترى عليه في الظلال
ويكتب له على داحضا لمعاته :

« . . . وأما قولك : ادفع لنا قتلة عثمان ، فما أنت وعثمان ؟ . . . إنما أنت رجل من بنى أمية وبنو عثمان أولى بذلك منك . . . فإن زعمت أنك أقوى على دم أيهم منهم ، فادخل فى طاعتى ، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على المحجة . . . »

لكن معاوية لا يأبه . ظل دائما وهو — كوصف الإمام له — «الذهاب فى التيه ، الرواغ عن القصد » . . . يلزم « الأهواء المبتدعة والحيرة المتعبة » ، مع تضييع

الحقائق ، واطراح الوثائق » وإنه عندئذ يعلم أنه غوى وأغوى ، ومال وأمال .
 علم بهذا من فم خصمه ، ومن منطق الحوادث ، ومن لسان صاحبه عمرو
 ثم لا يرشد ولا ينزع عن غيه وإمعانه في الادعاء . . . فلقد قال له عمرو مرة —
 وكم غيرها قال — في معرض حديثهما عن الإمام وحقه الذي لا ينكر في الخلافة :
 « إنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمه . . . »

ومع ذلك ظلمه . . . اختلق ما اختلق ليلوى به العقول والألسنة ثم يجعله
 وسيلة للعصيان : وأعانته على الاختلاق عمرو نفسه — الناطق قبل بحق على ،
 العارف له ! — لأنه هو الآخر عبد هوى . بمن يضمن لهم بدينهم ، ويبيعون
 الفرى بمثقال . . .

وقد نعجب معاوية كيف يرى الحق ويحيد باطل ، ويرى الهدى وينحرف
 لضلال . وقد نعجب أيضا لصاحبه إذ يحثه على الظلم والحيث . وقد نعجب بعدها
 لمن تابعهما من أهل الشام وهم على بصيرة من حقيقة الأمور — لكل هؤلاء
 قد نعجب ثم نرانا من بعد حقيقتين بأن يزيد في عجبنا أضعاف الأضعاف حينما نجد
 في صفوف الإمام ، ومن بين رجاله وأوليائه ، فئة غير قليلة يلتوى بها منطق
 معاوية حتى لترى في « دعواه » المختلقة « واقعة » يدخلونها في حيز الحقائق
 ولا يطردونها إلى تيه الأوهام . . .

أجل ، قد كان . . . فمن رجال العراق من استخفهم حب الجدل فراحوا
 يسفستون حول التهمة الباطلة التي ألصقتها معاوية بعلى . لم ينكروها كما أنكرها
 أصحابهم ولم يدحضوها بمثل حججه التي تهدرها وتهدمها وتجعلها هراء وهباء . ولم
 ردوها إلى أصولها الخلقية ، طوراً وراء طور ، إذ هي خلجة رعناء من أثر الماضي
 في قلب حاقد ، ووحم شارد في خيال حالم — إنما قد ازدهام عندئذ ، دون هذا
 كله ، « علمهم » بأساليب النقاش والجدل والحجاجة فمضوا شأوا اعتدادهم
 أو غرورهم من التهمة ، يحملونها ويبررونها كما تناقش الوقائع الثابتة وتبرر بالعلل
 والأسباب . . .

فما كان قصارى ذلك النقاش . . . وما هي نتيجته . . .

كان قصاراه — فما يبدو — إشباع تلك النزعة إلى الكلف بالنقاش في كل
 ما يعرض لهم من الخواطر والآراء وإن كان الحاضر للهم ، والرأى الذي يجيء

بمقطع الحجة وفصل الخطاب . وما عهدنا باندفاعهم إلى مجادلة الإمام في أوامره وتواهيه ببيد . . .

وكانت نتيجة انكسار قضية الخلاف بين علي ومعاوية فإذا هي ، من لحظتهم ، وعند التحكيم ، وبعده بالسنين والقرون ، تلوح للكثيرين خلافا على دم عثمان هل سفك بحق أم سفك بظلم ، ولا تتمثل في هيئتها الحقيقية إذ هي خلاف على السلطة يعتسف معاوية ودواعيه ، مظهره تمرد على صاحب الأمر الشرعي في النبوة ، وآثاره انقسام وحدة الأمة ، وجزاؤه في منطق الدين والسياسة على السواء جزاء التمرد والخروج على النظام العام . . .

يسفطون ، مفسرين سبب الحرب بين أهل الشام وبينهم ، فيقولون بالنطق الكلف بالنقاش ، وباللسان الذي يتكاف الترتيب والتخريج والتأويل :

« . . . إن الله عز وجل أحل البراءة بمن حكم بغير ما أنزل الله ، فتوليتم الحاكم (عثمان) بغير ما أنزل الله وقد أحل الله عداوته ، وأحل دمه إن لم يرجع إلى التوبة ويؤ بالدين . وزعمتم أنتم خلاف حكم الله ، فتوليتم الحاكم بغير ما أنزل الله وقد أمر الله بعداوته وحرمت دمه وقد أمر الله بسفكه ، فعاديناكم لأنكم حرمت ما أحل الله ، وحللت ما حرم الله ، وعظمت أحكام الله . . . »

ويسفطون أيضا ، مثل سفطتهم هذه ، مبررين قتل عثمان :

« . . . قد قبلنا من عثمان بن عفان حين دعى إلى الله والتوبة من بغيه وظلمه . وقد كان منا عنه كف حين أعطانا أنه نائب حق جرى علينا حكمه بعد تعريفه ذنوبه ، فلما لم يتم التوبة ، وخالف بفعله عن توبته ، قلنا : اعتزلنا ونولى أمر المؤمنين رجلا يكفيك ويكفيينا فإنه لا بخل لنا أن نولى أمر المؤمنين رجلا نهمه في دماننا وأموالنا . . . فأبى ذلك وأصر . فلما أن رأينا ذلك منه قتلناه . . . »

وإذن فقد نجح معاوية — أعر به وترديد حق التوب ، في صفوف الإمام نفسه ، السن وأذهان بدعواه . . . ولم يكن جسديدا على الناس خوضهم في قتل عثمان فهو من ساعته مادة للحديث والنقاش . ولم يكن عجبا أن يذهبوا فيه طرائق ومذاهب شتى تتراوح بين الإقرار والإنكار . ولم يكن مستغرب أيضا أن تجد بين

مقر به فئة تراه ضرورة سياسية ، وفئة تغلو فتعده واجبا دينيا ، وفئة أخرى بين هذه وتلك تأسف له ثم لا تنكر الظروف والدواعى التى انتهت به إذ تعتبرها حرية بأن تختم بمثل ذلك المصير حياة أى إنسان ، عثمان أو غير عثمان ... كالا لا نعجب ، ولا تنكر ، ولا علينا من الإثبات ، لأن تعدد الآراء فى قتل عثمان — من حيث هو جرم — واختلافها أشد الاختلاف فيه ، حقيقة تاريخية معلومة ، لا سبيل إلى إغفالها أو التهوين منها ، ومبحث كان مدار مجادلة وحوار ، ولا يزال ، منذ وقع إلى الآن ولكن الذى نعجب له ، وننكره حقا ، ويجدر أن يكون دائما موضع تعجب وإنكار ، أن ينزلق هذا القتل — من حيث هو سبب موهوم لخلاف معاوية عن طى — ثم ينزلق وينزلق ليدفع السبب الأصيل عن طريقه ، ويزيحه ، ويبقى وحده ولا سبب سواه

لقد كتب طى وقال . . .

وقد كتب معاوية وقال . . .

ومن ورائهما جرت السن وأعلام بأقوال أنصار هذا ، وأقوال أنصار ذاك ، وأقوال من دونهم ممن لا يحسبون فى الأنصار أو الأعداء ، طى ما بيناه ، فلم نرفيا استفاض منها وشاع إلا « الخروج طى النظام » علة لهذا الخلاف . . .

غير أن معاوية مضى شوطه ، يلبس ويشبه ، لتختلط الحقائق طى الناس ... ثم مضى أيضا شوطه ، يعاند ويكابر ، ويشيرها حربا من القرى والادعاء ليفرق ذلك السبب الصحيح الأصيل فى قاع سببه للوهوم الدخيل . . .

وكيف لا ؟ .. إنه اعلم بأن استجابته لحجج الإمام سوف تجرده من سلاحه ، ثم تدعه هملا فى الناس . فإذا هو خليع بلا مطمع ، بلا سطوة ، بلا شام . .

ومع ذلك فقد كفانا من تملاته ، وكفانا من مكابرتة وتأييه ... ولتكن لنا نظرة عابرة فى ثنايا بعض أسطر الإمام وعباراته لنرى موضوع الخلاف الحقيقى ، فى صورته البسيطة الأولية التى ظل عليها طول عمره ، منذ نشأ حتى انتهى إلى التحكيم ، وبغير حاجة ، كسبب خصمه ، إلى التطويع والتطوير وإنها لصورة واضحة محلوة ، تضم ظلالها وأضواؤها كافة للمبادئ التى تحد لنا الإمرة ،

عن تكون ، وفيمن تكون ، وحق الأمة في السلام والوحدة ، وواجب الأمير في الاتصاف لها من كل مخالف يمرضها الانقسام . . .

في هذه الصورة ، أو هذا الدستور ، يفصل الإمام الأمر في سهولة ويسر . . .
فالإمرة لأولى المسلمين بها :

« ... إن أولى الناس بأمر هذه الأمة ، قديمها وحديثها ، أقربها من رسول الله ، وأعلمها بالكتاب ، وأوفقها في الدين ، وأولها إسلاما ، وأفضلها جهادا ، وأشدّها بما تحمله الرعية من أمورها اضطلاعا ... »

واختيار الأمير من حق تلك الصفوة المختارة من صحب محمد الدين كانوا بمثابة مجلس الأمة : لأنهم أعلم بمحاجتها ، وبما يصلحها :

« ... الناس تبع للمهاجرين والأنصار وهم شهود المسلمين في البلاد على ولايتهم وأمر دينهم ... »

وكلمة هذا « المجلس » في الاختيار واجبة الطاعة :

« ... بيعة واحدة . . . الخارج منها طاعن ، والروى فيها مدهن . . . »

فمن أبى الطاعة فهو خارج على الجماعة ، شاق وحدثها ، لا يدرأ خطره عليها إلا أن يحمل على الخضوع بقوة الإقناع ثم بقوة السلاح :

« ... إنما الشورى للمهاجرين والأنصار . فإذا اجتمعوا على رجل فسوءه إماما كان ذلك لله رضا . فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل للأئمة ... »

هذه هي المبادئ الأساسية في دستور المسلمين غير المكتوب الذي اتبعوه خلال عهود أبي بكر وعمر وعثمان ، أو تحروا اتباعه جهد استطاعتهم ، قد أعاده الإمام على جمع معاوية ، ومر به تحت بصره مرات . ولم يزل به يعيده ويكرره ، لا يعمل ولا يئأس عسى الرجل أن يرشد وينزع إلى الصواب .

لكن معاوية أبى ، فلم يكن يحصى لعل من محاكته محاكاة خارج على وحدة الأمة :

«... استأستحل أن أدع معاوية يحكم على الأمة ، ويركبهم ويشق عصامهم...»
 فإذا وقعت الحرب ، ثم تداعى المسلمون في أنثائها إلى تحكيم القرآن في الخلاف
 بين الرجلين ، فلا وراء إذن في أن موضوع ذلك الخلاف الذى لا موضوع غيره
 هو خروج معاوية على جماعة المسلمين ، وإن التوت بدعوى ذلك الخارج الزائفة
 السن أقوام في صفوف الإمام ، والتوت بها من بعدهم نوايا ابن العاص الفوى
 والأشعري الظنين ! ...

٨

قال يحدث صاحباً له :

« إن الفتن لم تزل في بني إسرائيل ، ترفعهم وتخفضهم ، حتى يعيشوا الحكيم
 يحكمهم بما لا يرضى به من اتبعهما ... »

فخذه حينذاك صاحبه :

« يا أبا موسى ... إياك إن أدركت ذلك الزمان أن تكون أحد
 الحكيم ... »

« أنا ؟ ... »

« نعم أنت ... »

فبان الإنكار في وجهه :

« لا جعل الله لى إذن في السماء مصعداً ، ولا فى الأرض مقعداً ! ... »

لكنه أدركه ! .. أدرك الزمان الذى اختلف فيه الناس ثم لم يزدحم التحكيم
 إلا أعنف اختلاف ! .. فالدنيا دارت . والأيام تواترت تكس على قومه أسباب
 الفرقة . والأمة التى كانت إلى أمس القريب كالصخرة العاتية توهى الصروف والحن ،
 وتوهن الفتن ثم لا تمن ، قد أصبحت فلقطين مثل حبة الفول ! ... وها هو الآن
 فى معتزله ذاك الذى اختاره لنفسه ، يلبدة عرض ، بين الرصافه وتدمر ، يأتيه
 آت بما كان من قبل يكره أن ينهض فيه ...

يقول له أحد مواليه :

« إن الناس قد اصطاحوا ... »

« الحمد لله ! ... »

« ... وقد جعلوك حكما ... »

فقلب كفيه كالخائر :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ! ... »

غير أنه لم يرفض . بل سارع ، كمن كان والنبأ على موعد مرتقب ، يتهاى
للرحيل إلى المهمة التي أشهد الأرض والسماء من قبل على تأييده عليها ، وعزوفه
عنها ، وتجنّب نفسه الكلفة بالسلم أمرها الكريه الثقيل . . .
وعندئذ يعجب صاحبه ، ويحاول أن يذكره ما عسى قد أنسى من رأيه
المخالف القديم :

« يا أبا موسى . . . أتذكر مقاتلتك ؟ ... »

وما عليه لو ذكر ؟ . . . إنه ليدكر ثم لا ينكر ! . . .

على الزمن بلى إنكاره . . . فساخته اليوم سائحة تجيئه وهو قاعد ، غير
ساع ولا أمل ، فتضع في يمينه وحده مصير على بن أبي طالب كما لم تضع قبلها
سائحة مصير عاهل في يد عدو وموتور ولا ولي حميم ! . . طوته طى النهار الوضىء
كابوس ليلة . . .

فلعله فرح . . . إن الرجل من الناس قد يلغظ بالرأى ، ثم يلوكة لسانه .
ثم لا يفتر يعيده على الآذان كلاما . منغما أنغاما ، ما شاء له أن يردد ويعيد ، ومع
ذلك قلبه في جوفه ينكر عليه منطقته ، ونفسه تبرم به ولا ترضاه ، ودخيلة صدره
تضممر خلاف ما يظهر ، حتى إذا وسعه من بعد أن يتحرر من نقاب تظاهره ،
ويكشف عن خبيء ضميره ، جاء فعله غير قوله ، وطفت العقيدة الراسية في أعماقه
— بعد طول احتباس وكتبان — تطفئ بدرانها وطينها ووحلها على زخارف لسانه
وبيانه الخادع للمسول ! . . .

وكذلك انطلق الأشعري ، من بعد ، إلى حيث ينتظره دوره في التحكيم ،
ليزن الأمور بميزان إدراكه الخاص ، ثم يسلكها للمسلك الذي إليه تهديه
رواسبه النفسية . . .

كان قدرا مقدورا أن الرجل حين دعى استجاب . قدرا لازما على الإمام لامناص منه ، ولا حيلة فيه ، بدت من خلاله الخاتمة وانكشف الصير المحتوم .. ما من فرد واحد في الجانبين للتخاصمين ، من أهل الشام أو رجال العراق ، تجرد حينذاك من هواء وظنونه إلا استشف أن دولة على توشك أن تؤذن بغياب كما توشك غبرة الأفق أن تشف عن طلائع الغروب . . . حق الذين كانوا من البدء في عزلة ، ولم يسهموا في الخلاف ، خيلتهم هذه الحقيقة . فالأشعري اليمنى منشورة لهم أجمعين صحيفة ماضية ، منعكسة على رقعتها خبيثته ، مكشوفة نواياه — وإن حاول وسعه كتبها — لكل من شاء أن يتطلع من ثنايا البداية إلى الخواتيم . . .

ومع ذلك فثمة طائفة من أصحاب الإمام رأوا لزما عليها أن تهبط إلى هذا الحكم بالتبصير أو بالتحذير .. لم يدفعها إليها أملها فيه ، ولا إيمانها بأنه قد أنسى ماضيه . . . قلقها هو الذي كان يدفعها . علمها أنه ليس بثقة ولا بمؤمن على هدفها الذي طالما تنكر من قبل له وأولاه ظهره . . . إنما كان هم كل منهم أن ينفذ عن نفسه وقرا ثقيلًا ، حريا بأن يظل إلى الأبد يشقله لو أنه لم يتقدم في هذا الوطن بال نصيحة — وهي غاية جهده ومنتهى قصاره — إلى هذا الأشعري الظنين . . . يقول له ابن عباس حين يلقاه :

« يا أبا موسى . . . إنه قد ضم إليك داهية العرب . وليس في معاوية خلة يستحق عليها الخلافة ، فإن تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه ، وإن يطمع باطله في حقك يدرك حاجته منك . . . »

لكن الحق والباطل في هذه القضية لم يكونا في نظرة أبي موسى على الهيئة التي يراها المدول من الناس . . .

ويعضى ابن عباس ينصح :

« . . . واعلم ، يا أبا موسى ، أن معاوية . . . يدعى الخلافة من غير مشورة ولا بيع . فإن زعم أن عمر وعثمان استعملاه فلقد صدق : استعمله عمر وهو الوالي عليه بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي ، ويوجره ما يكره . ثم استعمله عثمان

برأى عمر ، وما أكثر من استعماله لم يدع الخلافة واعلم أن لعمر
مع كل شيء يسرك خبأ يسوءك ومهما نسيت فلا تنس أن عليا بايعه القوم
الدين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان . وأنها بيعة هدى . وأنه لم يقاتل إلا العاصين
والناكثين »

بهذا الحديث الصريح البين حدثه ، فكشف له ، بما لا يدع مجالا لتأول
أو شبهة ، حقيقة الخلاف بين الخصمين . ما هو إذن بدم أو ثأر . . . ما هو
بقتل عثمان إنما كان تطاعا من معاوية إلى اغتصاب الخلافة بمن عصبها
للمسلمون برأسه وقلدوا بيعتها عنقه وإنما كان انسياقا منه وراء نزوة أطماعه
تحمته عليه « بيعة » أدلى بها إليه أنصاره أو « رعاياه » في الشام وإنما هو
إذن خروج منه على وحدة الأمة أوقع في صفوفها فرقة وانقسامًا وليس له عند
صاحب السلطة الشرعية ، الأمين على سلامة الدولة ، إلا ما لكل متمرّد خارج
على النظام

وينطق أبو موسى جوابه ، كلاما ، منها أنقاما ينطق من طرف لسانه
فيقول :

« رحمك الله ! . . . والله ما لي إمام غير علي . وإني لواقف عندما رأيت ،
وما أنت وأنا إلا بالله . . . »

ومع ذلك فقد كان خليقا بشك الشاكين وريبة المستريين . . . الكثيرون
من عرفوا ماضيه ، وخبروه في أمسه القريب ، يتهمون الآن منطقته . أقد صدق ؟
أخلص النية ؟ . أهذا الحديث منه اليوم مرآة قلب يؤمن حق الإيمان بما ندب له
أم هو صدفة ظاهرها زخرف وجوفها فراغ ؟

ويقبل عليه الأحنف بن قيس ، يسرع به الشك ثم يبطئ اليقين إنه
يحدثه . وينصح له ، ويشير عليه ، حتى إذا نصح وحذر بما يسمه النصيح والتحذير
أطلقها من بعد كلمات رقيقة ، بريئة للظهر ، ليلاوه ، ويعلم منه أصلحت نفسه حقا
وصفت للإمام أم قد بقيت على رأيها القديم السقيم ؟ . . . يقول الأحنف ، كأنما
يسوق فكرة طارئة قد تؤدي مناقشات التحكيم إلى تبنيها حينما يعضل بالحكمين
الاتفاق على الرأي الحق الذي لا وحدة ولا سلام بغيره :

« . . . فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلى ، فليخذ أهل العراق من قريش الشام من شاءوا ، أو فليخذ أهل الشام من قريش العراق من شاءوا . . . » فلم ينكر الأشعري فكرة هذا الاقتراح . ولم يبد عليه أنه لا يجد لها مكانا في خاطره الجدير بأن تمتلئ عمارجه ومداخله بفكرة غيرها تذود عن الحق البديهي للإمام . . . فكأنما كان لا يرى جناحا عليه في تقبل آراء تنأى به عن الجادة للمستقيمة التي حددها كتاب الله لفض كل خلاف ، وعن الخطوط السوية التي رسمها دستور المسلمين غير المكتوب وتقاليدهم المقررة في اختيار الخلفاء . وكأنما كان — بأرْفَق تعبير — لا يستشعر هنة من ضير في زوال ولاية أمور الأمة عن صاحبها الشرعي وقد اختير هو حكما ليؤدي عنه ، ويدفع عن حقه باطل خصمه . . . كلام ينكر . . . إنما تقبل الفكرة المقترحة بإقرار ، أو باستسلام يشبه الإقرار . فقال :

« قد سمعت ما قلت . »

وسمع على . . . وهل كان يملك إلا أن يسمع ثم ينتظر ؟ . . . إن الأحنف يسرع صوبه قلعا مهموما ، ويبحار وفي صوته رنة نذير :

« يا أمير المؤمنين . . . أخرج أبو موسى والله زبدة سقائه في أول محضة . . . » فيبتسم . هو بحقيقة الأشعري عليم . ويتم الأحنف :

« . . . لا أرانا إلا بعثنا رجلا لا يشكر خلمك . . . »

لكن هذا النذير لا يهزه . . . فما الإمرة . . . ما ملك هذه الدنيا بأسرها . ما النصر الذي يود الأحنف بن قيس — يجمع أنفه ، وحتف ثقته واستقراءه مقدمات الأمور — لو يجيء ، وإن على يد الأشعري : السفير الظنين ، كما تجيء الحوارج مباغته ، وتقع المعجزات بغير إعداد ولا تدبير . . . ويحييه الإمام بهدوء :

« الله غالب على أمره . . . »

« فمن ذلك نجزع يا أمير المؤمنين . . . »

ثم يعفى أبو موسى شوطه ، وشأو رأى مكتوم — كان يحبسه من بضعة أشهر — أتبع له اليوم أن يطلقه من ربة خوفه ، أو حذره ، أو تخرجه ، أو أيعا عاطفة حكته أن يجاهر — بعد عزله من الكوفة — بسياسة العزلة والتخذيّل التي كانت ثمرته . . . وإذا كان الأحنف بن قيس قد داوره ، ولم يرد أن يجبره بهذه السقطة القديمة ، فشرّح بن هانيّ جبهه ، وحذره أن تكون لها في نفسه بقية تفسد عليه نزاهة حكمه ، وتقضى على الرجاء الذي ظل رجال متفائلون يعلقونه به . . . يقول شريح وهو يودعه إلى دومة الجندل ، مقر التحكيم :

« يا أبا موسى . . . إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه ، ولا تستقال فتنته . ومهما تقل شيئاً ، لك أو عليك ، يثبت . . . وإن كان باطلاً . . . إنه لا بقاء لأهل العراق إن يملكها معاوية . ولا بأس على أهل الشام إن ملكها على . وقد كانت منك تضيطة أيام قدمت الكوفة ، فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقينا ، والرجاء منك يأساً . . . »

فإذا الرجل يبدو كالمنضب لهذا التذكير بسقطته ، فيجيب غير مهاود :

« ما ينبغي لقوم اتهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً أو أجر إليهم حقاً ! »

عندئذ يعقب صاحب له بالرجاء فيه :

« إن أبا موسى سيدرك حقنا . . . »

فيبدأ الأشعري ويقول :

« والله إنني لأرجو أن ينجلي هذا الأمر وأنا فيه على رضا الله . . . »

على أن الرجاء واليأس منه قد حسمهما ، بعد هذا ، للغيرة بن شعبة . أحد الدهاة في العرب ، والرجل الذي كان له في ولاية معاوية رأى لم يقره عليه الإمام . . . فلقد بعث معاوية حينذاك ، والحكمان لم يلتقيا ، إلى فريق من قریش كره أن يعينه في حربه ، يستلحقهم ليشهدهم خاتمه الأمر . . . وكان فيهم ابن الزبير . وكان فيهم ابن عمر . وكان فيهم للغيرة الذي أسرع به فضوله من الطائف بالحجاز إلى هذه البقعة بين العراق والشام . .

واستقبله معاوية بلائنه عسى أن يستصفيه ويستخلص دهاءه .
 وأصغى المغيرة إليه وسمع منه ، فلما أن فرغ تلطف ابن أبي سفيان وسأل زائره :
 « . . . ما ترى يا مغيرة ؟ . . . »

تفكر الزائر الحذر هنيهة ثم قال :
 « يا معاوية . . . لو وسعني أن أنصرك لنصرتك . ولكن ، طي أن آتيك
 بأمر الرجلين . . . »

وفعل . ودخل زائرا على أبي موسى ، يحادثه ليدوق أمره :
 « يا أبا موسى . . . ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء . . . »
 فلم يكن أسرع إليه من جواب الأشعري شيء :
 « أولئك خيار الناس . . . خفت ظهورهم من دمائهم ، وخصت بطونهم
 من أموالهم . . . »

وركب المغيرة إلى عمرو :
 « يا أبا عبد الله . . . ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء . . . »
 فلم يكن أسرع إليه من جواب ابن العاص شيء :
 « أولئك شرار الناس . . . لم يعرفوا حقا ، ولم ينكروا باطلا . . . »
 من هذا الحديث وضحت نية الأشعري للمغيرة حق لقد انطلق بها إلى معاوية
 يملأها وإنه عند ذلك غير مخدوع :

« . . . أما عبد الله بن قيس خالغ صاحبه ، وجاعلها الرجل لم يشهد هذا
 الأمر . . . وأما عمرو فهو صاحبك الذي عرفت . . . »

ومن هذا الحديث أيضا يتبين لنا الرجل على ما كان عليه بالأمس ، له نظرتة
 الأولى ، وسياسة السلبية التي أقعدته عن انحيازه لهذا الخصم أو لذلك . . .
 أفنلحاء يا ترى الآن إذ هو أخرج زبدة سقائه ، ونضج حقيقة بما فيه ؟ . . .
 لكأنني إذن بفئة من الناس تراه ، أمس واليوم وفي غده ، مخلصا رأيه ،
 ثابتا عليه ، ولم يغير منه شيء ، فإذا هو في حساباتها يرتفع إلى مستوى أصحاب
 المثل والبادئ . . .

وكأنى بغيرها فئة أخرى تصوبه ، وتستطيع أن تزعم له صدق النظرة واطلاعها على المجهول ، إذ تنكشف له الأحداث فإذا الناس هذا اليوم في فريق العراق والشام ، قد « ثبطتهم » الظروف عن الحرب فقعّدوا مثله يلتمسون عافيتهم في السلام أو في السعى إلى استفتاء السلام . . .

ومن حق الأشعري أن يستمسك برأيه . ومن حقه أيضا أن يرى في هذا التحكيم رجمة من الناس إلى تلمس خطة هينة ، ليس فيها عنف الحرب ، وتدنو هونا من خطته التي دعا بها وهو في الكوفة إلى القعود عن المشاركة في القتال ليجبر الخصمين على التزام الحسنى لنقض ما وقع بينهما من النزاع . . . من حقه لا ريب كل هذا وكثير غيره مما عساه قد خاصر ذهنه حينذاك ، ويخامر الآن أذهانا أخرى من الآراء والنظرات ، ثم من حقنا بعده أن نتساءل أكان أيضا له أن يخضع قضية التحكيم ، وهي قضية عامة ، لرأيه الخاص ؟ . . .

كلا . . . وكلا بلا جدال ! . . فلم يكن أبو موسى يمثل نفسه . كان يعلم أنه يمثل العراق والإمام . وكان يعلم أنه قد اختير ليتحدث عنهم برأيهم لا برأيه . وكان أولى به — إذ أيقن أنه لا يستطيع التحرر من رأيه القديم — أن يستقبلهم اختيارهم ، كما كان أولى به من قبل أن يستقبل الإمام ولايته على الكوفة ثم لا عليه لو اعتزل ، ملتزما سياسته السلبية ، أو داعيا لها بصفته الشخصية لا بصفته العامة . .

ولكنه لم يتجرد من نظراته الأولى . وأبى إلا أن يساير في التحكيم هواه ، فغذل الذين جاءوا به ، ونصر الذين كانوا أولى عنده بالهزيمة والخذلان . ولئن قيل إنه « حكم » وما هو بنائب ولا سفير لأهل العراق فليس يحق إذن عليه التزام رأيهم والدفع عنه . . . إن قيل هذا فإن القول به لا يهدر الحدود التي كان على الأشعري ، بأية صفة من الصفات ، التقيد بها والسير بحكمة في نطاقها المرسوم . . . لقد كان جليا له ، قبل اختياره وبعد اختياره ، فیم اختلف الناس ، ولم اختاره أهل العراق ، وأية مبادئ — بنص وثيقة التحكيم — عليه التزامها وهو يناقش رفيقه ابن العاص ليخلص وإياه إلى الحكم المطلوب . . . كان هذا كله جليا ، وأجلى ما فيه ذلك النص الصريح في الصحيفة الذي أوجب « الحكم بالقرآن » .

فإذا رأى أبو موسى من بعد أن « يجتهد » رأى ثم يحكم بما يراه ، فحكمه إذن مردود منقوض لأنه لا يقوم على مبدأ « الحكم بالقرآن » ، واجتهاده إذن اسم جديد لهواه لأنه « لا اجتهاد مع نص » . . .

ومع ذلك فقد مضى شوطه ... لعله كان أسير نظراته القديمة ... لعله انزلق في دعوى معاوية ... لعله خدعته خدع ابن العاص ... على أى حال ، نسي الرجل — فيما بدا — افقة الأحنف ، ووصية ابن عباس ، وتحذير شريح ، وهو يتخذ سبيله إلى دومة الجندل . أفلم يكن أجدر به أن يذكر ، فيعتبر ، ما عساه قد أنسيه ، وهذا كتاب من الإمام قد لاحقه ، إلى حيث أقام بتلك البقعة بين الشام والعراق ، فيه تذكرة ، وتلميح بالشك ، وتحذير من الليل والزيف . . . لقد كتب على إليه إذ ذاك :

« ... إن الناس قد تغير كثير منهم عن كثير من حظهم ، فماتوا مع الدنيا ، ونطقوا بالهوى . وإني نزلت من هذا الأمر (الخلافة) منزلا اجتمع به أقوام ، أعجبته أنفسهم ، أداوى منهم قرحا . . . وليس رجل — فاعلم ! — أحرم على جماعة أمة محمد وألقتها مني ، أبتغى بذلك حسن الثواب ، وكرم المكاب . وسأفي بالذي أخذت على نفسي وإن تغيرت (أنت) عن صالح ما فارقتني عليه . . . »

كانت العودة حزينة ... العيون ساهمة . القلوب مكلومة . الرؤوس خافضة .
وهذه الأجسام التي مشقتها خشونة الصحراء ، وضميرتها شدائد السلم والقتال
لاحت رخوة متداعية كأنها بلا عظام وأعصاب . وهذه البشرة الحنطية التي
أنضجتها حرارة الشمس ، ولوحتها أطيايف الأشعة ، بدت شاحبة كأنما امتصها
الرمل رونقها ، أو عكس عليها لونه الأصفر

بلا حياة . في خمول وثاقل . يمثل حركة الظلال أو الدمى للمنحوتة عادوا
يطلقون الأقدام على طريق حياة هي الموت وقد خلفوا وراءهم ساحة موت كانت
لهم في جنباتها حياة ... تفهقروا إلى مواطن الدعة . ارتدوا للسلم ينسلون صوب
الكوفة ففيها ملاذ لكل حالم بالطمأنينة يرخى جفنيه عن غوائل الحرب فعل
النعامة عن سهام الصياد . . .

وخلف ظهورهم كانت صفيين . البقعة التي غدت بقعة كبيرة من الدم ! الثوى
الفسيح الذي التقم وما تخم ، وشرب وما شرق . . الأرض الندية الجراء !
فكم لوتوها . . . وكم أودعوها . . .

كم تركوا عليها وهم يعودون . . . كم خفقة قلب ، وخلجة صدر ، ولحمة عين
من اللحاحات اللواتي تترجم عن القلوب والصدور . . . كم أهדרوا ، هناك ، فوق
أرضها من عواطف ، من حنان الأبوة . من وفاء البنوة . من التعاطف الذي
كان حق أمسهم القريب يربط بين الرفاق في السلاح . . . تلك الأعداد الوفيرة
الكثيرة من الأعضاء والأجساد التي غيبتها عن عيون الأنجم تحت التراب .
في قبور غير معلمة ، ليست كل ما ضيعوه . فالصفاء أيضاً قد مات

حق اللغظ الذي صاحبه عند مخرجهم من ميدان الواقعة ، مات هو الآخر . .
دفنوه في صدورهم . وأدوه حسرة حية تضطرب بعد أن عملوا نهارين وليلتين
في إهالة ترى صفيين على قتلاهم . أم لا ، فقيم هو الآن ؟ . وما جدواه . . ؟

لقد ربح من ربح وخسر من خسر وليس بينهم راجع على الإطلاق ؟ .. إنهم
ليعلمون أن النقاش نقش على الهواء ! صرخة بلا صدى ! هينمة كهينمة النائم ..
وإذا كان له ما وراءه ففرقة أقصى من هذه التي أشاعها بينهم ، منذ أيام ،
نداء التحكيم . . .

كلا ما لهم اللحظة طاقة للجدل ، ولا قبل بمحدث . . . هذه نفوسهم تبرم بهم .
تعاف ما كان منهم تخجل أن تبدى فيه وتميد . فالسلم الذي تنادت به بعض
طوائفهم أطلع التسليم أو ما هو أدنى في اعتبار الحقائق من التسليم . والحرب
التي تصايحت بها بعض فرقهم كانت أدنى إلى أن تكون مذبة تقط فيها أعناق
قلة متحمسة بينما الكثرة المفتونة بإغمد السيوف واقفة تنظر . وبين أولئك
وهؤلاء كانت طوائف وفرق ترجع في حيرة ، لا تلحق بأحد الحزبين لأنها
لم تكن على يقين مما تريد ... أما الآن فكلمهم في هذه الحيرة : أصحاب التردد ،
ودعاة الحرب ، وللبشرون بالسلام . . .

كلهم في هذه الحيرة وهم يحركون أقدامهم للعودة ، ينطلقون في تشاقل ،
ويتذاءبون على منبسط الصحراء في مسيرهم متداعين ، بلا إرادة ، كالمشيم حين
تدفعه الريح ! .. بلا عظام ، بلا أعصاب كأنهم ظلال ! .. والمشاعر في صدورهم
موءودة ، والخواطر في عقولهم خرساء ، والكلام في حلوهم مختنق ، وليس
فيهم من علائم الأحياء إلا زفرة تضطرب ، وخجل يرخي الأهداب ، وحسرة
تعنى القامة . . .

وسموا الإمام يبتهل لربه ، في نبرة حزينة :

« ... اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر ، وكآبة للقلب ، وسوء للنظر
في المال والأهل . . . »

فكأنما هم في حلم . وكأن دعاءه قد شد شفاههم إليه فرددوه بغير وعى ،
مخافتين . . . ثم ذابوا خجلا . ثم نهافتوا حسرة ، والأقدام وللطايا تتحرك بهم
إلى الجنوب . . .

في سهوم ووجوم . وفي انكسار وكآبة ، راحوا يأخذون على شاطئ

الفرات صوب النخيلة صاحبة الكوفة ، حاضرتهم التي شهدت من أشهر يتمجلون
زحفهم إلى الشمال ليقطفوا النصر . . . فما أقرب اليوم من أمس ، وما أبعد
الحال عن الحال . . . إنهم ليسيروا سير الداهل ، لا يكادون يلقون بالالمن
يستقبل ولا لمن يودع . أفواههم تعي بالكلمة ، وعيونهم تثقل بالنظرة . حق
الطريق التي أقبلوا عليها إلى صفين قد مالوا عنها ، وأخذوا غيرها أخرى ، كأنما
أخجلهم أن تشهدهم وهم على مثل فشلهم ، وتهاوى أيدهم وعزمهم ، وتفرق
رأيهم وهي التي من قبل شهدتهم وعزمهم منيع ورأيهم جميع . . .

واجتازوا هيت . وبلغوا صندوداء . . . وذهب مساء ، وجاء صباح . . .
عندئذ انتفضوا أحياء . . . تدفق الدم في وسائل الدمي المنحوتة ، وفي أطراف
الظلال . . . إنهم الآن قطعوا شوطهم . بلغوا آخر المراحل . . . فها هي النخيلة .
ها هي من ورأها آيات الكوفة تلوح لهم كالبعق الشهباء في ثوب النور . ها هي
وجوه أقوامهم ، تكاد تطالمهم في أخيلتهم الكا . . . سامية زارية . . . وهل
هي إلى سوية أو بعضها ثم يلقون الناس . . . ويسمعون لوما أو يسمعون
سخرية . . . ويرجهم عويل هنا وعويل هناك . فما الذي تراه أعدوه لقاء . . .
لا الصمت يجدي عليهم ، ولا الوجوم يغني عنهم . . . هذه شفاههم تنفرج .
وصدورهم تضطرب . وعقولهم تصطنع وتعمل المشاعر المدفونة في أعماقهم
تمزق الأكفان . الخواطر الحبيسة في أذهانهم تكسر الرجاج . الكلام المخنوق
في الحلق راح يتشكل همسا : فلغطا ، فطنينا ، فتصايحا وصرخات . . .

وعنف النقاش . . . فرغ الآن همهم من مشقة السفر ، ومشغلة الوجوه التي
نحلم إياها ارتدادهم الفاشل عن صفين ، وانبسط حيالهم من زمانهم فراغ تستطيع
السنهم المنهومة للجدل أن تتسابق فيه ، وأن تشتبك ، وأن تتصارع — فلا بد
من حجة يسوقونها للناس ، وعذر يسترون به أوبتهم التي عادوها على استحياء . . .
ولقيهم عن مدخل البلدة ابن وديعة الأنصاري : فأسرع يستقبل الإمام ،
وأسرعوا هم يرجئون مهاتراتهم ، ليصفوا في حديثه إلى ما قد يدلهم على رأى
أهل حاضرتهم فيهم . . .

ويسأله على :

« ما سمعت الناس يقولون في أمرنا هذا . . . »

فيجيبه الرجل :

« منهم للمعجب به ، ومنهم الكاره له . . . والناس كما قال الله تعالى :

ولا يزالون مختلفين . »

« فما يقول ذوو الرأي ؟ . . »

فيتردد هنيهة ، متحرجا ، قبل أن يقول :

« يقولون إن عليا كان له جمع عظيم ففرقه ، وحسن حصين فهدمه ، حتى

مضى يبنى مثل ما قد هدم ، وحتى متى يجمع مثل ما قد فرق ؟ . . . فلو أنه كان

مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه ، فقاتل حتى يظهره الله أو يهلك ، إذن كان

هو الحزم . . . »

هنا يظهر الغضب في وجه الإمام ، ثم يتلوه أسي ، ثم تنطلق عينه تومئ إلى

الجموع العائدة معه ، أو العائد معها إلى حيث أرادت ، ويقول بنبرة صرة وهو

يقلب كفيه من عجب :

« أنا هدمت أم هم هدموا . . . أنا فرقت أم هم فرقوا . . . »

ويعضى وجهه . . .

ويعود اللفظ والطنين والتصايح . . . صحا في جيشه الخلاف بعد أن نام .

وأقبلوا فيما بينهم يترامون ثانية باللوم والشتم ، ويتراشقون بالدعوى والتهم : هذه

الحائمة الخزية التي انجلت عنها صفين قد جرهما عليهم هذا الفريق ! — كلاب

ذاك ! — كلاب أولئك الذين ترجحوا بين الفريقين لا يقرون ولا ينكرون . . .

والتهم تحشد . والدعوى تكس ، والفري تكتال بالكيل الأوفى وليس فيهم ،

مع هذا كله ، رجل واحد إلا نزه نفسه من الوزر وألقى بالتبعة على كاهل

سواه . ولولا ما كان بهم من إعياء الرحلة ، ولولا دنوهم هذا من الأهل والعشيرة

لكانوا احتكموا حينذاك للسيوف والرماح بدل احتكامهم للعصى والسياط ! .

أجل . فلقد وسعهم أن يتشائموا ، ويتنابدوا بالألقاب . ووسعهم أن ينزو

بعضهم على بعض فيضرب بعضهم وجوه بعض . وأوشك سلاحهم آونة أن يتشابك

ويتلاحم . لم يتلوموا هنية ولم يستشعروا حرجا أن كان الإمام فيهم فما يخرجهم شيء ، ولا يكنهم شيء . أفلم يهدروا هناك ، على رمال صفيين ، كل العواطف الكريمة : حنان الأبوة ، ووفاء البنوة ، وحتى ذلك التعاطف الذي يؤلف دائماً بين الرفاق في السلاح ؟ . . .

مرة ، وثانية ، ومرات تلاحوا وتشاموا وتضاربوا وهم على الطريق للكوفة . ولم تشهدهم البلدة من بعد إلا عدوين . ولم يستقبلوا أبوابها إلا فرقتين على خصومة جامحة . وعندما أخذت مطيهم وأقداعهم تطأ مدخل الكوفة ، كانت فرقة منهم تصبح بخصيمتها :

« ويحكم . . . فارقتم إمامنا ، وفركتم جماعتنا ، و . . . »
فإذا الأخرى تزار :

« يا أعداء الله . . . أدهنتم في أمر الله ، وحكنتم . . . »

ثم تنحرف بجمعها عن الصفوف العائدة كأنما يضاهيها أن يحتويها وإياها مكان أو بجمعها طريق . . . تنحرف في لجب وضجيج إلى قرية حروراء تلوذ بها عن هذه الحاضرة التي يعود إليها الإمام والذين تابعوه . فلما لها معه مقام . فرقهما الرأي فليفرقهما للوطن . . .

ويحزن الإمام . ويمضي بصفوفه الباقية في دروب حاضرتة والألم يعصف برأسه ويربح خطواته . . . في صمت أجوف يسير . ومن ورائه لا تزال تدوى كالطبول صيحات هذه الفئة الخارجة عليه من أصحاب حروراء . . . تدوى صاخبة هادرة ، غاضبة ثائرة بهتاف أكثر من عشرة آلاف لسان :

« البيعة لله . . . البيعة لله . . . »

ولكنه لا يزال صمته ، ولا يروض نفسه على النطلع نحوها إلى الوراء . . . إنما ينطلق قدما ، إلى منتجع المنتظر بالكوفة ، بصفوفه الصامتة كصمته ، الأسبانية كأساء . . . في وجومه الحزين ينطلق ، وثيدا وثيدا ، خطوة خطوة . حتى إذا طالعته القبور بظاهر البلدة ، ضيق الخطا ، وخفف السير ، وانقشعت سحابة الوجوم لتفسح لصفاء الخشوع على محياه . . . فهاهنا دائما الخاتمة ، في حفرة كهذه الحفر . . .

هنا تصغر النفس حق تفنى ، ويرق الجسد حق يشف ، وتذوب الخلافات والأطماع . . . هنا تصبح الحياة عبرة . . .
ويقف يخاطب ساكنى ذلك القفر ، فى هدوء :
« السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة ، والمحال المفقرة . . . أنتم لنا سلف فارط ، ونحن لكم تبع ، بكم عما قليل لاحقون . . . »
ثم يرفع وجهه إلى السماء ، يناجى ربه بالرجاء والضرعة :
« . . . اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز بمعرك عنا وعنهم . . .
طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن الله عز وجل بذلك . . . »

٢

عادوا من وادى الموت ينسابون إلى قلب البلدة انسياب الأنهار ، بغير ضجة ولا هرج ، فالأرض تحتمهم خرساء لا تستجيب لوقع الأقدام . وكانت عودة هادئة ، لينة كأنما مشوا على ريش . ولكنها كانت أيضاً حزينة ، فأينا خطوا كان بكاء . وأينا كانت أدمع لاحت الأعين من وراء غيومها الرقيقة كسيرة ذابلة وهي تجول من صفوفهم فى ثغرات فارغة كان يملؤها أمس القريب أحباب وإراهم التراب الندى فى صفين . . .

وكانت البيوت كالهجورة . وكانت الطرقات موحشة وإن غصت بالرجال والصبية ، فالبكاء صامت والأنين مكتوم . من هنا تند زفرة ثم يستردها التجلد . من هنا تبدر أنة ثم تغرق فى الصمت . وراء هذا الجدر لواعج ذاهلة ، لا تعربد ولا تصيح ، والجيش يسير فى تراخ ، ثقيل الخطا ، ثقيل القلوب . . .
لكن غاشية الصمت التى لفت الكوفة لم يتح لها حينذاك أن تدوم . كانت مثل غيمة من غمام الصيف بددتها خفقة ريح . . . الدمع الحى ينطلق .
الخلق تنفسح للنفس . الصدور تضيق بالأنين . كلما تقدموا على الطريق أوغلوا

في الحزن . وكما أوغلوا سكنت الصمت وتحدث التجمع نطق القلوب للتجلدة بالمواجه ، فكان صياح وكان عويل

ويرتج الجمع . وتضطرب الخطا والبكاء في هذا الحى قد زلزل نعتهم مواطئهم وهز عمد النضاء ويرفع الإمام عينا عاتبة ، فيها شعاع من الرثاء والمرحمة ، إلى رجل من أصحاب الطريق بلفاء ويقول في عطف مشوب بإنكار :

« أين بكم نساؤكم ؟ . . . ألا تنهونهن عن هذا الرنين ؟ . . . »

فيدارى الرجل من حزنه في حياته ، ويجيب بخفوت :

« يا أمير المؤمنين . . . لو كانت دارا . . . أو دارين . . . أو ثلاثا قدرنا على ذلك . ولكن — ليس دار إلا فيها بكاء . . . »

ويطرق الإمام . ويسكت الرجل هنيئة وقد هاضه أن يسير في الحديث ، ويرضى إلى الأرض عينيه حتى إذا وسعه بعد قليل أن يرفع بصره كانت على أطراف أهدابه قطرات أدمع مستحبة

ثم يكتسى التجلد يهز رأسه كأنما لينفى عن نفسه وأهل حيه الخور والتهافت والتسليم للنجيمة . ويضغط بأسنانه على شفته السفلى مغالبا عاطفته ، ويقول وهو يرسم على ملامحه المكتئبة أطيايف بسمة مشرقة :

« . . . أما نحن ، معشر الرجال ، يا أمير المؤمنين ، فإننا لا نبكى

ولكن ، نفرح . . . نفرح لهم ألا نفرح لهم بالشهادة ؟ . . . »

فيأسى على له . ويربت ظهره مواسيا ويقول وصوته الهادى يذوب حزنا ورحمة :

« رحم الله قتلاكم وموتاكم »

وإنها لرجاء ودعاء : الرجاء الذى يملكه حى لميت ولا غاية بعده لأمنية أو رجاء ، والدعاء الذى ينتظره ميت من حى ولا رقية غيره لمتلف على دعاء وإنها بعد هذا لعزاء

ويعضى الإمام صابراً محتسباً ، تخب به دابته . ويعضى الرجل ، متصبراً يسير في جواره . فإذا على عنده هذا يكبح دابته فتقف ، ويخاطب هذا الرفيق المحزون :

« ارجع . . . فإن مشى مثلك مع مثلى فتنة للوالى ، ومذلة للمؤمنين . . . »

ويأخذ سيده وجيشه إلى القصر . . .

غير أنه لا يبلغه إلا وقد غدا هدفاً للمزة من هنا ولمزة من هناك . فما سلم من
لحى القوم ، ولو من لومهم هم الذين أولى بقبليته وعذله وقد جنوا عليه
ثم يوشكون أن يسلموه يومهم وغدهم لقبضة مصير مؤلم رهيب ... ولكن الناس
هم دائماً الناس ، يترصون بالمهيض الدوائر وإن وطأوا له للزاق تحت قدميه ...
وها هو رجل من القوم يسخر ، لا يرده عن السخرية ذوق ، ولا تكفه عنها
محنة جدية بالرتاء والتهوين ، يقول هذا الساخر في غير حياء :

« ما منع على والله شيئاً . . . ذهب ثم انصرف في غير شيء . . . »

ويقلب كفيه ويهز رأسه . وتسرى كلماته الجارحة ، دون أن يدري ، إلى مسمع الإمام فيلتفت إليه بنظرة زارية يغيض لها الدم في وجنة الماذل المجترء ، ثم يقول لأصحابه :

« وجوه قوم ما رأوا الشام العام ١ . »

فقد عدل وهو قاعد ، ولام وهو بقوده أحق باللام . ولكنها الألسن التي
تصيد الهنات ، والأعين اللوكة بالتطلع إلى ذرة الغبار في غيرها وفيها هي من
القذى مثل الأعواد ؟ . . . وم غير هذا الناقد قالوا كقولهم وكانوا قومدا لم يبلوا
مع الإمام في كفاحه الدامي ، ولم يعانون عناءه ، ولم يؤازروه ؟ . . . وم غيره أيضا
من الذين ارتادوا حقل الهلاك والنصر قد أضلتهم غفلتهم فذاقوا من الهلاك حق
تحموا عن النصر . . . كم من أولئك وهؤلاء يلحونه أو يعادونه وأجدر منه بهذا
اللعى وهذا العداء أنفس لهم مريضة أو غبيدة قد أوهنت من أيده أو قهرته على
إهدار نصره هناك على ثرى صفيين ثم تأتي هذه اللحظة إلا أن تأخذه ، وهي
ظالمة ، يأبى وتحاسنه عليه . . .

ولكنه يصير ما له عن الصبر على الساخر والعائب والعائب سبيل عسى أن
تبيين الحقائق فيرشد الغواة إلى هديه إنما القدي أهمه وحز في نفسه تلك الطائفة
الغالية في مشاققتها ، التي رافقته في الخروج وهي أمعن ما تكون غلوا في الانتصار له ،
ثم رافقته في العودة وهي أمعن ما تكون غلوا في الإقتضاض عنه ، ما لها انمازت

إلى حروراء ؟ . . . أى الأمور تنسكركه منه ؟ . فبم خروجها عليه حين مرجعها وهي أخرى بأن تبدى له من ندمها وتوبتها عما فرط منها هناك ، بساحة المعركة ساعة الفصل ، فجر عليها وعلى إخوانها وعليه جميعا هذه العودة التي صارت مادة للسخرية واللامة ؟ . . .

أولئك الحرورية التوى بهم تفكيرهم حتى لتعبي في مرادهم الأفهام . هم اليوم يأبون التحكيم . وهم أمس قد قبلوه وغلوا في تقبله حتى أجبروا عليه الإمام أو يقتلوه أو يسلموه . وبين موقفهم هذين تفرخ الفتن وتنمو ، ثم تسمى وتميث . . .

غير أنه كان رأيا رأوه واعتنقوه اعتناق العقيدة للنزلة فلا فسحة لغيره في صدورهم الضيقة . هو القضاء الذي لا يبرم . تنزيل من التنزيل فلا نقاش فيه . . . فمن عجب وهم القراء ، وأعلم الناس بالقرآن — فيما يتبدون للناس — تضيق بهم مواطنهم . ويختم عمى عصبيتهم الذهنية على قلوبهم حتى يغيب عنهم أن أولى وسائل الدعوة للرأى ، كما يرسمها الدين ، هي للموعظة الحسنة التي توفر حرية المناقشة ثم تقود إلى استخلاص أرجح الآراء ، وأثبتها للحجة ، وأجدرها بمد هذا بالاتباع . لكنهم كانوا كما تحدث رسول الله عنهم ، ذات ساعة استضاء له فيها الغيب : « يتلون القرآن لا يتجاوز تراقيهم ! » . . . وهم الآن يتلونه ويلحدون فيه . ويتأولونه بما يعتسف لهم من المعانى غير ما تطبق آياته جريا وراء غاية لهم رسمها هواهم ، وتأبيد الرايهم المشبه الخبيط ، وها هم أولاء تعصرهم كزازة عقولهم في مثل كهف مظلم ضيق لا تنفذ إليه لمحة من شعاع الإدراك ثم يحسبونه طلاقة العلم والمعرفة . . . وإذا هم بزعمهم هذا هم وحدهم أصحاب النور . وإذا رأيهم وحده هو الرأى . وإذا إيمانهم وحده هو الإيمان وكل ما عداه عمى وضلال . . .

كذلك زعمت هذه الطائفة صاحبة حروراء ذلك اليوم الذي باينت فيه عليا وأبت أن تساكنه بمكان . فهو عندها ومعاوية سواء ، كلاهما قد انحرف ، وهو والذين تابعوه ليسوا من الهدى في شيء منذ ارتضوا التحكيم فأقروا به مبدأ يهدم الدين لأنهم قبلوا أن يحكموا الرجال فيما لا حكم فيه إلا الله : وهو إذن أولى بأن يناديهم ، ويخلصوا طاعته ، ويخرجوا عليه . . .

كان هذا ما « هدام » إليهم تفكيرهم واشتهوا به إلى رأى قال كل الغلو ، مغرق كل الإغراق في العسف والخطأ والتخيف يوشك أن تعتنقه شريعة سوف تحدث أقطع فتنة أصابت الإسلام . وقد اعتنقته اليوم ، وستعتنقه شرارهم لا تزال نطفنا في أصلاب الرجال . وسيجنى الزمن بالأعصر فإذا الجيل بعد الجيل ينجم فيه لهذه الخارجية حزب لا ينى يألو الأمة الإسلامية من مشاقته ما يشيع بين أبنائها الفرقة والعداوة والدم . وإذا كان أصحاب حروراء الآن قد أبوا على الإمام إمامته ، فإنهم من بعد سيأبونها على كل رجل لأنهم لا يرتضون إلا دولة « دينية » بلا إمام على الإطلاق فلا تنازع فيها « للكبار » على السلطان . إنما الأمر فيها لله ، والبيعة لله .

استحدثوا إذن نظاما جديدا من نظم الحكم ، شعبيا مغرقا في شميته لا حاكم فيه ولا محكوم من الناس ، الكل في ظله رعية الله . . . واستبد بهم رأيهم هذا حتى أبوا أن يجعلوا على شريعتهم رئيسا منهم تطبيقا للبدا الذي استخرجوه . فخرقوس بن زهير أبي الرئاسة . وحمزة بن سنان أباه . وشرع بن أوفى امثل هو الآخر نهج صاحبيه . ولولا أن كانوا بسبيل حرب توشك أن تنشب بينهم وبين الإمام لأبى أيضا عبد الله بن وهب التزاما لما رأوا أن يأخذوا به الأمة جميعا من إباء الرياسات والإمامات . . . ولكنه عندئذ استحل لفرقة ما أراد تحريمه على أمته ، فقال لأصحابه حين عرضوا عليه الزعامة وألحوا عليه في القبول : « هاتوها . . . أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ، ولا أدعها فرقا من اللوت . . . »

وهكذا غدت « البيعة لله » شعارا لطائفتهم يلهجون به ويتخذونه دستوراً للحكم تقوم عليه « دولة مثلى » ابتناها لهم في خواطرهم الخيال . وعجيب حقا أنهم تنادوا به . وأعجب منه أنهم رأوا تطبيقه في الدولة الإسلامية وقد تبين لهم استحالة تطبيقه في مجتمع فتنهم القليلة للفتنة . ولكنهم مع ذلك استمسكوا به أشد استمساك ، وحسبوه دارثا عن الشعب الخلافات والخصومات التي يجرها تنازع « الكبار » على السلطان . وصورت لهم أوهامهم أنه أقوم للبداي والساتير

وأدناها إلى مقاربة الديث واتباعه لأنه يحق أمر الله ، ويجنب الناس طغيان الحكام . . .

ولقد عجب لهم على كيف تستمرى عقولهم مثل منطقة ثم تلج وتكابر ، وتأبى أن تستجيب لمنطق الواقع . فإذا بنا من بعد نسمعه يناقش مبدأهم ، ويطلعهم بهذه المناقشة على ما تحتمه ظروف المجتمعات الإنسانية في كل زمان ومكان ، وفي حقائق الحياة لا في سطحات الأوهام ، فيقول :

« ... نعم ، لا حكم إلا الله ، ولكن ، هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا الله ... إنه لا بد للناس من أمير ، بر أو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر . ويبلغ الله فيها الأجل . ويجمع به الفى ويقاىل به العدو . وتأمين به السبل ويؤخذ به للضعيف من القوى حق يستريح به بر ويستراح من فاجر ... »

هذه سنة الحياة وإن أبى معتزلة حروراء ، وإن أغلقوا عيونهم دون حقائقها ، وأصموا للمسامع عن دعوتها التى استجابت لها البشرية منذ درجت فى المهد حتى شبت وبلغت اليقاع . غير أنهم كانوا فريسة عناد أورثتهم إياه عصبيتهم العمياء لرأيهم للشبه الخيط ، فإذا هم دائماً يجمعون فى الفى ، ثم لا يزالون يجمعون ويخبطون كالعشواء حتى تحشهم مصارعهم جيلاً ناجماً وراء جيل . . .

٣

لمعتزلة حروراء ، مهما قيل عنها ، أن تعتنق أى المبادئ تراء فى نظرتها أمثل الدساتير . وأن تجعل منه القاعدة التى تبني عليها نظام الحكم الذى تعلم بتحقيقه وتحسبه أقوم النظم ، وأجداها على الجماعة ، وأولاها بالاتباع . وأن تدعو بعد هذا لنظامها ودستورها بكافة وسائل الترويج والإعلان . فما عليها أن تفعل ما لم تجر على حق الناس للشروع فى تقبل دعوتها بالحسنى ، أو رفضها بالحسنى . وما لم توقع بها بينهم فتنة . وما لم تخالف الدين . . .

من حق هذه الطائفة إذن أن ترى ، في الحدود المقررة ، ما تشاء ، وأن تدعو كما تشاء لأن هذا الذي تراه ، على أى حال ، رأى من الآراء له أن يسمع ، وعلى المجتمع أن يوسع له في الحياة مائتة للتمحيص والمحاكمة . فهذا هو الحرية التي تكفلها دائماً الشرائع ولا تقبوا بها العقول . . .

ولقد لقيت دعوة الحرية دائماً من على سعة الصدر ، وانتساح الأفق ، والترفق الذي ليس بعده ترفق بدعوة مثلها قد اعتسفت اعتسافاً لإهدار حقه هو والنيل من شخصه ومن دينه إمعاناً منها في مناهضته والانتقاص عليه ، ذلك لأنه كان « إنساناً » مثالياً قبل أن يكون حاكماً مثالياً ، يعرف ما لحرية الرأي من أثر في تجديد الأفكار ، ودفع الشعوب في سبيل التطور والارتقاء إلى الأمام ، والبلوغ بالإنسانية إلى حياة أفضل . كما كان يعرف أن كبت هذه الحرية أو إهدارها هو في حقيقته إهدار ظالم لآدمية الإنسان .

فعلى ما بدا من تلك الفئة من عصبية ذهنية عمياء ، ومن غلو في العنت والتجنى ، ومن ركوبهم إياه بالمساءة التي لا تقرها قط أساليب الجدل للنصف النظيف ، ولا وسائل الخصومة الشريفة ، ظل على دائماً يلاقهم بالحسنى ، ويقابل زعمهم بالحجة ، ويقرع الرأي بالرأي دون أن يضيق بعنتهم أو يعضل به تجنبهم عليه فيروضهم بما في طاقة الحاكم من ضروب الشدة والقمع والإرهاب . . . وحق عندما بلغوا من إبدائهم مبلغهم ، وتنادوا فيها بينهم بكفره ، وسلوا سيوفهم ينفون قتاله وقد أبوا إلا خلع ما له عليهم من طاعة . . . حتى في تلك اللحظة الحازبة التي أسفروا فيها عن إنكارهم عليه حقه في حرية الرأي التي مدها لهم ، وكشفوا عن عداوتهم للبيضة ، نراه يتعفف عن معالجتهم بشكيمة الحاكم ، ويترفق غاية الترفق فيقول لهم :

« إن لكم عندنا ثلاثاً : لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد . ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفىء ما كانت أيديكم مع أيدينا . ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا . . . »

ظل على هكذا من بدء اختلافهم عنه إلى أن شيوخها عليه حرباً عمياء متحفية كانت وبالا عليهم . فما كان عنهم لينال من سماحته . وما كان تجنبهم ليخرجه

عما التزم به نفسه من « مثالية » المعاملة ، لرفاق والأعداء سواء بسواء ، مثالية ترسم للبشرية نهجا مبيدا مستقيا إلى حياة فضلى فى ظلال المساواة والحرية والكرامة ، ومنذ انحازوا عنه إلى حروراء ، عند دخوله الكوفة ، قالها فيهم قولة لأصحابه لم يجد عنها قط :

« إن سكتوا عمننا ، وإن تكلموا حججنا ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم .. »
وكان يعنى أن لهم عطاء هم يعمهم جميعا به ما جنحوا للسلم . وكان يعنى أيضا أن رأيهم هذا الذى ارتأوا فى سياسة الحكم وفى شرعية التحكيم هو عليه هين لا يكاد يثبت لمنطقه إن هم تحدثوا إليه به ، لأنه كفى بأن يحاجهم فيحجهم ويغلبهم بالبرهان . وكان يعنى بعد هذا أنه لا سبيل له سوى مقاتلتهم إن هم عدلوا عن الاحتكام المنطق إلى المجاهرة بالخصومة المسلحة . . . كان يعنى كل كلمة قالها ، وبقي وفيا لكل عهد قطعه فيهم على نفسه ، ولم يكرهه أنهم نبذوه وغلوا فى شقاقه حتى تهاقوا بخلع سلطانه بغير حق ولا حجة لأنه عليهم بأن السكارثة حين تجيء لن تلقاهم إلا وهم لها وليمة . . .

ومع ذلك فلم يدعهم وما اختاروا لأنفسهم من غى دفعتهم إليه فى الحقيقة كزازة الدهن وأغرام به ضيق مسالك التفكير . إنما حرص كل الحرص على أداء واجبه نحوهم كاملا بأن يبصرهم ، ويعمل ما وسعه على انتشالهم من وهدة الخطأ الذى تردوا فيه فإن فاءوا إلى الرشدهم إذن منه ، وإن أبوا فليس عليه حسابهم وما هو عليهم بوكيل .

والواقع الذى نراه ماثلا أمامنا من خلال هذه المحنة هو أن الإمام لم يكن يعنيه أن يستقيهم إلى جانبه ليستعز بفرقتهم ويقوى بها على غريمه ، إن عادت نيران الحرب إلى الاشتعال ، بقدر ما كان يعنيه أن يجهد لهداية طائفة ضالة قادها عماها الدهنى للانحراف . فهو دائما أحفل بالمعنويات منه بالماديات وهو أبدا يقدم رياضة العقول وطب الأرواح على رياضة الجوارح وطب الأبدان . وهو فى حياته كلها ، بالعظة والقذوة ، وكان مهذب النفوس قبل أن يكون مؤدب الأجسام وعندما ترى طائفة كهذه من الجماعة الإسلامية التى انتهى إليه أمرها قد عنقت وأسرفت

في عنثها حق لتأول القرآن فتسوء تأويله ، فإنه إذن حقيق بأن يسارع إليها ليكبحها ويأخذ بحجزها أن تشرذ وتهاوى في النار . . .

وكان هذا هو الذي أهمه . فلقد يضيره — كرجل دولة — أن يخرج عليه من شعبه فرقة ، تشغب وتشق وحدة الناس . ولكن الأكثر ضيرا والأشق عليه — كرجل دين — أن يكون في خروجها هذا عليه خروجا على مقومات الخلق البشري السوي التي تدعو إليها الشرائع وتقيمها أساسا لمجتمع فاضل . ذلك أن دعوة الحرورية ، بخلاف بدعتها التي اعتسفت دستوراً مرعوماً للحكم الشعبي ، كانت في حقيقةها تنطوي على التنكر للوفاء بالمهود والمواثيق ، وعلى الحث في الأيمان ، وعلى الحث على « دكتاتورية » فكرية تكاد تحرم حرية التفكير وتعطل العقول ثم تدعها شلاء . . .

كل هذه السقطات أودعوها دعوتهم التي بدت ، لأول وهلة ، وليدة غيرتهم على حق الإمام وتساميمهم به عن أن يتناوله بالمناقشة فرد من الناس حتى ولو كان هذا الفرد حكماً اختاره صاحب الحق أو اختاروه هم متحدثاً بلسانه وناثباً عنه . فلقد أنكروا من على رضائه بتحكيم حكيمين ينظران في الخلاف الواقع بينه وبين معاوية ولم يكنهم أن يروا في رضائه هذا إقراراً منه بانسلاخه من حقه الثابت في الخلافة ، بل تهااتفوا بأنه « كفر » وانسلاخ من الدين . . .

ونكاد نجزم بأن نظرية « الحق الإلهي » في السلطان إنما نشأت في الإسلام من تلك اللحظة ولم تكن الدولة العربية من بعد بحاجة إلى استعارتها من فارس التي لقحت الفكر الإسلامي بكثير من جرائم ثقافتها . ولقد يلوح هذا الرأي على شيء من الغلالة . ولكن دعوة الحرورية ، في الواقع ، قد انفسحت لهذه النظرية فيما انفسحت له من النظرات والآراء . .

فما هي دعوتهم ؟ . . ومن أين استقوها ، أو إلى أي الأسناد أسندوها ؟
ولام تومي* وتقود ؟ . .

نشأت هذه الدعوة ، وما زالت القوى المتصارعة على أرض صفيين لم تبرحها عقب تنادى فريق الشام والعراق بالمرادعة ، واتفاقهما على إبرام وثيقة التحكيم . وكانت حينذاك خافتة . ولعلها لم تعد أن تكون فكرة طارئة فجأة قفزت إلى لسان امرئ متحمس قبل أن تنضج في ذهنه ، فألقى بها يمان مسخطة على هذا السلام الدليل المذل الذي حققته الوثيقة بديلا عن النصر العزيز للوزير الذي كان آتيا لا محالة مع صبر ساعة أو نحوها على الحرب . على أى حال لا نراها إلا بدأت نفخة من حدث تضطرب حمية الشباب في دماثة فيرتفع عن قبول سلم هي الهوان ، وينبعث غاضبا وأخاله يحملان وحدهما على صفوف أهل الشام حتى يقتلا على باب معاوية . فلفقد حدثنا التاريخ أن أول من نادى : « لا حكم إلا الله » حدثان صغيران من عنزة هما الأخوان « جعد » و « معدان » . . .

على أن نداءهما لم يمت بموتهما ، بل زاد جرسه علوا ، وزادت عبارته ذيوعا كأنما سقياء بالدم فترعرع وطال . . . ولم يكن عجبا أن يعلو ويذيع وله هذه « الرنة الدينية » الحقيقة بأن تسحر من القوم أسماع أناس يقرءون القرآن ، ويأخذون أنفسهم أخذا شديدا باحتذاء حروفه — فضلا عن نصه ! — احتذاء يعطل العقول ويشل الأذهان ويوفى بهم على شفاهاوية من الجلود الفكرى سحيفة . فما هو أن لفقوا اسم الله في النداء حتى ألقوا إليه القلوب والأسماع . وما هو أن تبينوا عباراته حتى رددوها ترديدا ذاتيا كأنه رجع الأصداء . وما هو أن خالط أفواههم حتى خاصر عقولهم وأفئدتهم فسكرت به ، وغدوا منه في « غيبوبة دينية ! » حاجزت بينهم وبين الروية وسلامة الإدراك . .

تلقف أولئك القراء نداء الأخوين جعد ومعدان . وكلفوا به ، وهاموا هياما شديدا بجرسه الديني فأخذوا يرددونه ، ويدعون إليه الناس بساحة صفيين ما شاء لهم الدعاء والترديد . . وكان طبيعيا ألا يعدموا له نصيرا في صفوف أمثالهم من ذوى الجباه السود . وكان طبيعيا أيضا أن تلتف بهم طائفة من غيرهم من الذين كانوا يرون البقاء على الحرب وأنكروا الصحيفة وما أقرت من سلم غزوية ذليلة . كان طبيعيا أن يحدث هذا ، وأن تنجم الدعوة الجديدة كقرن اللاعز ، وأن يغدو

النداء الذى أنجبته — فيما نرى — فكرة طارئة فجأة ، مبدأ براقا يروجون له ، ويعصبون عقولهم وقلوبهم به ، ويناضلون عنه وهم يبتشونه مهينين له من الأسناد والدعائم ما يقيمه راية عالية ، وإنهم لا يربح لقادرون على إسناده ودعمه بما فى طاقاتهم المرنّة من أدوات الجدل والتخريج واللكايرة . . .

لهذا نراهم لا يكادون يبرحون أرض الواقعة حتى يكون مبدؤهم قد لبس بالدين ولف به تليفاً أخفى وراءه النخوة والحماسة وحمية الشباب المتقدة التى حركت شفاء جمع ومعدان بالنداء . فهو عندهم مثل نص منزل . وهو عندهم دين من الدين . وبعد أن كانوا يرون الشرك كل الشرك فى إباء أهل العراق الاستجابة للاحتكام للقرآن عندما رفع أصحاب معاوية مصاحفهم ، وبعد أن جاهدوا هذا الشرك بالسنتهم وأسيانهم حتى حملوا علياً ، وهو صاغر ، على التسليم بالتحكيم . بعد هذا وذلك يعدلون عن نظرتهم الأولى ، فإذا الشرك أن يبقى على عليها ، وأن يبنى بموثقهم وموثقه . وإذا الإيمان أن ينكث بعهد ، وينقض الصحيفة ، ويعود إلى إنشأ القتال الذى أوقفوه . . .

كان رأيهم الذى ارتأوه واستمسكوا به أشد استمساك : أن الله أمضى حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا إلى وحدة الأمة ، ولا معدى عن أحد هذين الأمرين فى منطق كتاب الله . . .
وكان سندهم هذه الآية الكريمة :

« وإن طائفتان من المؤمنين أقتلتا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تنفى إلى أمر الله . فإن فأت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما للمؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

فمعاوية وأصحابه بغوا ، واستنفدت معهم وسائل الاستصلاح ، وقوتلوا على بنوهم فليس عيب عن أن يفيثوا إلى طاعة غير مشروطة ولا مختلف فيها ، يؤدونها صاغرين . . .

ذلك حكم الله .

أو ذلك حكمه الذى ينهيه أصحاب حروراء ، ولا مجال بعده لتأويل . . .

٤

تساءل فريق من قراء أهل الشام عن الخلاف الذى رأى أهل العراق حربهم به ، واستحلوا عليه دمهم ، وإنهم جميعا — أولئك وهؤلاء — مؤمنون بالله وكتابه فلا ينبغي أن تكون بينهم فتنة مسلحة . . . وقالوا :
« نحن قوم نقرأ القرآن وليس يخفى علينا منه شيء . فأفهمونا الأمر الذى استحللتم عليه دماءنا . . . »

وكان هذا بعد تداعى الفئتين للهدنة ، واتفاقهما على تحكيم حكيم فيما اختلفا فيه . . .

وأجابهم قراء أهل العراق :

« فارقناكم فى تفسيره ولم تفارقكم فى تنزيله . . نحن وأتم نشهد أنه من عند الله . . . »

ثم قال بعضهم لبعض :

« هم يمرضون كتاب الله بيننا وبينهم ، ويسألوننا حجتنا عليهم . وإنما هم صادقون أو كاذبون فى نيتهم ، وليس لنا عذر فى إنصافهم . . . فإنما نطلب الحجة بعد العذر ولا عذر إلا بيينة ، ولا بيينة إلا بقرآن أو سنة . . . »

وعلى هذا الأساس قام التحكيم لأنه الوسيلة التى تلزم المخطئ خطأ وتعمله فى الرجوع للصواب . فهو فى حقيقته لا يعدو أن يكون استنباء كتاب الله حكمه فى الخلاف بينهم وبين أخصائهم ، يتم به الإعذار ، وتبليج به البيينة . وإذا كان القرآن « حملا » تنسع نصوصه — فى مجال المجادلة — لأكثر من تأويل ، فلهذا حكموا حكيم عارفين به ، ليتفقا على تفسيره بما يرضى الله ، أو ليحكموا بالسنة الهادية إذا فاتهما هذا الاتفاق . . .

كان هذا هو الهدف من التحكيم ، على الأقل فى رأى قراء الطائفتين إذا أغضينا عن الغايتين السياسية والحرية اللتين استترتا وراءه وكانتا للطمع الحقيقى لمعاوية وابن العاص والخلاصة من رجال حزبهما المقربين . وكان هدفا لا يختلف

بقدر ما يتفق ، والدين . فالتحكيم مبدأ شرعى ، منه الله عسى أن يأم به صدع وتمنع فرقة . منه فى الصيد حين الإحرام . ومنه فى الشقاق بين الرجل وزوجه . ومنه فى النزاع بين طائفتين من المؤمنين وما كان لقراء أهل العراق أن ينكروه ، أو يتنكروا لدعوة أهل الشام به ، وقد قرأوا فى كتاب الله عنه ما يحثهم على الأخذ به .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . . . »

وقرأوا أيضا ما يعير به المنكرين له والمرتابين فيه :

« . . . أفى قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون . . . »

وقرأوا كذلك أنه يوشك أن يكون علامة من علامات الإيمان :

« . . . إنا كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون . »

كل هذا قرأوه ، وعلموه ، وأصروا إصرارا ملحاحا على العمل به حتى لنجد عصابتهم القارئة ، ذات الجباه السوداء ، وفيها زعميان من زعماء الحرورية هما مسعر بن فدكى وزيد بن حصين ، تأبى الإباء كله على أن ينصح لها ، وأن يبصرها بخدعة معاوية للستره بالمصاحف للرفوعة ، ثم تعنف به أعق عنف واطله لينزل عند رأيها ويقبل التحكيم . . .

وكل هذا أيضا تنكروا له وعابوه . أو هم أنكروه من أنفسهم . — وما زالوا هناك بساحة صفين — واعتبروه معصية يحق عليهم العدول عنها ، والتوبة منها ، وإكراه على بكل وسيلة على العدول والتوبة . . .

بمثل هذه السرعة قبلوا التحكيم ثم عادوا فرفضوه . وبها أكرهوا عليا على قبوله ثم ارتدوا يكرهونه على رفض هذا القبول . وهم حين فعلوا لم يجدوا عن نظرة لنظرة ، ولم يستبدلوا رأيا برأى . إنما كانوا فى الحقيقة يتنكرون لحرية الرأى فى ذاتها ما دامت هذه الحرية من حق سواهم كأنما رأوا حقاً لم دون غيرهم

من الناس أن ينجروا العقول إلى حيث يريدون ، مرة إلى يسار ومرة إلى يمين ، بلا موجب لهذه القفلة الفكرية إلا أن يسخروا الأذهان ويحملوها ذيلاً لتقديرهم للضارب الخائر .

الواضح أن معتزلة حروراء كانت مترجحة الرأي منذ سمع لها صوت في سياسة الأمور . فلم تثبت أبداً على رأي ، ولم تقطع أبداً في شأن من الشؤون العامة التي كانت تشغل آنذاك بال الجماعة الإسلامية قطعاً للتثبت المستيقن . إنما كان حالها حال أمثالها ممن يعنيتهم المظاهر دون الجوهر ، وتستخفهم السطوح والقشور دون الأصول والأغوار . وكأني بهذه المصيبة الذهنية التي كانت طابعهم قد اكتسبها بحيلة رعناء ، ككرة للطايط ، تقفز بهم من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا ، كلما اصطدموا بفكرة طارئة ثم لا تكف عن القفز ما طرات لها في طريقها للضرس الأفكار . . . وفي خلال ذلك العام الذي كان عمر علاقتهم للضطربة جلي ، والذي اتفق بينه وبينه صفيان والنهروان ، كثر ترجيحهم بين الآراء ذات الطلاء والرنين وكانت لهم بدوات تستطير العجب ، تفصح عن حيرتهم الذهنية وقلقهم الفكري أيما إفصاح . . .

ونجمل ذلك القلق بإقصار فتراهم يمللون للمصاحف ويلبسون دعوتها الصامتة للموادعة والإصلاح لأنها ، فيما يرون ويعتقدون ، دعوة «قرآنية» حقيقة بالتولية وإلقاء السمع بهمون معها عليهم أن يستقضوا الإمام حياته — أو حرته كأهون جزاء — إن هو خالفهم وأصر على ما كان يريد من موالاة القتال . . . ثم تراهم أيضاً يسرفون عليه فيسكروهونه على قبول أبي موسى ، حكماً عنه وعنهم وعن طائفة أهل العراق ، غير آبهين شيئاً لرأي على وريثته في الأشعرى ، ولا لما سلف من تمرد الأشعرى وتشيطه عن على . وما أحسبهم قد أصرروا على اختيار هذا الرجل دون من عداه ممن رشحهم الإمام إلا لأنهم كانوا يرون في أولئك المرشحين دعاة حرب قبل أن يروهم دعاة رأي ، كما كانوا يرون في التحكيم وسيلة إلى «الله» تحقق ما تهدف إليه الدعوة «القرآنية» من سلام فأحق به إذن رجل سلام . ولعل حديثهم مع الإمام ، ومجادلتهم إياه عند ترشيح

الحكم تكشف لنا منهم عن هذه النظرة بجلاء . . . يجيئون فيملون عليه أن
« يختار » الأشعري وما له من عيى عن هذا « الاختيار ١ » :
« إنا لا نرضى إلا به ، فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه . . . »

فإذا أشار عليهم بآبن عباس أبوا وأغلظوا له القول . وإذا ذكرهم ماضى
حكمهم ازوروا عنه وعن الذكرى على السواء . وإذا عرض عنهم اسم الأشتر
تصايحت عصابهم . وفيها عندئذ زعيماهم الكبيران زيد بن حصين ومسر
ابن فدى ، وردت بإزراء وإنكار :

« وهل نحن إلا فى حكم الأشتر ١ . . . »

فيستفسرهم :

« وما حكمه ١ . . . »

وهنا يكشفون عن نظرهم :

« حكمه أن يضرب بعضنا بعضا بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد . . . »
وعلى الرغم مما بدا من حرصهم وتكالبهم على التذرع بالدين لإقرار دعوة
المصاحف ، والتحكيم ، والحكم جميعا فإننا لا نلبث — وما مضت عليهم أيام —
أن نجدهم أشد تكالبا على نقائضها وذريعتهم الجديدة لهذه النقائض هي أيضا
الدين ، نفس الدين ١ . . . فإن هو أن يهتف فتيان صغيران ، احتدمت في عروقهما
حميا الشباب ، وهزتهما الحماسة للحرب : « لا حكم إلا لله » حتى تنقلب
في خواطرهم للماير . فإن من بينهم جموع تردد الصباح . . . وإذا أحدهم ، عروة
ابن أدية ، يزار غاضبا لدينه : « أمحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال ١ » . .
وإذا « إيمانه ١ » يستخفه فينزو بسيفه على الأشعث بن قيس وهو يقرأ وثيقة
التحكيم حتى ليكاد أن يصصره جزاء وفاقا لأنه نطق عن الصحيفة بشير
ما يرضى الله ١ . . .

وقد يعجب المرء لهذا التحول فى موقف معتزلة حروراء إذ ذاك . ولكننا
نرى العجب آخر ما يمكن أن نتناول به تصرفاتهم ، كيما كانت أو انقلبت ، فى ذلك
الحين وفى غيرهم من الأحيان على السواء . ذلك لأن العجب ، فى الحقيقة ، ليس

سوى انفعال يصدر نتيجة لانحراف أى سلوك كان مقدورا استواءه وغير مقدور
شدوذه عن قاعدته وخروجه عن الاستواء ، بينما القاعدة التى التزمها هذه الطائفة
دائما — فيما اعتدناه من سلوكها — كانت الشذوذ . . . وبحسبنا أن نذكر أنها
بعد ما ارتأت من اعتبار التحكيم ضلالة ، واعتبار دعائه والمستعسكين به مشركين
بالله ، واستحلالها قتلهم إن لم يتوبوا عنه — بعد هذا كله نرى فرقة منهم ، غالية
في رأيها هذا الذى بيناه أشد الغلو ، تنطلق وعلى رأسها أيضا ذلك الزعيم مسمر
ابن فدي ، لتترضى الأشعث — وهو الناطق بالشرك والثابت عليه — وتعتذر له
عن نزوة عروة . . .

كان تفكيرها إذن خاطا ، وإيمانها بأرائها إذن خطا بلا تثبت ولا استيقان .
وما نرد هذا إلا إلى عصبيتها الدينية العمياء التى أكسبتها « حساسية » شديدة
تدفعها إلا الاستسلام لكل رأى يتصل بالدين ، ولو من بعيد ، ولو من ناحية
المظهر والصفة الشكلية ، وإن لم يكن من جوهر الدين رايه فى شيء . فيكفى أن
يقرن القرآن بكلمة عابرة ، أو يذكر اسم الله فى رأى طارىء ، ليخفوا سراعا
إلى تلقف الكلمة وتبنى الرأى ثم الجهاد عنهما ما وسعهما الجهاد ، بلا روية
ولا تدبر ، ودون أن يفسحوا السبيل لأى رأى مغاير ليثبت صوابه وخطأهم
ما داموا يحسبون أنهم وحدهم تفردوا بالصواب .

لهذا كانوا دائما يعنتون ، ويشقون على مجاديلهم كل مشقة ، فنقاشهم إماء ،
ورأيهم هو الرأى ولا حق لغيره من الآراء فى الظهور . ولهذا أيضا كانوا دائما
متدائبين يترجحون بين مختلف الآراء من النقيض للنقيض ولا حريجة عليهم —
فيما يظنون — إن ترجحوا ما بدت لهم فى هذا الرأى مسحة دينية لم تبد لهم فى
ذاك . . . هم حينما تشبث بفكرتهم وتشدد وصلاة تبلغ موات الجمود والصمم ،
وهم حينما آخر وهن وضعف ورخاوة تبلغ مهاوى التهاافت والاستسلام . ولا عجب
عندنا من ذلك فتلك شيمة كليلي النظرة الذين يعيهم تعمق الأمور وتستهويهم
القشور والظواهر . وما نحن أولاء نشهدهم يعنون فى التشدد غيب العودة من
صفيين ، فإذا بهم قد اعتزلوا عليا إلى حروراء وحرموا على أنفسهم مساكنته

بالكوفة لأنهم يرون في التحكيم غير ما كان يراه . وهام أولاء ، بعد قليل ،
يدعون تشددهم حين يستقيثهم منطقهم فيعودون راضين . حتى إذا حسب الناس
أن يده ويدهم جميعا على خصمه انبروا هم خصما يكيدون له ، ويهطمون إلى حربته
في غير تأثم ولا استحياء . ثم ها هي أخيرا جموعهم بالنهروان لا يكاد يطالعها
بحديثه حتى تنسأخ منها كثرة تنضم إليه ، وتبقى قلة على صلابتها العمياء ، تننادى
بشركه ، وتأبى إلا قتاله إلا أن يقر على نفسه بالكفر ويتوب . . .

ويأسف على . فلقد استنزف كل صماحته ، واستنفد حلمه وعلمه ثم تقطعت
جميعا به دون بلوغ شأوه من استصلاحهم وهداية نفوسهم للريضة . لها بالهم ؟ ..
ما طهرهم ، ما دواؤهم بعد كل هذا العلاج ؟ . بحسبه أن أسمع وبصر ، وحذر
وأندر ، فإنما وزرهم على أكفهم يلقون به الله . ولأن أمهله عمره منهم بعض إمهال
أن يلوك الندم والحسرة من بعد ، يوم لا يجدى ندم ولا تشفى حسرة ، وحين
ينشق الزمن عن مصارعهم ، وتقبل الدنيا وفي عيניה لهم دم وقهر وإذلال .

على أن أشد ما حز في نفسه منهم تلك القرية الغالية في الظلم التي جردوه بها
من إيمانه كأنما قد وكلوا بحساب القلوب أو كانوا فيصلا عدلا يفرق الهدى من
الضلال . فما خالفهم وخالفوه حتى أطلقوها بلا روية ولا تخرج . وما أطلقوها
حتى مضوا بها يعيدونها ما حلت لهم لإعادتها ، ويرددونها ما وسعهم التردد . وإنه
عندئذ ليعجب ، ثم يسخر ، ثم لا يملك أن يغضب ويثور :

« أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم آبر . . . أبعث إيماني بالله ، وجهادى مع
رسول الله أشهد على نفسى بالكفر ؟ . لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . . . »
ثم يكشفهم بذلك للآل الذى ينتظروهم ، ويخايل بصيرته من وراء المجهول :
« . . . أما إنكم ستلقون بمدى ذلا شاملا ، وسيقا قاطما ، وأثرة يتخذها
الظالمون فيكم سنة . . . »

ولقوا ما قال . فما نجم منهم قرن بعده إلا قطمه خصومه الذين مكنوا لهم بعنتهم
بالاستئثار بأمر المسلمين من دونه . وما اجتمعت فرقة فيها أقبل من الأيام على مبدئهم
الحبيط المختبل حتى استقبلها القهر ، يعالج فيها الرأى بالسيف ، والفكرة بالشفرة . . .

أما هو الذى ظلموه فلم يقابلهم قط بالشدة وله مندوحة عنها إلى الوعظة الحسنة .
إنما ظل يصابروهم ، وعلى لهم ، ويطاول عنهم وغيرهم عسى أن تتفتح فرجة في
أذهانهم ينفذ خلالها النور . . . فكم أسفر إليهم . وكم دعاهم إلى الهداية بالكلمة
الطيبة على لسانه وألسنة وفوده . وكم كف عنهم بطشه حتى عندما غلوا في شقاقه
وأمطروه موتا على مشافر الصوارم وأسنة الحراب والسهام . . .

٥

عندما أوفد الإمام إليهم ابن عباس بحروراء يفارضهم في العودة إلى الكوفة
والتزام جماعة الناس من طائفته ، حذره أن يحاجهم بالقرآن . فالقرآن « حمال »
تتسع نصوصه في مجال المجادلة للتأويل . وهم عصابة موالة بالجدل ، قد غرها من
أنفسها أنها قارئة لكتاب الله حتى لتحسب أنه إليها وحدها يقتضى تفسيره . ولن
تعدم وهذه حالها أن تتناول الآيات بالتخريج والتأويل لتسند رأيها وتزكيه . . .

ورأيهم عندئذ معلوم ، تهاقفوا به عقيب سطر الصحيفة بصفيين ، ثم ظلوا
ينشرونه ويدعون إليه . ولم يكن يضيرهم في شيء أن يقال عنهم إنهم هم الذين
أكروهوا عليا على التحكيم ، ثم على قبول حكم بذاته فرضوه عليه فكيف إذن
يعتبرون هذا التحكيم ضلالة . لم يكن يضيرهم هذا القول في قليل ولا كثير لأنهم
أقروا على أنفسهم بالكفر ، وأنكروا منها رأيهم ذلك القديم الذى انساقوا وراءه
حتى أنجب الصحيفة وما احتوت من اختيار حكمين لطائفتي الشام والعراق ،
ينظران فيما اختلفتا ، ويحكيان لإحداها وعلى الأخرى بالقرآن . فأما دعوتهم
الأولى إلى تحكيم الحكمين فشارك تابوا عنه ، وأما دعوتهم الثانية التى تفكر حتى
أيما امرئ كان في تفسير القرآن فهى ، فيما يرون الآن ، هى الصواب وغيرها
الخطأ الذى ينزل إلى وهدة الإلحاد .

والواقع أن نظرة الحرورية هذه عجيبة ، لا لأنها خالفت ما أجمعوا عليه من
قبل ، ولا لأنها أيضا لا تستقيم والنصوص القرآنية التى تبيح أنواعا مختلفة من

التحكيم ، ولا لأنها كذلك تعطل أو تجب ما في كتاب الله من آيات تحت المؤمنين على الاستجابة دائماً للدعوة له لالحذا كله المعجب منها ، وإنما لما تنطوى عليه من فكرة خطيرة ترى « تجميد » النصوص القرآنية بحيث لا تكون غير حروف وعبارات يؤخذ بها دون مدلولها ومعانيها الواسعة التي ليست في الحقيقة سوى « الكيان الحى » الناشئ عن تفاعل هذه الحروف والعبارات بالذهن البشرى .

لكن دعوة معتزلة حروراء ، حين تجردها ، نجدها تنادى « بالسطحية » . بمجرد « النظرة » إلى النص ثم بالتزام « العبارة » التي تلقفها هذه النظرة . أما إمعان النظر في النص حتى تنتقل « مرئية » الآية « وجوها » كله إلى الذهن ، وأما تفاعل الذهن بهذه « المرئية الكاملة » تفاعلاً يشير فيه أفانين المعاني والمشارع فليست لهم على بال . وما تحسبنا ، بحال من الأحوال ، متجنبين على هذه العصبية ولا متحيفين . فرأيها الذى ارتأته وكلفت به أشد الكاف ، وتخذته لنفسها شعاراً تلتف حوله وتندفع في رعونة مناضلة عنه هذا الرأى ، إذ ينكر تحكيم الرجال في دين الله ، إنما يحرم إنطلاقة الذهن في القرآن ليتفهمه ويستنبطه مدلوله الذى ترسم عباراته وأحرفه خطوطه الأولية ، كما يمنع استواء ذلك الكيان الحى متكفياً عنه بظاهر الألفاظ

ولقد يقول قائل ، وله لا ريب أن يقول : إن نظرة الحرورية تفسرها قولة عروة بن أدية صاحبهم الذى قال : (. . .) تحكمون في دين الله وأمره ونهيه الرجال ؟) فهى إذن لم تمن الدين على إطلاقه إنما اجتزأت منه بأوامر الله ونواهيه . وهى إذن حين تحرم انطلاقة الذهن في القرآن إنما تحرم عليها الخوض في كل (حكم) أوردته الآيات في قضية من القضايا ، أو مشكل من الأمور ، أو حد من الحدود التي يقصر عن علاجها وحلها الذهن البشرى ، فليس له إذن الحق في تناولها إلا لتطبيق الحكم قد يقول بهذا قائل فيوشك إذ يقول أن يردد نفس الذى رددته معتزلة حروراء ، ذلك اليوم ، على مسمع ابن عباس ، وكادت به أن تعضله أو تصيبه بما يشبه الحسر لولا أن أتبع له الإمام ليسقطه ، ويظهر بمنطقه على جدال المكابرين

وندع حديث ابن عباس إلى حين لنعرض لهذا الذي قد يقال فإذا الجواب عنه حاضر ، بالحرف والعبارة ، في نفس النص الذي اتخذوه سندهم ، ودون حاجة إلى بداهة ولا جدال . . . فالمعروف أن الآية التي تأولها الحرورية لتحريم التحكيم هي آية الإصلاح بين المؤمنين عند انقسامهم ، ووقوع الخلاف بين فريقهم وقوعا ينشب الحرب ويشب نار القتال . وهذه الآية تدعو من يستطيع إصلاحا أن يصالح أولا ليطفي الفتنة ، وأن يكون ثانيا حاربا على الفريق الباغي حتى يفل حده ويخضع ، وأن يعود ثالثا إلى الإصلاح بالعدل بين الخصيمين وقد تداعيا جميعا للسلم . . . نحن إذن من « حكم الله » في هذه القضية حيال ثلاث مراحل : أولاها مرحلة « الاستصلاح » والقتال ناشب : « وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا فاصالحوا بينهما » . . . وثانيتهما مرحلة « مقاتلة » الطائفة التي لا تستجيب لهذا الاستصلاح وتبغى على خصيمتها بغير حق : « . . . فإن بغت إحداهما على الأخرى قاتلتها التي تبغى حتى تفي إلى أمر الله » . . . وثالثتهما مرحلة « الإصلاح » التي تعقب فيء الفئة الباغية إلى الحق : « . . . فإن فاءت فاصالحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . . . »

هذه هي المراحل التي ترسمها الآية ؟ وتحدد بها ما يجب أن يكون عليه سلوك المؤمن حيال أية قضية مماثلة وهي مراحل ، كما نراها ، واضحة كل الوضوح ، بارزة الخطوط والمعالم في غير لبس ولا شبهة . وهي إلى جوار هذا وسائل عملية إيجابية ، تنكر ما عداها من الوسائل السلبية كالحياد والعزلة . وتوشك أن تحررها بمدلول المعاني لا بمنطوق الألفاظ . ويعضها استمساك على . وآخذ إخوة له في الدين ، من خاصة صاحب محمد ، كانوا جديرين باتباعها قبل غيرهم من الناس . فلقد دخل عليه ، ذات يوم بعد صفين ، سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، والمغيرة بن شعبة ، يطلبون عطاءهم منه . فإذا هو يبادرهم :

« ما خلقكم عني ؟ . . »

قالوا يعتذرون ، ويبررون ، تخلفهم بما قد يهون ما كان من قعودهم وسلبيتهم : « قتل عثمان ولا ندرى أحل دمه أم لا . . . » وقد كان أحدث أحداثا ثم

استبتموه فتاب . ثم دخلتم في قتله حين قتل . فليسنا ندري أصبتم أم أخطأتم ،
مع أنا عارفون بفضلك يا أمير المؤمنين وسابقتك وهجرتك . »
قال علي :

« أستم تعلمون أن الله عز وجل قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن
المنكر ، فقال : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت
إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله . . . »
فإذا سعد ينبري مملا حياده :

« يا علي . . أعطني سيفا يعرف الكافر من المؤمن ! أخاف أن أقتل مؤمنا
فأدخل النار . . . »

لقد كان سعد يقول دائما حين يخاطب في اعتزاله :
« إني سمعت رسول الله يقول : يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها
الحق التقي » .

ولهذا أثر أن يلتزم الحيدة مخافة أن يكون الخلاف الناشب بين علي ومعاوية
هو الفتنة التي عنها الرسول . . .
ورد الإمام وهو يخرج على أمر عثمان :

« . . . إن عثمان كان إماما بايعتموه على السمع والطاعة ، فعلام خذلتهموه
إن كان محسنا ، وكيف لم تقايلوه إذ كان مسيئا ؟ . . . فإن كان عثمان أصاب بما صنع ،
فقد ظلمتم إذ لم تنصروا إمامكم . وإن كان مسيئا فقد ظلمتم إذ لم تعينوا من أمر
بالمعروف ونهى عن المنكر . . . »
ثم عاد لما بدأ فأكمل :

« . . . وقد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم الله به ، فإنه قال :
فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله . . »

وما نسوق هذا الحديث ازدراء بموقف سعد ، ولا احتجاجا على المتخلفين
عن نصرة عثمان الذين أكثروا القول في أمره ، بعد مقتله ، تفجما عليه أو لوما
لعلي وريية فيه وهم قاعدون كلا ، فما نصروا حقا ولا ناهضوا باطلا . وإن أمرهم

لبين الخطأ أولا وآخرها حين اعتزلوا الفتنة التي شبت النار بين العراق والشام .
فلقد فاتهم في الأولى أن يعملوا بقول رسول الله : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »
فلم يشدوا على يد عثمان ليمدل إن كان قد ظلم الناس ، ولم يعزوا جانبه إن كان
قد ظلمه الناس . وفاتهم أيضا في الثانية أن يعملوا بقول الله : « وإن طائفتان
من المؤمنين اقتتلوا ... » فلم يسعوا بإصلاح ، ولم يقاتلوا الباغية . إنما وقفوا
في كلا الحالتين ينظرون ...

لكننا سقنا الحديث الذي أسلفنا دلالة على وجوب التزام المؤمنين خطة إيجابية
حيال الطائفتين المختصمتين تشوب بهما إلى الوفاق ، مراعاة كما تبين الآية هي
الاستصلاح والمقابلة والصالح ، أو هي بالألفاظ الحديثة : الوساطة والحاف وعقد
الصلح دون أن نجور في التعبير . فالدولة تختلف وأخرى خلافا يحتمل أن فيه للقوة
للسلحة . فإذا ثالثة تسمى بينهما لتكف الحرب ، فتعرض حلا سلميا ترى أنه
كفيل بنص الخصومة ، محقق للعدالة أو موافق لمقتضيات الظروف والأحوال .
وقد ترضى الدولتان . وقد ترضى واحدة وتأبى الأخرى . وعندئذ لا يكون عجبا
أن تحالف الثالثة هذه الراضية لتجاربا المتأبى حتى ترضخ ، ثم يعقد الصلح ليعيد
الوفاق ، ويضع الشروط التي تسمح للخصومة وتنظم العلاقات ...

بهذا تقول طبيعة الأمور . وبه يقضى ، دون ريب ، كل منطق مستوسلح .
وعليه نصت الآية الكريمة التي اتخذها معتزلة حروراء سنداً لهم بظاهرون به
نظرتهم وما هو لها — فيما نعتقد — بظهير . فما يمكن أن يتم صلح قبل وضع
شروطه ، وتنظيم دقائقه وتفصيله ، ورسم خطة تنفيذه ... غير أن القوم
شاءوا أن يصروا على رأيهم كأنما كان يكفي أن ينزع معاوية للصلح ليدخل فيه
دون شرط معلوم عليه ، وبغير جزاء — مادي أو معنوي — يؤخذ به الظالم ،
ويؤخذ به المظلوم ...

كل ما فهموه ، أو تأولوه ، من آية الطائفتين إذن أن معاوية وحزبه فئة
باغية ، حكمها في القرآن أن تقتل أو ترجع . أما كيف يكون رجوعها هذا ،
وما هي الشروط التي تنظمه ، وتضمن من بعد بقاء الوفاق والسلام ، ومن من

الناس يضعها ، فتلك كلها أمور ليس لها في ذهنهم مكان . . . وعجيب منهم ذلك الإصرار وهم أعلم الناس بأن معاوية ، حين تداعى وفتته للصلح ، لا يمكن اعتبارهم في حساب الحروب « مستسلمين » عن هزيمة حربية بقدر ما يصح اعتبارهم جانحين إلى « هدنة » أملها تصالح الأمور إذ يتلاقى خلال مدتها الرأي بالرأي ، وتقرب النظرة من النظرة ، فتصفو الأنفس ، وتخلص القلوب ، ويقع الصلح المنشود . . . ولئن أبت معتزلة حروراء إلا أن تراهم قد هزموا ، وتقطعت بهم وسائل الكفاح المسلح ، وألقوا بالسلاح وهم صاغرون . فثمة قبلهم في تاريخ الإسلام طوائف محقتها الحرب ثم لم يقض عليها بالتسليم دون شرط ولا مراجعة وإن حالها حين ذاك لأهون من أن تباح للمراجعة واشتراط الشروط ، وثمة غيرها أخرى أيسح لها التحكيم واختيار حكم ترضاه وما كانت هذه وتلك بالطوائف المؤمنة أو التي يرتجى منها إيمان . وما كان من أباها ما أباح « قارئاً » أو « عصابة من القراء » من أمثال معتزلة حروراء ، بل قد كان رسول الله . . . حدث هذا في غزوة بني النضير بعد نقضهم العهد بينهم وبين المسلمين . فلقد أرسل إليهم النبي ، محمد بن مسلمة ليقول لهم بلسانه :

« . . . اخرجوا من بلادى فلا تساكفونى . . . »

قالوا :

« نتحمل . »

فأبى عليهم أن يحملوا معهم شيئاً حين جلائهم . وغرم رأس للناقين عبد الله بن أبي بن سلول ووعدهم مؤازرته . فقاوموا أمر رسول الله ، ووقعت الحرب . وحاصرتهم جيوش المسلمين . فلما أن أضر بهم الحصار والقتال وعضتهم الهزيمة ، « صالحهم » النبي على الجلاء . وأجلاهم إلى الشام « على أن لهم » ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة والسلاح .

وحدث أيضاً في غزوة بني قريظة ما يتفق وما نقول . فقد خاتوا الرسول إبان وقعة الخندق فذهب إليهم بجيشه يوقع بهم جزاء خيانتهم وحاصرهم نحو شهر لم يروا بعده إلا التسليم ، وما كان لهم محيص عنه بغير الفناء . وعندئذ مشى الأوس إلى محمد في أمرهم تشفع لهم إليه :

« يا رسول الله ، إنهم موالي لنا . . . »

قال ، وقد قيل :

« ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ »

قالت الأوس :

« بلى . »

قال :

« فذاك سعد بن معاذ . »

ورضى بنو قريظة ، أو هم كانوا الذين اختاروا سعدا ، وقالوا :

« نزل على حكم سعد بن معاذ »

هاتان حادثتان نريانهما أنه لا ضير في « المصالحة » وما تعنيه من عرض شروط
للمصلح من فريق ومراجعة منها من الآخر حتى يتم بينهما الاتفاق على الأخذ بها
بدون تعديل ، أو بعد تعديل ، وأنه لا ضير أيضا في تحكيم حكم يرتضيه الفريقان
ليبلغا به الفصل في النزاع . لا ضير ، بحسباننا ، في هذا ولا ذاك وإن أصرت
الحرورية على خلافه ، وملأت الدنيا لجاجا وعنادا وعنتا أورثت فتنة ما كان
أغنى للمسلمين عنها لولا جمود الأفهام . . .

ونعود الآن إلى ابن عباس . . .

فما كان حظه منهم عندما أرمه إليه الإمام ؟ . . . وما كان قصارى جهده
وشأو منطقته وهو صاحب اللسان الإزعيل الذي لا يغلب في مقام جدال ؟ . . .
الحق أنهم أعيوه أو هم على الأغلب الأعم أصابوه بالحسر أو أوشكوا أن
يصيبوه . فلقد أعجبه حبه الجدل إلى مجادلته مع ما سلف من قول ابن عمه له
حين أوفده : « لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك » . . . وقد استخفه
علمه بالقرآن بجادلهم به مع ما سلف أيضا من نصيح على له ألا يخاطبهم بالقرآن
لأنه حمال . . . وشهدته عندئذ حرورا يناظرهم فإذا هم يتيهون به في بيداء من
النقاش . وإذا هم يلقون من لسانه حجة عليهم فتكون حجة لهم عليه . وإذا
هو بينهم محصور أو محصور حتى يخف إليه الإمام . . .

٦

تجاوزوا ، فأثاروا في ابن عباس نهمه إلى الجدل . فإذا هو لا يصبر ولا يطيق
الانتظار . إنما يراجعهم :

« ما تنقمون من أمير المؤمنين ؟ . . »

قالوا :

« تحكيمه الحكيم . »

« وما نقيم من الحكيم وقد قال الله عز وجل : إن يريد إصلاحا يوفق

الله بينهما ؟ »

ومضى الرجل يستعين علمه ليظهر لهم شرعية التحكيم في أمور غير ذات خطر
كبير ، فكيف إذن ينكرونه وإنه الآن لأحق أن يتبع في أخطر محنة تمر بها
أمة الإسلام ؟ . .

وأصغوا له . إن الجدل يأخذه . إن حماسه لردهم إلى ما يراه صوابا تنسيه
حذره . إنه ليطوف بالقرآن ، وقد أغفل نصيحة ابن عمه ، يتلو منه على أسماعهم
آيات توجب التحكيم أو تجيزه في هذا وذاك من خلافا فالله تعالى يقره
بين الرجل وزوجه فيقول :

« . . . وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها ،

إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما »

والله تعالى يقره عند الإحرام فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا

فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة »

لكن المسألة عند الضرورية ليست مسألة قياسية . إنما هي مسألة « النص »

بالحرف والكامة . ويبدو أن ابن عباس قد أخطأ تنهم أذهان أولئك الذين
ي ناظرهم ، وما طبعت عليه من كزازة وسطحية يحصرانها من طلاقة الفكر
في أضيق الحدود ، فجاءها من حيث كان جديرا به ألا يجيء وكان بهم زارون

عليه يقتحمون منطقهم وإن صابروه يسمعون . فأية الطائفتين التي اتخذوها سنداً يظهر نظرهم لم تنص باللفظ على حكم ولا تحكيم . وهي حقا تقدم الإصلاح بين الطائفتين للتخاصمتين ولكنها توجب بعده مقاتلة الباغية منهما قتالا يجعلها تفيء صاغرة إلى أمر الله . ولفظة « حق » تعني موالاة القتال إلى غايته ، وما غايته إلا النفي ، وما هذا النفي في رأيها إلا التسليم . . .

توشك معتزلة حروراء أن تمضي في تفكيرها على هذا النحو وابن عباس أمامها يجهد لتجسيم رأيه ، وعرضه عليها في ثوب بياني خلاب يكتنفه القرآن في جوانبه وحواشيه ، ويوشك ابن عباس أن يحسبها جانحة إليه بعض جنوح ، مقتنعة بمجده بعض اقتناع . لكنها لا تقتنع ، ثم لا تجنح ولا تميل ، ثم لا تكاد تأبه قليلا بمنطقه هذا الذي أساسه القياس دون النص السافر بالكلمة الصريحة وبالخرف الصريح . . . وإذا هي تمارضه الحجة فتقول :

« أو تجعل الحكم في الصيد ، وفي الحديث يكون بين المرأة وزوجها ، كالحكم في دماء المسلمين . . . »

ولا تلبث به ولا بحديثه . فما يضيها إلا أن تضعه حيث ترى أن يوضع بموضع حسر أو بموضع مخالفة عن نصوص القرآن التي ترسم أحكاما مقررة في قضايا وحدود ومشكلات توجب اتباعها حرفا حرفا ، وتجب الاجتهاد ، وتسد باب القياس . . . وإذن فهي تبين له القاعدة العامة التي لا يسه حياها إلا التسليم ، فنقول : « أما ما جعل الله حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له ، فهو إليهم كما أمر به . وأما ما حكم الله فيه وأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه . . . » و ضربوا مثلا :

« . . . حكم الله في الزاني مثله جلدة ، وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا . . . »

وهذا كلام حق صادق لأنه ترديد لمبدأ ثابت مقرر في الإسلام ، وفي كافة القوانين والشرائع ، لا يختلف فيه الناس : ابن عباس وغير ابن عباس . . . فلا اجتهاد رأى مع نص . ولا قياس وثمة حكم معلوم في قضية معلومة يجب الحكم

فيها بالقياس . . . ومع ذلك فقيم يردد الضرورية الآن هذا المبدأ البديهي ، وفيهم يسوقون عليه الأمثال ؟ . . . إنا نحسبهم يجيئون بهذا كله تسمية . وبغية لي مناظرهم عن رأيه إلى ميدان المناقشة الذي يختارون ، وإيهاما لمن يسمعونهم أو يتسامعون بهم بأنه قد أتاهم بحجة بيانية مستنبطة فأتوه بحجة قرآنية منزلة لا مكان بعدها لدليل ، ولا وجه لاجتهاد أو تأويل . وما أراهم أيضا إلا قد أرادوا أن يعيروه ، وأن يضعوه بموضع حسر أو في منطقة خطرة لا سبيل له إلى اقتحامها إلا بالجدل أو بتسليم . فإن جادل لزمته مغية جداله في مبدأ ديني الجدل فيه معصية . وإن أقر فعاجز بحسبهم منه التسليم . . .

ويفلت ابن عباس . ويعاود النضال عن نظريته . ويمادون مراجعته وهم يدورون ويلفون ويلجون ما شاء اللجاج . ولكنه يأبى إلا أن يجد هذا التحكيم حقا ، وهذين الحكيمين حقا لا موجب للإضرار به ولاللكابرة فيه لأنه وسيلة للمسلمين إلى خير عام :

« . . . إن الله عز وجل يقول : يحكم به ذوا عدل منكم . . . »
وعندئذ يماجلونه :

« فهذه الآية بيننا وبينك . . . »

ثم يراجعونه ساخرين ، وفي نبراتهم جرس الانتصار :

« . . . أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا ؟ . . . نحن

كان عدلا فلسنا بمدول ونحن أهل حربه . . . »

وهكذا يتصيدون الألفاظ ، ويلعبون بها ، فقوام شأنهم كله الحروف

والألفاظ . . . وينظر الرجل إليهم وهو مبهوت يكاد يحس الحسري على لسانه . فما أغنى عنه حقه . وما أغنى منطقته . وماهم بكافين هذه السفسة التي تبتدعها عقولهم الجامدة الصماء . . .

ويأتونه من لدنهم بقطع الرأي الذي لا يراهم يحيدون عنه مهما استعان عليه وحشد لهم من براهين :

« . . . قد حكمت في أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عز وجل حكمه في

معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا . . . إنا دعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ، فبهم كتبتم بينكم وبينهم كتابا ، وجعلتم بينكم وبينهم للوادة والاستفاضة ، والله قد

قطع الاستفاضة والوادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية ؟ . . . »

وسرت بينهم مهمة :

« لا حكم إلا لله ! . . . »

وتصايحوا في وجهه :

« حكمتكم الرجال في أمر الله ! . . »

وتاه ابن عباس من شغبهم في يبداء . . . إنهم لا ريب ينطقون عن هوى أو جهالة . . . فلئن كانوا حقاً لا يرون في هذه القضية إلا الأخذ بالنص ، فأين في آية الطائفتين النص الذي يحرم التحكيم ؟ . . . واثن فسروا « النفي إلى أمر الله » في الآية الكريمة بأنه الرجوع ، أو هو ، بالمعنى الأوضح ، التوبة ، والدخول في الطاعة ، ولزوم الجماعة ، فكيف إذن تستطيع النقلة من الخصومة إلى الوفاق بغير اتفاق تمهيدى على الدقائق والتفاصيل ؟ . . .

لا جدال — بنص الآية — في وجوب مقاتلة الطائفة الباغية حتى تنفي إلى أمر الله ولا جدال أيضاً ، بنصها ، في وجوب الإصلاح بين الطائفتين بعد النفي ولن يكون فيء حتى يعلمن ، ولن يتم وينفذ بمجرد النطق به أو الرغبة فيه . . . إنما لا بد أن يسبق تنفيذه إتفاق عليه كيف يكون . كيف يعامل المسيء . كيف يسلم العتاد إلى غير هذه وأمثالها من أمور تلازم دائماً حالات وقف القتال .

غير أن معتزلة حروراء تأبى أن تفهم هذا كله وتضمن في الإباء بغير موجب وهي نحسب — إذ تعقل — أنها تلتزم ما أمر به الله ، وما تتجنى حين تراها لم تلتزمه في شيء . وما تخالها إلا خالفت بمنادها عن نص الآية التي اتخذتها سنداً ، إذ اجتزأت منها ببعض دون بعض ، وراحت تستمسك بشطرها الأول ثم تغفل شطرها الأخير . ولكي تبين منها هذا الإغفال أو هذه المغالطة نورد الشطر الذي لم تدخله عند عنفها في الحساب . . .

يقول الله :

« ... فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين .
 إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون . »
 والذي يدلنا عليه النص وترتيب عباراته أن الفاء هو نقطة التحول من البنى
 إلى الحق ، تقف به الحرب ، وتقر العزائم على الوفاق . ولكنه مع هذا يوشك
 ألا يحسم الأمر كله إلا أن يلزمه ، أو يتبعه على الأثر ، إصلاح بين الطائفتين
 بالعدل والقسط ، يحقق اجتناء ثمرة الفاء سلاماً وصفاء وطمأنينة تعيد المؤمنين
 جميعاً ، بشطريهم ، إخوة متحابين في الله . وبيقينا أن هذا الإصلاح عامل متم
 للفاء ، أو منقذ ومنظم له وإلا ما كان الله أورد في الآية ولا كرر إثباته مرتين
 تأكيداً للزومه ولما للأذهان لتتجرى حكمته وتأخذ نفسها باتباعه . .

ومع هذا فقد غفلت عنه أذهان الحرورية ولم تر الحرص عليه . . . أعن
 جهالة أم هوى . . . إنما عصبيتهم الفكرية ، فيما نظن ، هي التي أزلفتهم لأنهم
 كلّفون أبعد الكلف بكل رأى يرونه حق لتعمى بصائرهم عن كل ما عداه .
 ولو قد خففوا من كلّفهم ذاك ، ومن غلوائهم الرعناء لاجتنبوا الزلق والصرع
 على السواء ، ولجنبوا الإسلام فتنهم الضالة المضلّة ، ولما اعتنوا بآبن عباس وهو
 يحاول هدايتهم حتى أيس منهم ، فانهقد لسانه ، وبهت منطقه وهم يتيهون به من
 شغبهم في بيداء . . .

٧

كانوا لا يزالون يتصايهون حوله . من هنا ومن هناك ، في عناد وصلف
 وحماسة : « لا حكم إلا الله . . . تحكمون الرجال في دين الله . . . »
 وكان لا يزال يحاول ما حاول معهم نفس اليوم ، مئات اللرات ، عساء يشيهم
 إلى الهداية . فإذا صوته يذوب في ضجيجهم ، وإذا صدره يضيق بالمغالطات
 والتعلّلات التي حشدوها له ، وإذا لسانه يدور بكلمات تهتز على طرفه وهي تجهد
 لتشق لنفسها طريقاً في زحمة للرء والضجة . . .

وعندئذ دخل الإمام . . .

مشى بينهم وثيداً ، خطوة ثابتة بخطوة ثابتة . في قلبه ثقة ، وبظراته طمأنينة ، وعلى وجهه هدوء :

وأتلعوا إليه الأعناق . ومدوا نحوه أعينا مبغوتة . وبدأت كلماتهم الهادرة تجمد على الشفاة . . .

وفي رقة وضع كفه على كتف ابن عمه . وبشبرات عميقة صافية تحمل العتاب اللين همس له :

« انتبه عن كلامهم . . . ألم أنهك رحمك الله . . . »

فتنهض ابن عباس في الحال ، خفيفاً كأنما أزيح عن كاهله جبل . . . ووقف صامتا يتسمع لهذا الصمت الذي حف فجأة بالمكان وقد كان معرضاً من قليل للججاج والمكابرة والصياح . . .

وألقى إليهم الإمام بنظرة تومض ، شملتهم أجمعين ، صفا وراء صف ، وفردا وراء فرد ، حتى إذا رأى انعكاسة النظرة الواضحة تطلعا في العيون للمبغوتة ، خاطبهم بصوته الرصين :

« أكلكم شهد معنا صفين ؟ . . . »

قالت طائفة منهم بنبرة مسموعة بينما اهتزت شفاة البقية ترسم حركة الألفاظ :

« منا من شهد ، ومنا من لم يشهد . »

« فامتازوا فرقتين ، فليكن من شهد صفين فرقة ، ومن لم يشهدا فرقة حتى أكل كل بكلامه »

وعندما امتاز الجمعان ، دار بعينه لحظة فيهما وفيمن حضر مقامه هذا من غيرهم ، ثم قال للحشد كله :

« أمسكوا عن الكلام ، وأنصتوا لقولي ، وأقبلوا بأفئدتكم إلى . فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها . . . »

ثم التفت لعزلة حروراء :

« من زعيمكم ؟ »

قالوا :

« ابن الكواء . »

وتقدم نحوه ذلك الزعيم ، عبدالله بن الكواء البشكري ، أميرهم على الصلاة ورمقه على هنية . ثم انثنى عنه بعينه وذنه وقلبه جميعا ، بعيدا ، بعيدا عن الناس ، ودنيا الناس . والخلائق والأمر في هذه الحياة الدنيا بما تضم من مادة ومعنى ، ومن شيء وفكرة ... انثنى إلى ربه في لحظات خشوع وابتهاال يناجيه ونجواه تضطرم بحرارة الإيمان :

« اللهم إن هذا مقام من أفلج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة . ومن نطق فيه وأوعث فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ... »

ثم عاد من مقامه إلى ما كان فيه . فإذا طائفة منهم أمامه ، قد دنت لتسمع وتراجع ، تكاد حلوقها تذشق عن حديثها الذي تحبسه ، وتناهب به للقاء حبيبته .. وسألهم وهم في لفة إلى سؤاله :

« ما أخرجكم علينا ؟ ... »

واندفعوا يجيبونه الجواب الحاضر ، الذي طالما لا كوه وأعادوه :

« حكومتكم يوم صفين . »

فابتسم . كانت بسمه فيها رثاء وحنان ، وفيها تهكم وزرابة ، وفيها عجب ومرارة . فأمسهم لديه مائل يقول إنها حكومتهم هم لا حكومته ، تحققت بفضلهم وبرغبتهم ، وبركوبهم إياه بالشدة والقهر وحد الحسام حتى أعطاهم ما أرادوه ... وتفض عنه بسمته . ولبس محياء جدا صار ما ترجمت عنه كلماته التي جرت إلى أسماعهم في جرس ثابت عميق :

« ألم تقولوا عند رفعهم للصاحف : إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه ، فالرأى القبول منهم والتنقيس عنهم ... فقلت لكم : هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان ، وأوله رحمة وآخره ندامة ، فأقيموا على شأنكم ، واؤموا طريقنكم ، وعضوا على الجهاد بنواجذكم ، ولا تلتفتوا إلى ناعق نعنق ، إن أجيب أضل ، وإن ترك ذل ؟ ... »

ثم مضى يذكرهم والأسى يطلب على نبراته :

« ... لكنكم رددتكم على رأيي ، وقلتم : لا ، بل نقبل منهم ! .. فقلت : اذكروا قولي لكم ، ومعصيتكم إياي ... فلما أبيتم إلا الكتاب ، اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن . فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن ، وإن أيا فنحن من حكمهما براء ... »

فأغضوا مليا صامتين . إنه لم يفارق الحقائق التي يعلمونها — وهم سطورها حينذاك بعنادهم — بمثل دقة شجرة أو خيط عنكبوت ... فمن يؤمنون ومنهم الإثم ، ومن يلومون وهم وحدهم فلك اللوم ومداره ؟ .. لكن في نفوسهم شيئا من هذا التحكيم ، الذي فرضوه وارتنضوه ثم عابوه ، لا تزال تحس معه الحيرة آنا ، والجزع آنا ، والعذاب النفسي الذي يلزم الشعور بالمعصية آونات . هو يشيم هذا فيهم ، ويراه يضطرب خالجه ويتلون طيفا طيفا على قساماتهم المكدودة ، فيرفق بهم . ويخفف عنهم بعض ما بعثه : ن ندم على ما كان منهم من تداع إلى هذه الحكومة التي بلبت خواطرم وأقضت عليهم المضاجع ، فيقول : « ... قد كانت هذه العملة ، وقد رأيتمكم أعطيتموها ... والله لئن أبيتها ما وجبت على فريضتها ، ولا حملني الله ذنبها . والله إن جثتها إني للمحق الذي يقبع . وإن كتاب الله لمي ، ما طارفته مذ صبحته ... »

وتبدو عليهم الطمأنينة هونا ، فهو أعلم منهم بكتاب الله ، أحرص على التزام أوامره واجتناب نواهيه ... ومع ذلك يسائلونه متلهفين ، عسى أن يمحو قلقهم بإرشاده :

« نخبرنا ... أترأه عدلا تحكيم الرجال في الدماء ؟ ... »

عندئذ يبصرهم :

« إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن . وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين ، لا ينطق بلسان ، ولا يبد له من ترجمان ، وإنما ينطق عنه الرجال ... ولما دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا القرآن ، لم نكن الفريق المتولى عن كتاب الله تعالى . وقد قال سبحانه : (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ..)

فرده إلى الله أن يحكم بكتابه ، وردة إلى الرسول أن تأخذ بسنته . فإذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به . وإن حكم بسنة رسول الله فنحن أولاهم به . . . »

وطوف ببصره فيهم ليرى الأثر الذي يطبعه حديثه في وجوههم ، في هذه المرايا التي قد تعكس عواطف القلوب . . . ومضت عينه من عامتهم إلى خاصتهم . إلى قلة بينها كانت أعنتها به ، وأعتاها عليه ، وأظلمها له ، قد أبى عليه أفرادها في صفين إلا الانخداع مثلهم بدعوة المصاحف المرفوعة أو يسلموه لعدوه أو يقتلوه . فلما استجاب لهم ، أبوا ثانية إلا أن يختار حكما بذاته فرضوه . وها هم الآن ، في هذه اللحظة التي يناظرهم فيها ، يأبون عليه كل هذا الذي حملوه عليه حتف رغبته من المواعدة والتحكيم والحكيم جميعا ، ويسألونه فيه . . .

وتقع عينه منهم على فئة تشهد مقامه . ويتبع خياله فئة أخرى شغلها بمض أمورها عن شهود هذا لنقام . فكأنه بالذين حضروا وغابوا على سواء قد أخزاهم الله إذ تبينت لهم الآن مغبة عصياتهم إمامهم ، واختلافهم عنه . وسوء رأيهم الذي أثابهم الندم والحسرة . . . ولكنه يستحضرهم في باله على ما كانوا عليه إبان عتوهم ، والقتال حينذاك ناشب ، والنصر على قاس رمح منهم . وهم يمجأونه عن هذا النصر استجابة لخدعة مفضوحة لعلمها لم تكن لتجوز على ذهن غلام . فإذا هم عندئذ مردة . وإذا هذه الجباء السوداء ، التي أعلمتهم بكثرة السجود ، كأنما تفتن وراءها أفهام طفل أو عنت شياطين . وإذا زعيمهم هذا زيد بن حصين ، وزعيمهم ذاك مسعر بن فدكي ، قد أقبلوا عليه في عصاية من القراء أمثالهم ، يتلهب الغضب في أعينها وهي لا تأبه قتيلا بتحذيره ، بل تهدر وتزار ، ملوحة بأسياقها أمام ناظره :

« أجب القوم إلى كتاب الله . . . وإلا قتلناك . . . »

ثم يستحضرهم أيضا في باله ، على حالتهم تلك التي طلوعوا بها عليه ، بعد استجابته ، بأفهام طفل وعنت شياطين . . . فإذا هم ثانية يشقون عليه ، ويكرهونه

على غير ما يرى ، ويحملونه على الرضا بأبي موسى حكما . وإذا شئت بن ربي ،
هذا الذي كان لهم أمير حربهم في مولد حزبهم ، يقول :

« ... إنا والله وإن خفنا على أبي موسى من عمرو ما لا يخافه أهل الشام
على عمرو من أبي موسى ، قلعل ما خفناه لا يضرنا ، ولعل ما رجوا لا ينفعهم ...
فإن قلت : في أبي موسى ضعف ، فضعفه وتقاه خير من قوة عمرو وجوره ...
فأغلق به البلاء ، وافتح به العاقبة ... »

وإذا عبد الله بن الكواء اليشكري . هذا الذي جعلوه صاحب صلاتهم
عند الاعتزال ، ويقف الآن منهم بموقف زعامة ، ينبري إذ ذاك ، ساعة إصرارهم
بصفين على اختيار الأشعري ، فيقول :

« ... إنك أجبت الله فأجيناك . ولكننا نقول : الله بيننا وبينك إن كنت
تخشى من أبي موسى عجزا ، فشر من أرسلت الخائن العاجز . لست تحتاج من
عقله إلا إلى حرف واحد : ألا يجعل حقتك لغيرك فيدرك حاجته منك ... »

ثم يباعد الإمام من باله هذه الصورة الباهتة من ماضيهم القريب التي أطلعهم
مرده عتاة ، ويستقبل بعينه شخوصهم التي تطلعهم الآن كأنهم أذلة على خزي وقد
حضرهم مآل عصيانهم ، ووبال مشاقتهم .. فما أضعف جلد الجائر ... وما أشدها
قوة يستطيع الخور أن يفرض بها سلطانه الجائر على النفوس القلقة ... وهام
أولا — هذه للعصبة العاتية المدله بالأمس ، يستكينون لحيرتهم . ويتعلمون
للرجل الذي أعضلوا به ، وجرعوه من عنادهم مذاق العلقم ، مطوفين حوله
بالقلوب والأبصار عسى أن يكون في وقاضه ، من ذخرك علمه ، ما يشيهم أمن
الأنفس ، ويرد عنهم الحيرة الرعناء ...

ويعاود ما كان من حديثه عن التحكيم :

« ... إنا أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيف
والاعوجاج والشبهة والتأويل . فإذا طمعنا في خصلة يلم الله بها شعشنا ، وتعداني
بها إلى البقية فيما بيننا رغبنا وأمسكنا عما سواها ... »

ويعاودون مساءلته :

« نخبرنا عن الأجل ، لم جعلته فيما بينك وبينهم في التحكيم ؟ . . . »
حق هذا أيضا يسألونه فيه كأنما يغيب عن أذهانهم أن تدركه ولكنها نهكة
الحيرة ، وغمة القلق النفسى . وكرب الاضطراب قد ابتزتهم الثقة بأنفسهم ، وشلت
عقولهم ، وتركهم بمضيعة . . .

ويجيبهم الإمام :

« إنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل وينتثبت العالم . واعد الله أن يصلح في هذه
الهدنة أمر هذه الأمة ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل عن تبين الحق ، وتنقاد
لأول الغى . . . »

ومضى معظمهم ويصرهم . لا يستقبلونه بمسألة إلا أجابهم فيها بما يشفيهم .
ومضوا يحاورونه ويسألونه ، لا تعرض لهم شبهة تدفع بها أذهانهم المكدودة ،
وتنجيها نفوسهم القلقة إلا طالعوه بها ، واستخبروه طبرها . حتى إذا فرغت جمبتهم
اكتنفهم الصمت ، فقام يقول ، معظمهم :

« . . . ألا إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق ، وإن نقصه
وكرهه ، أحب إليه من الباطل وإن جر إليه فائدة وزاده . . . »

ونهمض فنهضوا معه : وخاطبهم في هدوء ورفق عسى الله أن يهديهم ، ويلم
بهم بعض شعث أمته :

« ادخلوا مصركم ، رحمكم الله . . . »

أعن هداية عادوا ، أم هي بدوة من بدواتهم ، ونزعة طارئة كبدواتهم
 وتزلماتهم التي طالما تكشفت ثم لا يعرف الناس ، ولا يعرفون هم أيضا ، عقباها ... ؟
 أحسبها راحة من قلق نفوسهم أفاءها عليهم حديث الإمام ، يومهم هذا ، فانفسحت
 هونا قلوبهم لارضا ، ولانت هونا عقولهم بها ، فلم يروا إغما في العودة ... لم يكن ثمة
 مبرر لانحيازهم عن الكوفة وهم هناك بحروراء قاعدون إن أنكروا باطلا
 لا يناهضونه أو رأوا حقا لا يؤازرونه . فلقدم مضت بهم أيامهم فيها والسيوف في
 القرب ، والأكف عاطلة لا تضرب بسلاح ولا بسوط ، وأعضاؤهم كلها خدرة
 مفترة إلا هذه الألسنة التي أتيح لها أن تتحرك لحظة من ساعة ، أو ساعة من يوم
 تتحدث بنظرتهم كما وفد عليهم من رجال على واند أو نفر يناظرونهم — وقايلا
 كانوا — ثم تهجد بعد هذا خرساء ! .

قلعهم بالكوفة ، إذ يخالطون إخوانهم ، تنزاح عنهم بقية هذه الحيرة الذهنية
 التي لا يزالون يعانون منها ولا تزال تلح عليهم كلما خلوا إلى نفوسهم يذاكرونها
 سلوكهم أمس ، وسلوكهم اليوم ، والتناجح المحتومة للغبية التي لا ريب مطالعة الأمة
 قريبا أو بعيدا لو هم صبروا على هذه الحكومة حتى تبلغ مبلغها ، أو إن برموا
 فمجالوها بالتقويض .. ولعلمهم أيضا بهذه المخالطة مفسحون لجدلهم آفاقا تربهم
 الحق أين مأتاه ... ولعلمهم بها كذلك أفدر على نشر دعوتهم ، وتصيد التابعين
 لها والأنصار لهم إن تبينوا أنها وحدها هي السبيل ...

أحسب هذا كله كان بعض ما خامر خواطرهم وهم يرحلون القرية إلى المصر ،
 ويدعون العزلة إلى الجماعة . فما بانحيازهم خير معلوم وإنهم به لحرس الأسنة . عاطلو
 الهام ، أشلاء الأجسام ! وما تضيرهم العودة الآن ، ولا قد أضرهم الاعتزال قبل ،
 فإغما راموا بهذه وهذا وجه الله لم يروموا وجه على ولا وجه غيره من العباد ...
 وتموج الكوفة بجمعهم كأنها في يوم عيد . ويستبشر الناس فهذه الطائفة التي

أربت على عشرة آلاف من المقاومة الأشداء ذوى الأيد قد أصلح الله شأنها فعادت تلتزم الجماعة ليشند بها الأزر . . . والناس من فرحتهم يرددون البشرى ، ويتناقلون الرجاء فى مستقبل عزيز وهم يذكرون أن الحرورية عادت إلى طاعة الإمام ، وفاءت بهديه إلى الصواب . . .

لكنها لا تكون إلا مدة قصيرة حتى يختلط الأمر على أهل الكوفة . لا تكون إلا مدة قصيرة ، أياما معدودات ، تعيشها البشرى ، ويحيها البشر ، ويستشعر القوم فيها عزة جانبهم ، ثم تجمد الفرحة ويغيب نبع الرجاء ، ويقبل الناس حيارى ، بعضهم على بعض ، يتساءلون عن حقيقة الدوافع الخفية التى خرجت بهذه العصاة العنيدة من معتزلها حين أيقن وفود أمير المؤمنين ، وصحبه ، والأمة جميعا من ورائهم ، أنها لن تكف عن غلوائها ، ولن تدع رأيها ، ولن تعود . . .

هنا وهناك فى دروب البلدة همس . هنا وهناك عجب وتساؤل . ما التقي رجل برجل إلا ساءله . ولا صاحب بصاحبه إلا ساءه فى تخرج وحذر . فلقد ذاع أن هذه الحرورية لم تنزل لعل عن رأيها ولكنه هو الذى نزل لها عن رأيها ، واشترى منها رجوعها إلى رجاله ، ورضاءها عنه بالتسكّر لما كان قد خالفها عليه . . .

وعجب الناس . ولكننا لا نرى ثمة ما يثير عجبنا من هذه الأخبار ما دامت النفوس البشرية أبدا مجبولة على تلصص العذر تدعيه لتبرر به أى هزيمة تحقيق بها ، فكرية أو مادية ، وتظنها — إن هى تركتها بغير تبرير — آخذة من مكائدها ، ومتنقصة من هيبتها فى مجتمعتها بمقدار . . . ومعتزلة حروراء بشر من البشر ، نفوسهم كالنفوس ، ورجوعهم إلى الكوفة بعدما كان من تأييدهم إن هو إلا إقرار صريح بخطئهم ، واعتراف بليخ بهزيمتهم يتحدث به ملا الناس ، فلا بد له إذن — فى حساب هيبتهم — من تبرير . . .

لكأنى بهم ، وهذه مشاعرهم ، لا يكادون يستقرون بالكوفة ، ويخالطون أهلها ، ويتسامعون بتلك الأحاديث عن نزوعهم إلى الجماعة والطاعة بعد عزة وعناد حتى يقول قائلهم :

« إن أمير المؤمنين قد رجع عن التحكيم . . . »
وكانى بهذه القولة بعد قليل تجر وراءها تتيجتها المحتومة فإذا هي تفصح وتقول :
« . . . إنما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع ، ويجبى المال فينهض
إلى الشام . . . »

وكانى بشائعتهم هذه ومشيئاتها تنطلق بين الناس ، فى الدروب والمهافل
والدور ، فتتمو وتكبر ، وتتضح لها الملامح ، وتتخلق فيها زوائد وأطراف كما
انتقلت من فم لأذن ، ومن أذن لقم ، حتى تستوى كيانا كاملا لرواية كاملة تصور
بعض ما جرى فى التقاء الإمام بهم ، فتبرز رأيهم ، وتبرز معه نزوع طى إليه ،
واقتناعه ، وتبذيه إياه بعد توبة واستغفار . . . تقول تلك الشائعات :
حدثهم الإمام فقال :

« أنشدكم الله ، أعلمتم أحدا منكم كان أكره للحكومة منى ؟ . . . »
قالوا :

« اللهم لا . . . »

« أفعلتم أنكم أكرهتمونى حتى قبلتها ؟ . . . »

« اللهم نعم . . . »

« فعلام خالفتمونى ونايذتمونى ؟ . . . »

فأقروا على أنفسهم بالكفر :

« قد كنا كما ذكرت ، وفعلنا ما وصفت ، ولكن ذلك كان منا كفرا . . . »

وقد تبنا إلى الله عز وجل منه . فتب كما تبنا نبايعك ، وإلا فنحن مخالفون . . . »

وهنا تقول الرواية إنه بايعهم على ما قالوا ، وأقر على نفسه كإقرارهم على

أنفسهم ، وتاب :

« إني أستغفر الله من كل ذنب . . . ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى

للمال ويسمن الكراع ، ثم نخرج إلى عدونا . . . »

على هذه الهيئة جرت شائعة العصبة القارئة صاحبة حروراء أو على أشباهها

من صور وهيئات . وما تنكرها منهم ، فهى بحالتهم النفسية حينذاك أشبه .

وما نأبأها كذلك كل الإباء ، ففيها حق لا يردده إلا مبطل ، وفيها باطل لا يقبله إلا أفاك . فهم أكرهوه على هذه الحكومة . وهم أكرهوه على هذا الحكم الذي فرضوه . . . لم يبالوا شيئا بنذيره ، وعصوه في الأولى وقد قال :

« . . . احفظوا عني إياكم ، واحفظوا مقاتلكم لي . . . أما أنا فإن تطيعوني فقاتلوا ، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم . . . »

ولم يبالوا شيئا بنذيره ، وعصوه في الثانية وقد قال :

« قد عصيتكم في أول الأمر فلا تعصوني الآن . . . »

ويأسف منهم لهذا العصيان ، ويقول :

« . . . فعلة ضعفت قوة ، وأسقطت منة ، وأورثت وهنا وذلة . . . وإيم

الله ما أظنكم بعدها توافقون رشدا ، ولا تصيبون باب حزم . . . »

حق إذا غلبوه على أمره ، وأعطى عهد الله وميثاقه على ما رأوا ، بين لهم :

« . . . فإذا أبيتم . . . فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديل

بعد الإقرار . . . »

أفئن شاموا الآن في عصيانهم للثاني ذاك معصية أقبلوا يهملون أن يثأروه بمعصية

جديدة ، يكفرون بها عما فرط منهم ويتوبون عنه ، هي تقضهم عهد الله ، ثم

لا يكفهم بعدها إلا أن يرموا بالكفر ذلك الذي حذرهم العصيان . . .

على أي حال ، ذاعت هذه الدائعات في الكوفة بعيد استقرارهم بها ، يعجب

لها الناس . ينكرونها حيناً وهم يرونها تنقص من قدر إمامهم وما عهدوه من

إيمانه الذي لا تطوله ظلال الشبهات . ويشفقون منها حيناً آخر وهم يرونها تدنيهم

من النكت وخفر الذمة وتبعد بهم عن الوفاء . ويضطربون فيها ثلاثة اضطرابة

الخيران القلق الذي توشك الشكوك أن تمصب عينيه . وهي خلال هذا كله

تلعب على الألسنة ، وتملاً للسامع ، وتهز الأذهان كلها دارت معهم أينما داروا

في الدروب والمخايل والدور . . .

ودومة الجندل بعدها تخايلهم ، فوعد اجتماع الحكيم بها يدنو . والزمن

ينطلق ويسير . ولكنه يحض بهم ويبدأ بطيئاً يزحف ، ثقيلاً شديداً الوطء على

نقوسهم . فما يدرون أيجتمع الحُكَّان فتكون حكومة أم هذه الحكومة حقاً
خلال فلان تكون . ويدع أناس ما كان من تخرجهم وهمسهم بتلك الذائعات
فلا مناص الآن من إعلانها ، ولا حيلة لهم في المشي بها إلى الأمام ليعلموا منه
خيرها لليقين . . .

ويصارحه قائل مومناً إلى أصحاب حروراء :
« يا أمير المؤمنين . . . إن القوم قد تحدثوا أنك رجعت لهم عن كفرك . . . »
فيعجب . ويغضب من الفرية للمعنة في البهتان .
ثم تكون الذائعات قد استعارت أجنحة طارت بها عبر البلدة ، تبحر
أبوابها ، وتنتشر بعدها بين الشمال والجنوب ، وبين المشرق والمغرب ، فتملأ
الحواضر والبيد حتى يأتيه من الشام من يقول :

« إن معاوية قد وفي ، فف أنت لا يلفتتك أعاريب بكر وتميم . . . »
عندئذ يرى لزوماً عليه أن يكف عبثهم ، وأن يضع الناس على بينة من الأمر .
وإذا هو ذات ظهيرة يدخل المسجد فيعتلي منبره ، ويخطب فيمن أقبلوا للصلاة .
فلا يدع شيئاً من قصة هذه الحكومة إلا ذكره ، ولا من هذه الشائعة التي تشيع
حولها إلا دحضه ، ولا أناساً أذاعوها قد ابتدعوها إلا أكذبهم . . . ثم رماه
بنظرته في الأمر بيضاء بقاء بغير شبهة :

« . . . ألا من زعم أنني رجعت عن الحكومة فقد كذب . . . »
فما هو أن ينطق بمنطقه ، حتى يثب من بين الناس رجل يصيح في حدة
كأنما قد تحببته مس :

« يا طي ! . . . أشركت في دين الله الرجال ، ولا حكم إلا الله . . . »
ويتواثب على أثره طائفة ، هنا وهناك بالمسجد ، يعللون أركانها صياحاً وجلبة :

« لا حكم إلا الله . . . »

« لا حكم إلا الله . . . »

« لا حكم إلا الله . . . »

ثم لا تكاد الصلاة تبدأ حتى يرتفع صوت أحدهم يتلو :

« . . . ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك
ولتكونن من الخاسرين . . . »

فإذا الإمام لا يدع هذا التعريض الذى أراد به ذلك التالى المسكار ،
فيبادر بتلاوة :

« فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون . . . »
ومن تلك اللحظة تسفر الحرورية عن عداوتها . فما كانت عودتها إلى
الكوفة نزوعا إلى الحق والتزاما لجانب الجماعة بقدر ما كانت بدوة من بدواتها
الى تخبطتها بين اليقين والحيرة ، وما تزال تتخبطها أبدا فى الريب والشكوك
ما بقيت تسعى معصوبة العقول والأعين لا تستطيع أن تتبين الطريق .

٢

غدا المسجد موئل حجاجهم . أنى دخوله أثاروا فيه ألوانا من الجدل
والسفسطة . وغدا القرآن متأولهم ، يتخاطبون به ، وبه يخاطبون غيرهم بمن
يخالقونهم فى رأى ، لا يتخرجون عن إخضاع آياته لتأييد شعارهم مرة ، ونقاشهم
أخرى ، وإن علموا أن هذه الآيات ما نزلت إلا فى غير هذا الشعار والنقاش . . .
وغدا على بعد هذا هدف ألسنتهم الزارية العيابة . تتناوله وهو غائب . وتتناوله
وهو شاهد . وتتناوله وهو قائم فى صلاته بين يدى الله . كلما وسعهم أن يعيروه
عابوه ، وأن يشاقوه شاقوه . وهو أحيانا يغضى أو يلطف ، وأحيانا يرد
ويعارض . . .

والأمثلة على غلوهم فى شقاقه كثيرة . . . يشورون بشعارهم فى وجهه
ذات مرة :

« لا حكم إلا لله . . . »

فيجيبهم بهدوء :

« كلمة حق أريد بها باطل ! »

ويشورون أخرى ، فيقول يتوعدهم :

« حكم الله أنتظر فيكم . . . »

ثم لا يكون منه إلا التسامح الذي هو بخلقه أليق ، فلا يعنف بهم ، ولا يحرمهم حقهم في معارضته وإبداء رأيهم حرا بغير حظر ولا تقييد ، فيعلم أنهم سياسته فيهم :

« أما إن لكم عندنا ثلاثا ما أحببتمونا : لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه . ولا نمنعكم النىء ما دامت أيديكم مع أيدينا . ولا نقاتلكم حتى تبدأوا . . . » ومع هذا ينبرى له منهم من يقول في غرور وصالف وهو يسوق مشاقته في ثوب القربة إلى الله :

« . . . اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية في ديننا فإن إعطاء الدنية في الدين إذهاب في أمر الله ، وذلك راجع بأهله إلى سخط الله . . . يا على . . . أباقتل تخوفنا ؟ . أما والله إني لأرجو أن نضربكم بها عما قليل غير مصفحات ثم لتعلمن أينا أولى بها صليا . . . »

لكن الإمام لا يشور . ويدعهم وصالفهم ، إنه ليعلم أنهم أهون عليه من غصبة يستقبلهم بها وهذه مصارعهم تخايله وتوشك أن تحدث إليه غير مقصورة ولا موجزة . . .

يظل يأخذ نفسه منهم بالروية في أمرهم ، وبالتبصير والإرشاد والاستصلاح يجري بها إليهم محبة كلما وسعه أن يزجي نصحا أو رجا أن يهديهم . فإذا تساعده لا يلين من جانبهم شيئا . وإذا هديه لا يزيدهم إلا إصرارا على رأيهم ومكابرة فيه . وإذا هم يعودون كبذئهم أو أشد عنقا فلا يكفيم أن يغلوا في القضية ما شاءوا حتى يبدو لهم أن يرددوا أمورا غيرها قد رث ترددها ، وأن يقبلوا صحائف ماض دارس يلقفون منها أسطرا يحلو لهم أن يتخذوها مادة تضيف إلى إغراقهم في اللجاج والخصومة . . .

هم إذن شعبوا خصامهم شعبا ، وفرعوه فروعا ، ما كانت لتثبت إلا عن كلفهم بالجدال والحاجة . فليس يكفيم الخوض في هذه الحكومة ومناقشتها من حيث هي ،

في حساباتهم . الخطأ السياسي الذي له آثاره الضارة بالجماعة ، ولا في هذا الخطأ من حيث جسموه فجعلوه المعصية الدنيوية التي تبليغ الشرك فتصغر أمامها كل معصية إنما يعرض بهم عنهم أشواطاً فيجادلون في الألفاظ التي كتبت بها الوثيقة ، وفي معاني ودلالات شتى يخرجونها من هذه الألفاظ وينحتونها تحتها ، أنا مصقولة وأونات كثيرة غير مصقولة . ثم يشردون مع الوداع اللامع بالنقاش فيجادلون في أمور بعيدة كل البعد عن شعارهم ، لا تتصل به في القليل ولا في الكثير وقد سلف للناس الفراغ منها وباتت الآن في طي النسيان

تشهدهم الكوفة إذ ذاك يعاودون عيهم على الإمام أن قد حكم الرجال في دين الله ، مع ما قد سبق من حجة له عليهم بحروراء وبالكوفة على السواء رسمها لسانه وردتها السنة بحبه ووافديه ، لكنهم يؤثرون أن ينسوا حججه وبراهينه لأنهم يؤثرون أن يعودوا لبدنهم ليشبوها فتنة كاد يحتويها الرماد . ويحلوا لهم دائماً أن يطمسوا الداكرات والأعين حتى عن مجلسه ذلك الذي لا يزال الناس يتحدثون به ويتندرون في مجالسهم بما جرى فيه . فلقد شاء الإمام ذات يوم أن يأتيهم بالدليل « العملي » التي تحسر أمامه سفسطة جدالهم ولغومهم ، فافتقد الدار لا يستقبل فيها إلا كل قارئ يحمل القرآن ويعيه . فلما أن امتلأ المكان بالقراء وضاق ، أخذ مصحفاً فجعل يصكه بيده وهو يناجيه :

« أيها المصحف ، حدث الناس ! . . . »

فصعب الجمع ، وقالوا له :

« يا أمير المؤمنين . . . ما تسأل إنما هو مداد في ورق . وإنما نحن نتكلم بما

روينا منه . فما تريد رحمتك الله ؟ . . . »

وعندئذ قال :

« أصحابكم هؤلاء . . . »

وكانت لفتة تغني عن المجادلة والبيان . . .

وتشهدهم الكوفة أيضاً يكرون لما بدأوه من أخذهم عليه أنه عما اسم لإمرة

للؤمنين عن نفسه بالوثيقة مع أنه قد علل لهم من قبل هذا المحو فأحسن تعليقه
ولكنهم يعاودون :

« انسلخت من قبض البسكة الله ، ومن اسم ممالك به الله . . . »
ثم لا يكتفهم عن المعاودة والترديد أن قد تلا عليهم في مجال المحاورة :
« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . . . »
فالرسول قبله قد محا الرسالة عن اسمه ، في صحيفة الحديدية حينما أعنت به سهيل ،
وافد قريش ، ولم يقل امرؤ عندها ولا بعدها إنه ليس برسول الله . . . لكنهم ،
فيما يبدو ، أحبوا له ما لم يحبوه للرسول ، وكانوا أحرص منه على إمامته حتى
ألبسوها قداسة تدخل في روع الناس ما ليس في الإسلام من عصمة الحاكم ، ومن
حقه الإلهي في ممارسة سلطانه بغير معقب ولا رقيب من الشعب المحكوم . . .
وتشهدهم الكوفة كذلك يستخرجون من صحائف الماضي وقمة الجمل فيعميون
على الإمام قائلين :

« قتل الأنفس الحرام ولم يقسم السبي والأموال . . . »
وكانما قد نسوا أنه أبي عابهم بعد تلك الوقعة جشمهم الذي دفعهم إلى التنادي
بعد النصر بتقسيم الأموال والسبي فيهم ، وأنه قال لهم حين أسرفوا عليه وعلى
أنفسهم بالإلحاح :

« فأبيكم يأخذ أمه . . . أقرعوا على عائشة لأدفعها إلى من تصيبه القرعة . . . »
وكانما نسوا أن ابن عباس قال لهم بحروراء عندما عادوا لهذا الحديث :
« قد كان في السبي أم للؤمنين ، فإن قلتم ليست لكم بأم كفرتم ، وإن
استحللتم سبي أمهاتكم فقد كفرتم . . . »

لكنهم ، ولما بالجدل ، ينسون . . . وهم أحرى بأن ينسوا كل حجة يرونها
تنهض لمطقتهم حتى يظلوا أبداً — في أعين أنفسهم — أصحاب الفلج والرجحان . . .
وساخنال تعصبتهم إلا قد أعماهم ، فالذي عصب بصره لا يرى سوى العصابة . ومن
أغمض عينيه خلق بأن يشرد به الظلام كل مشرد ثم يختبل عن طريق النور .
وما كانوا إذن بمهتدين وقد غلوا بظلمهم فأغرقوا نفوسهم في غمرة من الريب

والشكوك حق بها عليهم الضلال وما سلف من نبوءة رسول الله فيهم وإنهم إبانها لأجنة في بطون المجهول . . . فلقد قال عنهم :

« تفرق أمتي فرقتين ، فتمرق بينهما مارقة فيقتلها أولى الطائفتين بالحق . . . »

ولقد مرقت هذه المارقة على حين فرقة من الناس ، كما ذكر محمد ، لم يكفها علمها عن اللروق . وأخذ شكها يتخطها فرقة في لد و مرة في هدنة ، وأنا تشق وأنا تقي . وإنها انتفرق فيما بينها فرقا شق لا يصبر جميعها على أمر واحد فإذا بعضها يخافت بمذائبه ، وإذا بعضها يجاهر به ، وإذا منها من يسبق إلى التشريع للحرب يتعجل — بزعمه — الشهادة وما وراءها من رضوان الله ، ومنها من يقعد عنها ترثا وتؤدة ثم لا يكون مصير العجول والقاعد كليهما إلا مصارع سبقت في الغيب تهيشها يدا الإمام . ولعلها أن تكون أطفأت من فتنة لولا سيفه لكانت أخلق بأن تسرح وتأكل وتمتد إلى حيث لا يعلم إلا الله . . .

ويسمع الإمام مرة قارئا يرتل :

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم

محسوبون أنهم يحسنون صنعا . . . »

فيقتسم ويقول :

« أهل حروراء منهم ! . . . »

٣

الكوفة تضطرب . . .

النفوس فيها قلقة . الحديث فيها جلبة ولغظ . الجداول يعلو إلى ذروة الحسومة . . . فها هي دومة الجندل تنهياً لتستقبل حكم الشام وحكم العراق . ها هو شعبان أقبل وموعد اللقاء حل . ها هم الناس يهرعون بالأخيلة والظنون — لا في البلدة وحدها بل في منازل الإسلام كلها — إلى ما سوف يسفر عنه هذا الاجتماع للرقوب . . .

وتضطرب الكوفة ...

وليس اضطرابها لأن مئتين أربعا من أهلها توشك أن تخف بهم رواحهم إلى الشمال ليكونوا شهودا على الحكيم الذين اختير عن الفتيين ليحكم بكتاب الله . ولا لهذا الضجيج الذي يصاحب الرحيل عادة ويدفع المشيعين ، من هنا ومن هناك ، إلى وداع اللين الراحلة . ولا من قلق لما عسى قد تنجاب عنه الحكومة من نتائج وآثار ... لا لهذا كله اضطراب حاضرة على في هذه الفترة قبيل مسير وفدها ، ولا عند تشييعه ، ولا إبان مخرجه عن حدودها إلى منبسط الصحراء يدب على الدرب إلى مقر التحكيم ... إنما هزها أولئك الحرورية الذين أثاروا فيها جدلهم أضغاثا ، ورفعوا أصواتهم صياحا وجلبة وهم يرون الحكومة التي يشكرونها ، وطالما حاربوها وهي فكرة ، تخطوا خطواتها الحاسمة نحو التحقيق ...

الآن لا منطق ولا حجة . ناء جهدهم بالحديث ... منطقهم كأنه عواء . حجاجهم سباب . نقاشهم تلويح بقبضات رئيسي المتوعة وتقبض على القسي والسيوف ... لم يعنفوا من قبل مثل عنفهم هذا . ولم يخرجوا عن طورهم تكروجهم هذا . ولم ينالوا الناس من مخالفهم بمثل هذه اللساءات التي أخذوا يحشدونها وينالونهم بها اليوم ووقدهم — هذه المئين الأربع — مودع ، وركبه بهم أن يسير ...

ولم يسلم على منهم ، وما كانوا ليدعوه . عنهم دائما يلاحقه . في الدار ، في الطريق ، في المسجد ، وأينما تقفوه . حتى في صلاته كانوا يعارضونه بالغيب والعنف واللكابة . إن هو أغضى عنهم وعف ثاروا ، وإن أجابهم لا يكادون يتركون فرجة ينفذ بها إلى أسماعهم حديثه من خلال ما يشبونه من الصياح والضجيج . بل إن منهم لأناسا كانوا يجابهونه بما يشاءون من لجاجهم فإذا شهدوه يحرك شفقيه وبهم أن يقارعهم لغوهم بحجته وضغوا أصابعهم في آذانهم لكيلا يسمعه ... وأكثر عليه محبة في أمرهم ولكنه بقي على ما انتهجه حيالهم من الرفق بهم ما وسعه ، ومن إهمالهم والصبر عليهم . فلعلها بدوة من بدواتهم تخففها الأيام ، ولعلها غمرة وتنجل ... ويأتيه فيهم الأشعث بن قيس فلا يزيد على أن يقول له :

« لا أقاتلهم حتى يقاتلوني . . . »

ثم يسكت قليلا ، وبكمل وهو أسيف :

« . . . وسيفعلون ! . . . »

« فلقد أخرجوا دخائلهم .

ومع ذلك فالخير في أن يداريهم ويعالج شرورهم في النفي بالكف عنهم والاستثناء بهم عسى أن تلهث منهم الأنفاس قبل أن يبلغوا شوطهم من اللدد والخصومة . وإن هي إلا أيام أو أسابيع ثم تبدو نتيجة هذا الاحتكام فيعلم موضعه ، ويعلمون مواضعهم ، وقد يؤلف بينهم وبينه حكم القرآن . . .

والحق أنه لم يكن له عن التصبر سبيل . فليس يستطيع أن يحملهم على ترك تذبذبهم هذا بين الهدى والباطل وهم مرة يرضون ومرارا كثيرة ينحرفون . وليس يستطيع أن يخاصمهم بمنطق القوة الذي غدا الآن منطقهم للفضل ومجتمعه في هذه الآونة أحوج إلى الاحتفاظ بالهدوء والوحدة أو بمظهر الهدوء والوحدة حتى لا يطمع فيه عدوه ولا يكون للاضطراب والانقسام آثارها في رأى حكمه الذي أوفده وفي نتيجة التحكيم التي ينتظرها الناس . . .

هو إذن يداريهم ويعملهم ما وسعه وإنه لعليم أن الشك هو الذي يميل بخطاهم ويسوقهم في غلوائهم إلى أقاصيها حتى ليقول مرة وقد شهد منهم رجلا قد قام الليل يتعبد ويتلو القرآن :

« نوم على يقين خير من صلاة في شك ! . . »

وهو يترفق بهم ويعف في أحيان كثيرة عن سفاهتهم . يسمع الشتم ولا يرد عليهم ، ويرى من بعض صحبه الغضب له على ما يصيبه فيكفهم عن الشتم للساء . . . كان مرة يعظ الناس فأعجبت موعظته حروريا فإذا هو يهتف وهو كاره :

« قاتله الله كافرا ما أفتقه ! . . »

ويتسامح الإمام فيدع العائب وشأنه . ولكن بعض صحبه يشيرهم من الإمام حله كما يشيرهم من الخصم سفهه فيهمون بالحروري يوشكون أن يقتلوه : وعندئذ ينهائم على في لين :

« إنما هو سب بسب ، أو عفو عن ذنب . . . »

لكن ترفقه بالحرورية كل هذا الترفق لا يكتفهم عن هذه المشاقة التي يسطعونها في غير تأثم ولا حرج ويفرقون فيها كل الإغراق . بل لعله يزيدهم عنتا ولجاجة فيغرون به سفهاءهم وسلطاءهم يجهونه في كل لحظة بما يسيئه لعضلوا به ، ويهظوه ويخرجوه عن طوره الخروج الذي يرمونه ويرونه الدواء لماهم فيه حتى إذا طال عليه عنتهم وهو صابر ، وفرغت حيلهم دون أن تشر ما أرادوه متى إليه زعيان منهم يندرانه ، ويسفران عن عداة جماعتهما بلا موارد ولا إخفاء

يدخل عليه الرجلان وفي ملاحظتهما ينطق تعديهم ، فيبادرانه بالهتاف التقليدي للعلوم :

« لا حكم إلا الله . . . »

فلا يثور . ويردد وهو هادي :

« لا حكم إلا الله . . . »

وعندئذ يخاطبه منهما حرقوص بن زهير ، مغفلا لفظة الإمرة ، مسرفا في عنف مقاله :

« يا على . . . تب من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا »

ويعضى الرجل وإملاءه . ويمضى على وإصغاءه إصغاء جميلا غير مشوب بمراجعة ولا مقاطعة حتى يدرغ الغوى منطقته فيجيب برفق وفي أناة :

« قد أردتكم على هذا فصيتموني . وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتابا ، وشرطنا شروطا وأعطينا عليها عهدنا وموائقنا . وقد قال الله عز وجل :

وأوفوا بعهدهم إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون »

وما أتاهما بجديد ، فهذا حديث معاد معنوه منه ورضوا به ثم آثروا الآن أن يرفضوه . ولكنه هو الحديث وهو الدستور الذي يجب أن يحتذيه البشر في معاملاتهم في كل أوان ومكان لأنه لب الشرائع ونهج الأخلاق

لكن حرقوص بن زهير يأباه ، ويتعمل لإبائه بأن يقول :

« ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه . . . »

فيجيبه الإمام يصحح له :

« ما هو ذنب ، ولكنه عجز من الرأي ، وضعف من الفعل . وقد تقدمت

إليكم فيما كان منه ، ونهيتكم عنه . . . »

غير أن الرجلين يخلطان بين المعصية وخطأ التقدير . بين الدين وسياسة

الأمور . بين ما للمرء أن ينظر فيه ويدلى بالرأي وبالعمل وبين ما عليه عليه

الشريعة وليس له دونها اختيار . . .

ويصحح به ثانيهما . زرعة بن البرج ، يتوعد :

« أما والله يا علي ، لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله عز وجل قاتلتك

أطلب بذلك وجه الله ورضوانه . . . »

عندئذ يهتف الإمام زاريا وإن لحة من لمحات المجهول لتبدي لعينه مصارع

القوم ومصرع هذا المدل بجبروته جزاء وفاقا على سوء رأيهم وانسياقهم مع

الهدوى إلى مصير محتوم :

« يؤسا لك ما أشقاك . . . لكأني بك قتيلا تسقى عليك الريح . . . »

فأمعن الرجل في مكابرتة وعناده :

« وددت أن قد كان ذلك . . . »

« ويحك ! . لو كنت محقا كان في الموت على الحق تعزيزة عن الدنيا .

ولكن الشيطان قد استهوأك ، فاتقوا الله . . . »

لكنه لا يسمع الصم ، ولا يسمع الموتى في القبور . . .

٤

بيتوا أمرهم بليل . . .

كانت نذر خلافهم تتجمع في الأفق ، واضحة لكل ذى عينين ، كتجمع خطوط الأصيل الحمراء خطا إلى خط حتى تكسو السماء بلونها الدامى الذى يرسم طبيعة الغروب . . . وكان الزمان حينذاك مغربهم . وكانت أحداث النفوس تطلهم صرعى ، دمهم كرقعة الشفق ، وشخوصهم على هذه الأرض كالظلال الباهتة التى تلقىها الأشعة الآفلة ثم لا تلبث أن تذوب فى اللساء . . .

ما من امرئ إلا قد استيقن مصيرهم من قبل أن يحين . لا خير فيهم . لا جدوى من وراء مطاوانهم كل هذه الأيام والليالى . لا رجاء فى استعادتهم إلى الجماعة التى شقوها بمنادهم وباعدوا ما بينها وبين أنفسهم وإن ساكنوها بأبيات البلدة وقاربوها بالأبدان . فما أبعد الفكر عن الفكر ، والنظرة من النظرة ، ومشاعر القلوب من مشاعر القلوب . . .

إنهم أسرى وهم يلوح فى خواطرهم عقيدة . أوقعتهم فى براثنه كزازة ذهن . كبلمهم فى أغلاله تعصبهم . حبسهم فى سجنه المظلم ضيق . أفقهم خالوه فى مثل انطلاقة الفضاء الفسيح . وكلما انفتحت لهم فى جذره كوى سارعوا فسدوها لأنهم يرمون بالضياء الذى سيتسرب إليهم من خلالها بل لأنهم يخشون أن تقتحم عليهم بعض النسبات الحرة الطليقة محبهم انعطفت فتطفئ ذبالة رأيهم الواهن الذى قد آثروا أن يعيشوا عليه . . .

وكانت شكوكهم هى التى تحركهم كما تحرك الرياح الهوج أوراقا جافة ذابلة فى إبان إعصار ، أحيانا يمنة ، وأحيانا يسرة ، ودائما تملو بها معايشة وهى تدور كالدوامة ثم لا يكون شأوه هذه الحركة إلا السكون والعودة بالأوراق الحائرة إلى حيث كانت لا إلى حيث تصير وتكون . . . فهام أولاء بعد طول مناظرة وحجاج وتحذير يكرون ثانية إلى بدتهم فينكرون ما تعبت الألسن فى دحض إنكارهم له ، ويتمسكون بما أظهروا ، مرات كثيرة ، صدق النية فى تركه والإقلاع عنه . .

حق ذلك الفاصل البين بين حق علي وباطل معاوية قد غم عليهم هم الذين قد هرعوا إليه قبل القتال يعلونه حق غدا سورا شاهقا ما إلى اقتحامه ولا تجاوزه سبيل . واسكنهم في غمرة شكهم لا يرونه ، ولا يذكرون ليلة واحدة منه ، ويقبلون في ساعة من ساعات حجاجهم لابن عباس وكأنهم أجهل الناس به يقول لهم ابن عباس وهو يهون عليهم ما يهظهم من أمر التحكيم : « . . . ولقد أخذ علي علي الحكيمين ألا يجورا ، فإن يجورا فعلى أولى من معاوية وغيره . . . »

فإذا هم يقولون وهم في ريب :
« إن معاوية يدعى مثل دعوى على . . . »
كأنما يسرون بين الدعويين ولا ينكرون على عاهل الشام دعواه .
ويجيهم ابن عباس كالساخر :
« فأيهما رأيتموه أولى فولوه . . . »
« صدقت . »

لكنهم ينسون كل هذا الذي حاربوا عنه ، وجادلوا فيه ، وأظهروا للرة بعد المرة الاقتناع به ثم ينطلقون وهم أخذ ما يكونون سخطا وأعق حقا على الإمام فيبيتون أجرامهم بيل . . . في ظلة الأماشي ينسلون كالحفائش من دار إلى دار ومن منزل لمنزل تتخبطهم وساوسهم ليتهاوسوا بالنآمر . والعيون حينذاك عنهم في غفلة . والحواطر تحسبهم لا يزيدون شيئا على هذا اللفظ الذي يجاهرون به في المجمع وعلى ملأ الناس . . .

وتجمعهم مرة دار عبد الله بن وهب الراسبي ، ذلك الرجل ذي الثغفات الذي تقرحت جبهته من فرط سجوده . وإنهم جميعا لعل مثل هيئته ، تحسبهم من سيام يفتنون تقى ويزدوبون زهادة ، كأنما كانوا من أولئك الذين يمنهم على بقوله :
« . . . اتخذوا الأرض بساطا ، وترايبها فراشا ، وماءها طيبا ، والقرآن شعارا ، والدعاء دثارا ، ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح . . . »
فإذا بلوتهم فهم على غير مظهرهم ، تكاد تصدق فيهم قوله التي ينعت بها اللناقين :

« ... يتلونون ألوانا . . . يحشون الخفاء ، ويدبون الضراء : قوطم شفاء ،
وفلهم الداء العياء . . . إن سألوا ألحقوا ، وإن حكموا أسرفوا . يقولون
فيشبهون ، ويصفون فيجوهون . . . فهم لمة الشيطان ، وحمة النيران . أولئك
حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . . . »

تجمعهم حينذاك دار صاحبهم ابن وهب وإنهم لقراء مثله ، لهم علائم السجود
والتهجد ، ولا شمار يتنادون به بين الناس إلا كتاب الله . فإذا أجنهم ليهم ،
وغلقت عليهم الأبواب تجاهروا فيما بينهم بالمؤامرة يدبرون الشر ويهدون طريقه . . .
ويقوم فيهم صاحب الدار يخطبهم :

« . . . أما والله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون إلى حكم القرآن
أن تكون هذه الدنيا — التي الرضا بها ، والركون إليها ، والإيثار إياها عناء
وتبار — آثر عندهم من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والقول بالحق
وإن مر وضر ، فإنه إن يمر ويضر في هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة
رضوان الله . . . »

ويعضى الرجل وعظته مليا ، ثم يطالعهم بهذا الأمر الذي جمعهم له ،
ورأى أن يحرضهم على العمل به :

« ... فاخرجوا بنا ، إخواننا ، من هذه القرية الظالم أهلها إلى جانب هذا
تسواد . . . إلى بعض كور الجبال أو بعض هذه للدائن ، منكرين لهذه الأحكام
الجائرة ، والبدع للضلة .. »

ريمقب بعده حرقوص بن زهير :

« إن للتاع بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وهيك ، فلا تدعونكم زينتها
وبهجتها إلى اللقام بها ، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ، فإن الله
مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . . »

كذلك يتعدون فيما بينهم الخروج من بين ظهراني القوم الذين ظلموا
لينكروا البدعة للضلة التي تمثلت في التحكيم . فأما وسيلة هذا الإنكار ، وأما
للهمج الذي عزموا على انتجاعه ففكرة لا تزال تدور في الأخلاذ دون ظهورها
إلى نطاق النفاذ عجامع لم تشهدا الأمسيات في خفية ودبر العيون والأصماع . . .

ثم تجمعهم ، ليلة ثانية ، دار زيد بن حصين فلا يكون وعظه إياهم بأدنى من وعظ صاحبه ، ولا حثه بأقل أثرا في نفوسهم للفتونة بفكرة الجهاد وإن غرهم نفوسهم غلطوا بينها وبين الفتنة . وإنه ليحرض ، ويتلو عليهم من القرآن حتى يشتعلوا حمية فتتلف عزائمهم على ما صورته أوهامهم من صدق البلاء في ذات الله

يقول لهم فيما قال :

« . . . إن الله قد أخذ عهودنا وموائيقنا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ، والجهاد في تقويم السبيل . . . وقد قل عز وجل لنبيه : يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد . . . وقال تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . . . » ولا يزال يتلو عليهم ما شاء حتى يبلغ من قلوبهم مبلغه ، فيقول لهم ، مصارحا في غير إخفاء :

« . . . اللهم إني أشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهدى ، ونبذوا حكم الكتاب ، وجاروا في القول والأعمال ، وإن جهادهم حق على المؤمنين . . . »

ويفعل قوله فيهم فعله حق لينفض من بينهم رجل ، تثب به حميته وتهزه مشاعره وثوبا أرعن وهزا عنيفا فيبكي ويصيح وهو يكاد يشرق بدموعه :

« . . . اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم . . . فإن أنتم ظفرتهم وأطيع الله كما أردتم ، أثابكم ثواب للطيعين له ، العاملين بأمره . وإن قتلتهم ، فأى شيء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته ؟ . . . »

وما كان هذا بآخر اجتماع . . بل كأي بهم لا يزالون يجتمعون الليالي للتعاقبة في هذه الدار أو في تلك من دور رؤوسهم وأساطينهم ، يخالسون فيها بمجالسهم ولا حديث لهم إلا تدبير هذا الخروج الذي غدوا وهم لا يجدون عنه عيصا لإحقاق حق الله والجهاد في سبيله . وما كان شيء بمنعهم من المبادرة بتنفيذه إلا أن يحكموا له

التدبير ، ويهيئوا للقومات التي تكفل لإنجاحه وتمضى به إلى الغاية التي تخيلهم من وراء تفكيرهم السقيم . . .

واقت وضحت الآن خطوط هذا التدبير ..

فأما مهجرهم فذاك بمكان اعلمهم يضمرونه إلى حين .

وأما وسيلتهم لإنكار البدعة المضلة فليس الأمر بالمعروف ، ولا النهي عن المنكر اللذين لغطوا بهما من قبل وأكثروا فيهما بالحديث . ولكنه التنكر لمنطق الحاجة بالحسنى والانحياز إلى منطق القوة وضرب الجباه والوجوه . . .

وما يمنعهم ؟ . . . إنهم — فيما يوقنون — بسبيل هجرة أ — خروج في الله كتلك الهجرة التي فر بها محمد بدينه ، منذ قرابة ثلاثين عاما ، من بين ظهرائي قومه الذين كذبوه وساموه الاضطهاد والعذاب . الآن عزموا على أن ينفروا فراره ويخرجوا كخرجه ، يسبحون في الأرض إلى ملاذ يمنعهم من ضلالة مخالفهم أن تضلهم وتفتتهم ويدعهم خفاقا يفرغون إلى لقاء الضلال المناوئين لعلمهم أن محمولهم قهرا على الجادة ويلزمهم أمر الله فإن نجح سلاحهم فذاك قرينة إلى ربهم ، وإن تقطعت بهم أعمارهم دون غايتهم للنشودة في الله إذن هجرتهم ، وفيه مصارعهم ، وعنده المكاب والثواب . . .

وتمضى الياالي تباعا ودورهم تتلقاهم ، وأبوابها تغلق على سرهم ، ومذاكرتهم أمرهم تعدم في كل ليلة يحطب جديد للفتنة . . .

وتمضى أيضا والناس من مخالفهم في شاغل عنهم بذلك الوفد الذي بارح الكوفة ، وبذلك الآخر الذي بارح دمشق . . .

ثم تمضى كذلك وعيون المسلمين من كل مصر ، ومن كل رأى ، تمتد إلى دومة الجندل . إلى أبي موسى وعمرو بن العاص . إلى الحكيمين اللذين انتهى بهما اللطاف إلى البلدة الصغيرة على الحدود بين العراق والشام . وتتعلق الأنظار بهما وبهذا القرآن بينهما الذي قد أبرم العهد على أن يستخبراه حكمه فيما شجر بين الفريقين من خلاف .

وتعلو صدور وتهبط . وتسكن قلوب وتضطرب . ولكن الأخيلة جميعا

في دولة الإسلام عامة ، تدنو من شفاء هذين الحكيمين تنصت في توجس ولهفة إلى كل كلمة ، وكل حرف ، وكل همسة قد تكون أنفاسا خلت من الحروف والكلمات ، عسى أن تبين فيها المصير اللازم الذي ينتظر الناس ...

أما هذه الحرورية فعلى بينة الآن مما يريدون فعله فقد أئبج تديرهم ، وقرت عزائمهم ، اتفق الحكان أو اختلفا ، اجتمع الناس أم افترقوا ، لأنه لا مناس من جهادهم في الله . . .

٥

كان الناس بدومة الجندل كالوان الطيف . . . طوائف شتى ، وأفكارا شتى . فيهم العلوى . وفيهم الأموى . وفيهم أيضا الحرورى بالعاطفة وإن لم يستمله الهوى كل الميل فيرفع السيف في مذهبه كإخوانه الذين عانت منهم الكوفة . . . وفيهم بعد هذا فريق يؤثر التطلع ويراه متعة لنفسه ثم لا يبالي أن يقع الأمر في يمين أولئك أو يمين هؤلاء من طائفتي الخلاف . . .

البلدة الصغيرة تحتويهم فإذا هم مثل خلية تعج بالطينين . ودخائل نفوسهم تجيش بهم فإذا هم منها في مثل لجة عاتية من القلق ، تهدر وتضطرب مداوجزرا وائسوا يدرون أمنتى مطافها بهم إلى بر آمن أم إلى مهوى القاع . . .

هنا ، في هذه الناحية ، أصحاب معاوية من وفد الشام ، يتكتمون في صدورهم لواعجهم ، ويرحمون على ملاحظهم السكينة . لقاءهم حذر . حديثهم بينهم إيماء . نقاشهم ، إن نهركت به شفاء ، مسارة . الأصماع للتربسة بهم قد تلتقط بعض همسهم بين آن وآن ولكنه لا يكون عندئذ إلا هينة مبهمة لا تملو عن خفقة نفس ولا تكاد تفصح عن حرف . فإذا اجتمعوا فعلى رضا ، وإذا اتفصوا ففي سلام

كان معاوية يكتب إلى عمرو ، فيقبل رسوله بالكتاب ثم يؤوب فلا يدرى الناس فيم أقبل أو بم آب ، لأن وفد الشام ذا الشين الأربع من الشهود والفرسان

لا يسأل الرسول ولا يسأل الحكم ، أو هو يسأل في خفية ثم لا يسمع الناس شيئاً لا من سؤال ولا من جواب . . .

وهناك ، في تلك الناحية ، أصحاب على من وفد العراق . لا حيطة ولا حذر . أمرهم لغيرهم مكشوف . لا تكاد صدورهم تستقبل سرا حتى تعي به فتلفظه على الشفاء وملامح الوجوه . . . حديثهم جلبة . ونقاشهم صياح . وسرهم دائماً غرض للتربص ، ولقبة من لا يعنى نفسه بمطاردة الأسرار على السواء . إذا اجتمعوا اختلفوا ، وإذا افرقوا اختلفوا فهم دائماً في شقاق . . .

كان على يكتب إلى ابن عباس ، صاحب صلاتهم ، فلا يكاد الرسول يترجل عن مطيته حتى يلتف به وفد العراق يسأله نبأه ويلحف في السؤال ما شاء . ولا يكاد يدبر حتى ينقلب الوفد إلى ابن عباس ليعلم منه الكتاب والجواب ، وإن جهره وعلى ملائ الناس . ثم يدور بينهم جميعاً الجدل ، وما يجره الجدل من هتك السر ومن إثارة الخلاف والشحناء . . .

وكم سألوا ابن عباس :

« ما كتب به إليك أمير المؤمنين ؟ . . . »

فإذا استأناهم حين خلوة غاضبوه وأكثروا عليه بالإلحاح . وإذا كتمهم ظنوا به الظنون وتركوا حدسهم يستنبط لهم ألف جواب . . .

وإذا أعيوه إلحافاً فصارحهم ، قدموا الشك فيه ولم يصدقوه :

« ما نراك إلا كذبتنا . . . »

وهو بينهم دائماً حائر . يضيق بهم ، وتبهظه حماقتهم حتى لقد طالما كان يشور ويعنف لهم في المقال وإن أيقن أنه لا طائل من العنف ولا طائل من الحلم والمهادنة . . .

وكثيراً ما كان ييكنهم :

« ويحكم . . . أما تعقلون ؟ . . . أما ترون رسول معاوية يحى ، لا يعلم أحد

ما جاء به ، ويرجع لا يعلم أحد ما يرجع به ، ولا يسمع لهم صوت ولا صياح وأنتم

عندى كل يوم تظنون الظنون ؟ . . . »

كان هذا دأبهم ودأبه منذ احتوتهم دومة الجندل مشين أربعا جاءوا ثلة
حتى خلفوها بعد التحكيم فرادى مفرقين ... لاحتطة . ولاحرز لسر . ولا مجرد
إيهام لهذه الزمر الحاشدة حيالهم من خصوم وأولياء يضعهم في أخلادها حين
علانيتهم أو نجواهم على هيئة رفاق . والناس من ورائهم يشهدون من خلافهم ،
ويسمعون من لغظهم ما ينبئهم عن خطر فشل مقدور . . .

على أن أجدر فرقة مما ضمت البلدة الصغيرة إذ ذاك باستشارة الفضول كانت
التي وسمها ماضيها البعيد والداني بالانحراف كل الانحراف عن الإمام — تلك التي
تخلفت عنه تخلفا كالخيدة فلا إليه ولا إلى غريمه ابن أبي سفيان ، أو تناوت تناوبا
بلغ بها كراهة النصر له إن لم يوغل في هذه الكراهة إلى أغوارها حتى يصل
إلى ألد العداء . فمنها من قعد عن بيعته وعن نصرته كليهما وهو يبدو كمن آثر
السلامة في القعود . ومنها من ثبط نفسه عن للمشاركة فيما وقع بينه وبين معاوية
وهو مع هذا إلى معاوية أميل . ومنها من كان حربا عليه مجلبة ثم كفه عنه المعجز
فإذا هو يخلد إلى نجوة ، أو إلى عزلة سياسية يستأني بها الزمن عسى أن يطلع
له ساحة يستطيع فيها أن يعاود لدهه ويشبها على الإمام من جديد خصومة مدمرة ...
من هؤلاء شهدت دومة الجندل كثيرين — أفرادا وشيما يخالطون فيها
الجموع الشاهدة والوفود الرسمية ويمدون بينها أسماءهم وأعينهم هنا وهناك لتصيد
اللمحة والهمسة وتجمع النذر لتستخيرها نتائج التحكيم . . .

فقيم مقدمهم ؟ . . . فيم خروجهم الآن من معازلم التي سكنوا إليها كل هذه
الشهور ؟ . . . أبغية رقبة ؟ . . . أعن تشوف وفضول ؟ . . .

عجب الناس لهم وأكثروا في أمرهم بالمساءلة والاستفسار . فإن منهم عبد الله
ابن الزبير . وإن منهم للغيرة بن شعبة . وإن منهم عبد الله بن عمر . وإن منهم
أيضا سعد بن أبي وقاص تجرى السنة بأنه أقبل ، وتجرى أخرى بأنه على عزله ،
وتجرى ثالثة بأنه بين هذه وتلك قد آثر أن يشهد الأمر عن كئيب وهو بنجوة
لأنه كره أن يخالط الناس وأن تكون له في ندوتهم للعقودة صورة حاضرة
أو خيال منظور . . .

ومع ذلك فالناس لا يملكون عجبهم ، ولا يحكمون أيضا السنتهم أن تخوض في سيرة أولئك الأفراد وأمثالهم ممن تعيدهم غواجرهم إلى الذاكرات وهم مع طي على مشاقة أو علاقة لا يفهم قط أن من معانيها الولاء . . . كلا ، ليس الفضول وحده هو الذي ساقهم ، ليست بغية الرقبة ، ليس واهم باستباق زمينهم والطفرة من حاضرهم وحاضر الناس على أجنحة الاستقراء إلى تلك اللحظة المرتقبة من مستقبل قريب مجهول ، التي ستطلع عليا لهم على ما يشتهون ، أو على غير ما يشتهون . . .

وحق العجب ثم حقت بعده الريب والظنون . . . أم لا فقيم إذن قد أقبل للغيرة بن شعبة الذي له ، منذ ولاية علي ، رأى في معاوية كان خليقا بأن يضعه حيث هو الآن من الشام ، غير مدافع ولا منكور عليه حقه فيها ، وإن كرهت طبيعة الثورة التي ما قامت إلا لإقصائه وأمثاله من ولاية عثمان ؟ . فيم أيضا مجيئه الآن ، وإنه ليحظى في هذا المجمع يشم الريح ، ثم يكر إلى معاوية بلسان بشير . . . ثم فقيم ، بعد هذا ، بشراء . . .

وفيم كذلك مقدم ابن الزبير . . . ذلك الأطلس كالدثب الذي أغمد سيفه بعد الجمل وهو مقهور ، واعتزل الأمر وهو كاره ، أيجيء لحبر ؟ . . . أجااء ليشهد كما يشهد الناس ، ويسمع ما يسمع الناس . . . أتكفيه من هذه الغمرة النظرة . . . لنوشك الشبهة أن تسبق إلى أخلاذ الجوع كل نظراته البريئة الخائلة ، فللمشاهة — فيما يحدسون — كان إقباله اليوم على حجمهم ، يشفى بها نفسه التي أصابها على بالقرح ، إن أطلعت اللحظة للمرتقبة عليا هذا وهو مقهور . . . أكانهم به يشهد ليشتت . . . أو أكانهم به يسهم في الأمر ما وسعته حيلة أو وسيلة أتأتى نتيجة التحكيم بما يفسح له في شفاء ضغنه على الإمام . . . أو أكانهم به قد استخفته منزلته إذ هو ابن الزبير ، وابن أخت عائشة ، وسبط أبي بكر ، والساعي إلى الإمرة ذات يوم بأبيه ، وصاحب السابقة في الدين ، فجاء يعرض الآن نفسه في سوق الاستخلاف ، إذا اضطرب الناس ينفشون رجلا يجمع الشمل ويحسم الخلاف . . .

وفي الواقع لم تخل أذهان الجموع في دومة الجندل من أمثال هذه الخواطر التي
تطلع تلك الطائفة من المعتزلة طامعين في الخلافة ، لا يشهدون مجمع التحكيم إلا
راجين أن يختمهم الناس . فما تغيب عن أحد سابقهم إلى الإسلام ،
ولا استطالهم بقريش ، ولا — قبل هذا كله — بعد كثرتهم عن الانتماس في
الفتنة التي أسالت الدم ، ونشرت الفرقة ، ونالت من عزم الدولة ، حتى أوشكت
أن تسوقها إلى مضيعة . وإذا كان ابن الزبير قد انغمس في الخصومة التي مزقت
الأمة ، فلمهم عنه عوض فيمن هو خير منه ، وأنتى يدا وأخلص نية : عبد الله
ابن عمر ، أو سعد ابن أبي وقاص . . .

وهكذا يكثر الناس في الرجلين ، يستنبطون الدوافع ، ويتخيّلون النتائج ،
ولا يكفون عن ظن الظنون وحديث الأحداث . فما هو أن يظهر ابن عمر
بالبلدة الصغيرة ، حتى تتعلق به الخواطر وتشرئب إليه الأنظار . وما هو أن يذكر
ابن أبي وقاص ، حتى تستبق الأخيلة تروء مكانه ، هنا أو هناك ، بدومة
أو بخارجها ، وتنسج حوله الروايات . . .

وهكذا تنطلق الأمانى بالجموع ، ظنا وتقديرا وخيالا يشطح فيداني الحقائق
مرة ، ثم يجانبها حرات ، وهم مع هذا آتسين إلى أنفسهم ، راضين عما تزخرف
لهم حتى ينمض القدر إلى شوطه ، فإذا هو يسبق كل ظنونهم بما تنقطع دون
بلوغه الأنفاس ؟ . . .

٦

لم يكن سعد بن أبي وقاص ، في الأغلب ، قد دخل دومة الجندل ، وإن
دخلها دون ذكره ، ولا شهد شيئا من مجملها التاريخي الخطير ، وإن شهد
اسمه الرنان . . . ولعله كره شهود ما تمخضت عنه تلك الفتنة التي توقاها جهده .
أو لعله ربا بنفسه أن يكون من هذا الاجتماع بمكان للفتنم الذي يثير العجب ،
ثم لا يسلم من اللامة ، لما ينسى موقفا وقفه بماضيه ، وطاب فيه على الدخلاء

للمقتحمين شهودهم ما لم يدعوا له غب مصرع عمر واجتماع أهل الشورى لاختيار خلفه . . .

كان ذلك والأمة من مقتل ابن الخطاب في جزع ، ومن اختلافها بعده على نفسها في خشية إن هي لم تجتمع على أحد الستة الذين رشحهم الخليفة الصريح لولاية الناس . وكان الستة في دار المسور بن مخرمة ، يديرون بينهم حديثهم بعيدا عن العيون والأسماع ، ثم لا يكادون يدرون إلى أيهم يدلون بالبيعة . . . وعندئذ أقبل عمرو بن العاص ، ثم أقبل من بعده المغيرة بن شعبة ، وقد استخفهما الفضول وغرتهما مكاتهما ، فانساقا إلى باب الدر ينستان ، أو يحاولان الإنصات . فإذا سعد يبادرهما ، فيأخذ عليهما مسلكا للمقتحم الدخيل ، وإذا هو ينهرهما نهرا شديدا ، ثم يحصبهما بالحصباء ، ويطردهما وهو يقول :

« جئنا لتقولا حضرنا الشورى . . . »

وحرهما الفخر الذي سعيا إليه . . .

أجل ، لعله ذكر هذا الموقف فأبى لنفسه أن تلقى ما لقيه منه إذ ذاك المغيرة وابن العاص ، وبقي مؤثرا نأيه — عن دومة وعن مجعها — حيث اختار وأقام . . . على أي حال كان الرجل معتزلا ، محلصا — فيما بدا — لعزله ، مؤمنا كل الإيمان بأنها أسلم له في دينه ، وإن لم تكن أجدى عليه في دنياه ، فهو منذ تخلفه في بلدة الرسول عن بيعة على لم يسهم في شيء من الأمور العامة ، بل قد انسلخ عن مجتمعه الذي عاش فيه خير أيامه ، وأبرد جذوة نشاطه الذي أسلكه في الأعلام ، وأخلد إلى خلوة كادت تضعه وراء العيون والأسماع . . . وإنه الآن ليؤثر على بوارق الحرب والسياسة ، وأمجاد البطولة ، ورنة الذكر والصيت ، حياة هي الخمول يقضيها في البادية بين غنمه ، راعيا كالرعاة . . .

لكن ابنه عمر لا يرضيه هذا الخمول من أيه . فالتقى طموح . شغوف بتسليم غوارب الشهرة وإن لم تكن هذه الشهرة من غرس يديه وكانت ظلالا لب يستطيع ، لو شاء ، أن يتبدى لقومه في هيئة عملاق . . . والتقى منهوم للعلياء ، أو هو في الحقيقة مولع بذيوع الاسم واستطارة الذكر وليس يضيره أن يأتيه هذا الذبوع وهذه

الاستطارة بأية وسيلة ومن أى طريق . ولسوف نراه من بعد يتلمس إلى مبتغاه كل سبيل حتى ليهطع إليه حين تحقق عليه شقوته ، غير متأثم ولا ثقیل الضمير . وهو يسبح في بركة من دماء الحسين الشهيد . . .

لا يرضى عمر بن سعد بهذا الخول من أبيه فيسرع إليه ، بمعتزله الذي اختاره بالبادية عند ماء ابنى سليم ترعى حوله غنماته . . . ويشهده الرجل ولا يقبینه وهو قادم عليه من بعيد . ويرمى بنظرة مستريية إلى هذا الراكب المجد الذي يقطع الطريق صوبه فوق مطية لا تسكاد قوائمها — لفرط سرعتها — أن تستقر على الرمل . . . فإذا هو يتوجس . وإذا هو يستعيد :

« أعوذ بالله من شر هذا الراكب ! »

وتعصى من الوقت لحظات ثقيلة . وتأخذ المطية في الدنو . وتتضح قسبات راكبها فيسرع الشيخ إلى ولده في لفحة يستخبره أمره الذي أركبه اليد :

« مهيم — (ما شأنك) ؟ »

ويبادره الفتى ، من بين لهثاته وما تزال قدمه في الركاب :

« أبت ! . . . التقي الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك ، حتى تفانوا . ثم حكموا الحكمين : عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . وقد حضر ناس من قريش عندهما . . . »

ويتريث مليا ليلتقط أنفاسه والشيخ صامت يصغى وينتظر . . .

فهل هذا الخبر جديد ؟ . . . إن الناس ليتقولون في هذه الساعة على سعد أنه خرج إلى هذا الجانب من الصحراء ليتشوف لنفسه الأنباء التي تشغل الجميع . . . ويعود الفتى إلى حديثه ، يضغط على الكلمات والحروف لتؤدي عنه بعض ما يرمى إليه :

« . . . فاشهدم ! . . . إنك صاحب رسول الله ، وأحد أصحاب الشورى ،

ولم تدخل في شيء كرهته هذه الأمة . . . »

لسكن أباه ييتسم في هدوء من لم تثر فيه الكلمات للفرية أية حماسة ، وإنما

يقول بإيجاز حازم :

« لا أفعل ! . . . »

« احضر دومة الجندل ، فإنك صاحبها غدا . . . »

فلا يزيد جواب الشيخ عن هزة من رأسه تفصح عن تأييه .
ويشتعل عمر . ويضئ محنه ويشيره لعل جذوة المجد الحبيثة في صدر الشيخ
ينتفض عنها رماد الخول فتعود للنوهج :

« يا أبت احضر ! . . . فإنك أحق الناس بالخلافة . . . »

غير أن الوالد لا يهتز بهذا التحريض ، ولا بهذه المخايلة المغرية بالسلطان
الباذخ الذي يكاد يجثو له عند قدميه ، بل يقول في تؤدة ورفق كمن يلقي الفق
درسا لا يعيه :

« مهلا يا عمر ! . . . إني سمعت رسول الله يقول : يكون من بعدى فتنة خير
الناس فيها الخفى التقي . يا بني . . . إني لو كنت غامسا يدي في هذا الأمر
لغمستها مع على . . . »

ويدهش الفقى وتتسع حدقتاه . ولكنها على أى حال الدهشة التى قد تفسح
للرجاء . فعمل أباه مسهم فى الأمر فى جانب منه إلى ناحية على فخارج بهذا من
عزله ، معاود نشاطه الذى لا ريب حقيق بأن يفتح أمامه الأبواب . . . الآن
قد طمع عمر فى تحريك الشيخ . . .
ويقول سعد وقد رأى سكون ولده ، وشهد فى الأفق خطوطا داكنة
ترسم الظلمة :

« أقم عند أبيك ليلتك هذه . . . »

ولكنها ليلة بلا مضجع . . . فالرجل يقظان ، والابن يقظان قد تحركت
عليهما أشجانهما خالف الأرق منهما الجفون . . . كلاهما أرقه همه . الصباحى
الجليل القانع يجتر خطته التى رآها جنبته إلى ليلته هذه فتنة مضلة ، والشاب
الطامع يشغله وهمه الذى أطلع له آماله دانية ان تلبث حتى تتوئب نحوه عرائسها
بكلمة يلفظها فم آيه . . . وحيالهما هنا الليل ينساب ثقيلًا بطيئًا له فى النفس
وحشة كأنه الرقطاء تزحف على الرمل . . .

وفي غمرة الهدوء ، ومن بطن الظلمة التي لفت المكان ، ينبعث صوت هامس حزين :

« هربت بديني والحوادث حجة وفي الأرض أمن واسع ومعول
فقلت معاذ الله من شر فتنة لها آخر لا يستقال وأول ... »
فينتفض الفق . ويمد عينا في السواد حوله ، وأذنا متلصصة تسترق
الهمسات ...

ويهمس الصوت ثانية ، بنفس النبرة الحزينة :

« واسكنني زاولت نفسي شجيرة علي دينها تأبى علي وتبخل .
فيا عمر ارجع
وعندئذ يثب عمر ا . إنه إذن أبوه قد كشف عن نفسه وهي أشد
ما تكون إصرارا على ما كانت عليه أمس ، لم يحركها تحريضه ، ولا إغراؤه ،
ولا هذه الخالية بالسلطان الداني الذي يوشك أن يقدم اليوم عليه ليجهز آتيا
عند قدميه ...

إنه إذن وهم وسراب ما رجاه من الشيخ ...
ولا تلبث الابن حتى يطلع النهار فما له الآن مقام بأرض تموت فيها أطماعه ...
إنما ينفذ عن نفسه تمها ، وعن أعضائه تفترها ، ويسرع بعد راحلته ...
غير أنه لا يمضي حتى يقذف أباه ببعض حنقه عليه كلاما جافا لا لين فيه ،
كله إنكار وسخرية :

« يا أبه ... أرضيت أن تكون أعرايا في غنمك والناس يتنازعون
الملك في المدينة ؟ ... »

وإذ ذاك يدع الرجل ما كان من حله وترفقه به ، ويدفع يده في صدره
يتنهره :

« اسكت ... والله لأشهد هذا الأمر أبدا ... »
ولا يعقب الفق بشيء ، بل يذهب فيمتطي راحلته ويلوى بجانها صوب
الشمال ، وإن بنفسه لما يشبه النعمة ، وإن بحلقه لفصة ، وإن كيانه كله ليهتز

من غضب ومن عجب لهذا الشيخ الذى آثر رعى الأغنام على سياسة أمور دولة
سرحت تخومها بين قرنى الشمس ، وعلا عرشها على سماء العروش . . . وفي
سكون . ورأسه ناكس على صدره ، يضرب فى عرض الصحراء . . .
وحيال غبشة السحر ، يقف الأب كأنه قطعة تخلفت من ظلام الليل الداهب ،
يشيع ولده بنظرات فيها أسى وفيها رثاء ، لا تزال تمضى وراء الدابة خطوة خطوة ،
ومرحلة مرحلة ، حتى تذوب بفتاء فى الظلمة . . . فإذا غابت عنه إلا آثارا حفظتها
الرمال الندية ، تلونت النظرات المشفقة الأسيانة بالرضاء ، ومسحت على ملامحه
الغضبي بأطيان من الطمأنينة . فلقد ذهبت الدابة ، ومضى الراكب ، وانطوى
معه شره ، وبقي للراعى الشيخ السلام الروح ، والسلامة للدين . . .

* * *

طموح عمر بن سعد الآن فى مغربه . . . ولكنه لا يزال يابح عليه ، ويتشبث
به تشبث المحتضر بدنياه ، ويتمجله ابتغاء المجد لنفسه من أهون سبيل . الفقى
لا يريد أن يقنع بهذه الفسكرة التى تسيطر على أبيه لا يريد أن يستسلم لها .
لا يسعه قط أن يدع الشيخ وما اختار من منزل بالبادية على حافة ماء بين غنيمات
لا ينال منها ، هو الابن الظالم للشهرة ، سوى التحول . . .
ودومة تكتظ . . . الناس تقبل عليها من كل ناحية . الأحاديث تجري فيها ،
همسات تارة وعلانية أخرى ، بأنه لا مخرج للأمة مما قد وقعت فيه إلا بالعدول عن
على وعن معاوية كليهما إلى امرئ فى الرجال لم يلوئه هذا التنازع على السلطان ،
ولم تختضب يده بدم الفتنة ، ولم ينطق له لسان بحرف فى مساجلات هذا الخلاف .
فمن فى الأمة كأبيه ؟ . . .

من الذى يلوذ به القوم ، من هذه الطائفة ومن تلك ، ومن بقية أهل
الإسلام فى كل بلاده حين تذلم الخطوب ، وتمم الكروب ، ويتلفتون
يتلمسون اللاذ ؟ .

إنه هذا الذى يقبع فى هيئة الرعيان ، بين غنيماته ، على حافة ماء . . .
لا سواء . . . فهو بقية أهل الشورى من أصحاب رسول الله ، ذهب أربعة
إلى ربهم يبتغون رضوانه ، وبقي خامس انغمس فى الدماء إن تسكن البيعة له فنصف

شعبه عليه ، ونصفه الآخر من الذين معه قد هان حقه عليهم حتى أنزلوه الآن بمنزلة سلعة تعرض في السوق

ومع ذلك فهذا الأب العنيد يأبى . ولا تزال الفكرة القديمة ، التي راودت ذهنه بالمدينة من عامين ، باقية غضة على جدتها في نفسه ، وعلى قوتها أيضا ، تسيطر عليه ، وتستأثره وهو أخو بادية ، راعى غنم ، في بني سليم . . .

كلا ، لن يستسلم الفتى . . لا يدع هذه الخلافة التي تسمى لأبيه وتقول : « هيت ! » تلوى جيدها عنه يائسة إلى حينما يتلقفها ذراعا أى عابر سبيل . . وإذا كان هو قد فاته التوفيق ، وفشل في إغرائه أو إقناعه ، فلعل غيره يكون أحظى لدى الشيخ ، وأبعد جدا ، فيسعه أن يلين من صلابته ، وينفض القبار عن جذوة همته ، ويرده إلى القبول . . .

ويسرع عمر إلى أخيه . .

وينطلق عامر بوسوسة عمر مثل انطلاقه هذا من قبله فيركب الصحراء إلى الراعى الشيخ العنيد . . .

ويتلقى الأب فتاه الثاني بترحاب . . .

فإذا قر القدام ، وهدأت أنفاسه ، وجرى الحديث بينه وبين أبيه رخيا في غير تلهف . لينا في غير اقتحام ، عاج الابن بكياسة الأريب إلى ما جاء فيه . . يرسل عامر عينا ترود المكان الفسيح الذي يحنويهما ولا يحدده إلا التيه . . لكانه ينبو بهذا العشب الأخضر الذي يفتح أطراف السماء . . لكانه يضيق بالقطعان والثغاء والرغاء . . لكانه يستوحش لهذا المحل الذي تقطنه خيام تناثرت على الأديم الأصفر من رمل شاحب شحوب العدم . . أما غير هذا الفراغ والشحوب والوحشة . . ؟

ويرد عينه من شرودها إلى أبيه ليقول ، وهو يبدو كمن لا يبالي ولم يستلهم عزمه ولا أعمل الفكر ليقول :

« يا أبت ! . . الناس يقاتلون على الدنيا وأنت ها هنا . . ؟ »

ويدفع بصره ثانية ليسبح في التيه . . .

ويسكت الأب . . .

ويسكت الولد أيضا . إنه ليحمل نفسه حملا على السكوت حتى لا يشي بما في نفسه . ولكنه بين اللحظات يدير النظرة الخالسة في ملامح أبيه لعلها أن تقع فيها على ما ينبئ عنه أثر ما قال . . .

غير أن الشيخ لا يفوته القلق الذي يستره صمت ولده . ولا حيرة النظرة الخالسة . إنما يظن ويتريث فما يغيب عنه شيء مثل هذا الحديث . . . ثم يضحك أيضا . . . لكنه الآن أرق جانبا وألين عريكة منه حينما حدث عمر . فليس يضيق من عامر الكيس الرقيق بخلافة رعناء بخلافة أخيه . وليس ينتظر منه مثل إلحاح ذلك وانتهاك سره . وهل هو — فيما يظن — إلا رسول ؟ . . .

ويرمق بعد هنية ابنه عاتبا ، ويقول له في رفق وهوادة :

« يا بني . . . أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسا ؟ . . . »

ثم يهز رأسه مرات هزة التأني للنكر ، ويتابع كلامه بنبرات حازمة تبين عن إصراره :

« . . . لا والله حتى أعطى سيفاً إن ضربت به مؤمنا نبا عنه ، وإن ضربت

به كافرا قتلته . . . »

عندئذ يفضي الفتى على حياء . . . ثم يمضي يتفكر . . . ثم يدير في باله هذه الفكرة التي انبثقت فيه فجأة كما ينبثق نبع الماء من صخرة صماء . . . أيكون أبوه في هذه اللحظة قد استنارت بصيرته فرأى على النور اللهم أن الفتنة التي أخذ نفسه بتوقها أمس ، هي اليوم باقية ، وهي غدا باقية ، وهي أيضا باقية بعد هذا التحكيم الذي قد ظنه الناس قاضيا عليها ورادا الأمة إلى الألفة ؟ . . . أئمة حقا صيوف متضرب ، وقتال سينشب ، ومؤمن سينزو على مؤمن فيسفك دمه بعد كل ما قد سلف من ضحايا ودم في تلك الأيام السود ؟ . . . لهذا يحجم الشيخ ويحبس نفسه مؤثرا المكث بالبادية وعيشة الرعيان ؟ . . .

ويتم سعد ما بدأه :

« يا بنى . . . إني سمعت رسول الله يقول : إن الله يحب العبد التقي الغنى الخفى . . . »

ثم يرتد به ذهنه إلى حقبة من ماضيه ، وإلى محبة رضية كان فيها أمن نفسه في ظل صاحب عظيم كريم ، وإلى كلمة سمعها حينذاك من شفقي محمد رطبت صدره ، وأطفاأت فيه نار الأطماع التي توقدها دنياه :

« قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا ، وقنعه الله بما آتاه . . . »
وصدق رسول الله . . .

وكان هذا حسب من حياته . فقد اتقى الفتنة ، وفر بدينه إلى الصحراء ، وغنى بهذا الكفاف من عيشة البادية الذي قنعه به الله . . .

وكان هذا حسب فتاه . . . فلن يعدل الشيخ شيئا بعزلته في هذه للفازة الجرداء وإن كان ملكا باذخا يبدأ مع المشرق ويكتمل بالغروب . . .

وكان هذا أيضا حسب تكلم الجموع الحاشدة بدومة الجندل ، الصاحبة على لقط ، النائمة على أحداس . . . فقد ختم سعد بحديثه مع ابنه محائف فصولها للطولة ، وما لعلها كانت علقته عليه من آمال أو احتمالات . . .

* * *

ويرجع عامر . . .

يرجع وهو ، فيها نحسب ، مقر أباه على موقفه ، راض له بمزلته التي جنبته الفتنة أمس ، وهي كفيلة بتجنيبه مثيلات لها يوشك الغيب أن يكشف عنها أستاره ، ليدهم بها الناس في القريب . . .

وتتهاوى مطامع عمر . . .

تهاوى ، فيطوى سجله على الشهرة السهلة الدانية . ويخلق نفسه على آماله ، ثم يحملها على الانتظار ليوم قابل قد يوسع له في الجواز إلى بغيته وإن على حساب مكارم الخلق ، وإن بلغها ما بها على بركة من دماء الشهداء . . .
ويلاوى الناس نظراتهم إلى جديد . . .

يلوونها عن راع شيخ بالبادية ، على حافة ماء لبني سليم ، ويمضون بها تعس
وتطوف في هذه الزمر من ذوى الأسماء الرنانة ، ومن أصحاب الأصول والأنساب ،
ومن رجال السابقة في الدين . . .

فأين هنا بغيتهم ؟ . . .

لتوشك العيون أن تطوف وتدور ، ثم تدور وتطوف ، ثم يعيها الطواف
والدوران فلا ترى حيا لها — بعد سعد بن أبي وقاص — غير واحد في القوم
تناهت عليه العيون والظنون . . .

ذاك عبد الله بن عمر بن الخطاب .

أجل ، لا سواء . . .

إنه امرؤ له صحبة . وله سابقة . وله ورع . وهو من القلائل الأولى لم يدخلوا في
هذه الفتنة التي كرهتها الأمة الآن . وكان له إلى جوار هذا ذكر في الشورى إن لم
يلحقه بأهلها فقد وفر له من غيرها ما لم يتوفر لغيره من أجلة الصحابة الأحياء . . .
وهو ابن عمر أيضا . . . وحين يذكر عمر فاسمه إذن هالة من النور
تخطف الأبصار . . .

على أى حال ، اجتمعت في الرجل كل المزايا التي اصططلحت أفكار الناس
حينذاك على وجوب اجتماعها في الأمير الجديد ، فلا عجب أن تانط به الألسن ،
ولا عجب أن تنسى به راعى بني سليم . . .

٨

ما شاعت قط حينذاك شائعة بدومة الجندل ، وربما ببلاد الدولة الإسلامية
عامة على انفساح رقعتها وتمدد ناسها وأجناسها ، كتلك التي كانت ترى الخير في
الخلاص من هذا الخلاف الذي طاقته الأمة ، وطعمت للرم من ثمره ، بالخلاص ممن
أثاروه وأذاقوا وطنهم علقمه . . . ما من فكرة شغلت الخواطر ورددتها الألسنة
تلك الأيام انتشرت في الجموع بدومة كهذه . فخلع على وإقصاء ابن أبي سفيان

حسم للنزاع . وحسم النزاع عود إلى السكينة . وفي ظلال السكينة تستطيع
المواطن أن تهدأ ، وتستطيع العقول أن تفكر ، ويسع الناس بعد هذا
وقد تحملوا من عهودهم لهذا الرجل ولذا ، وارتد أمرهم إليهم ، أن يعيدوها
عندئذ شورى جديدة ، يختارون بها لأنفسهم الأمير الذي يرتضونه وتسكن باختياره
ثائرة الخصومة ونوازع الشقاق . . .

كانت هذه هي الوساس التي تخامر القوم وما يزال الحسبان لم يلتقيا ،
وما يزال الحكومة المرتقبة تتعثر بينهما لم يوردا فيها ولم يصدرا عنها برأى ولا بيان .
وكان حقا لهذه الوساس وأمثالها أن تجد الطريق إلى الأنفس ممهدا معبدا
لا عوائق فيه . فالعامة والخاصة من الفريقين المختصمين ، ومن الطوائف الشاهدة
جميعا ، كانوا قليلي الإيمان بالتحكيم ، قليلي الرجاء في جدواه . . .

بل قد كان هذا أيضا شأن علي . وشأن معاوية سواء بسواء . كلا الرجلين
كان ينتظر على قلق ، وكان يتصبر ولا يصبر . وعندما تعرض لحال ابن أبي سفيان
— فأمر على هنا معروف — نجده قلقا وتوجسا وحيرة . إنه لا يكاد يأمن
حق لهذا الحكم الذي بعثه وهو يرجو الخير على يديه . لا يكاد يثق في إخلاص
عمرو له ولغاياته التي مضى فيها لجمع التحكيم . وإذا كان قد أولى ابن العاص
كل ثقته عند مخرجه إلى دومة فإن الأنبياء لم تن تأتبه واقفة بما يهز هذه الثقة هزا
عنيفا ويوشك أن يقتلها من جذورها التي حسنها ثابتة . . . ينصح عمرو ليتحرز
عند التقائه بخصمه أبي موسى حتى لا ينضله الأشعرى في الحكومة ، فيطمشه
عمرو ويقول :

« . . . أقل الاهتمام بما قبلي ، وارج الله تعالى فيا وجهتي له . . . إنك من
أمرك على مثل حد السيف ، لم تنل من حريك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت .
ونحن نرجو أن يصنع الله لك خيرا . . . »

ويطمئن عاهل الشام لحكمه كل الاطمئنان ، حتى لقد يدع له الحرية كلها
في أن يقول ما يشاء ويفعل ما يرى دون إرشاد منه ولا توجيه . يتجلى هذا حين
يسأله عمرو رايه :

« أرايت إن ذكر أبو موسى عليا ، وجاءنا بالإسلام والمهجرة واجتماع الناس عليه ، ما أقول . . . »

فيكون الجواب الذي يبادره به معاوية وهو واثق فيه ، آمن له :
« قل ما تريد وترى . . . »

لكن هذه الثقة لا تليث — كما قلنا — أن تهتز فتوشك أن تتقوض وتنهار وتنبت في مكانها الشكوك والظنون . . . فلقد ذهب المغيرة يتشوف له الأخبار بدومة ، ويلقى هذا الحكم ويلقى ذلك ليعرف ما أبطناه ، ثم يعود فيقول لمعاوية عن ابن العاص :

« . . . وأما عمرو فهو صاحبك الذي تعرف . وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه ، وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه . . . »

ويختبل الأمر على الماهل وينوشه القلق ثم تفتقره الوسواس في شأن هذا صاحب الذي يتحدث الناس بأنه طامع لنفسه ، موجه الأمر في التحكيم بحيث تنتهي إليه هو دون هذه الإمرة التي كافح لها كل هذا الكفاح للرب . . . تختبل أمره عليه . وتنتكث ثقته ، ولا تعلق له الأحاديث التي تروح وتغدو في لحظة واحدة من الطمأنينة وراحة البال . بل إن هذه الأحاديث لتغلو كل الغلو في تصوير « أزمة الثقة » بين صاحبين حتى لتسويها قصة ، هي أدنى إلى التلفيق والاختلاق منها إلى مسامرة الحقيقة والنطق ، تبين عمق الهوة بينهما إلى ما بعد انقضاء التحكيم وحين لم تعد حاجة لحكم عمرو ويتعلق به مصير ابن أبي سفيان فيخشاه . . . ولكنه غلو إن يكن ينحو إلى الخيال فإنه ، على أي حال ، دلالة تؤيد هذه « الأزمة » التي أسلفناها ولا تنفيها بحال ، لأنه لا دخان بلا نار . . . تقول القصة . . .

ويكون آخر اجتماع . . . ويمضي أبو موسى يمرض أصماء من يرى فيهم خيرا ، ومن يرى من بينهم من هو أحق بإمرة الناس . . . ويمضي عمرو يرفض ، ثم يذكر اسم معاوية . فإذا أباه الأشعري بادره عمرو :
« فأنتيك بأخر ليس هو بدونه . . . »

« من هو ؟ »

« أبو عبد الله عمرو بن العاص . »

ويعلم أبو موسى أن خصمه يلعب به ولا يريد الفراغ — لأمر في نفسه —
مما قد بهت فيه فيغضب . وينفض يده من حكومة لا جدوى فيها ، ويأحق بمكة .
ويرجع عمرو إلى الشام فينزل منزله دون أن يأتي معاوية أو يحدثه بشيء .
ويقلق معاوية لاحتجاب رفيقه عنه فيبعث إليه يدعو ، فإذا جوابه عندئذ له
جواب لا يخطر ببال . . .

يجيبه عمرو :

« إنما كنت أجيئك إذ كانت لي إليك حاجة ، فأما إذا كانت الحاجة
إلينا فأنت أحق أن تأتينا . . . »

إذ ذاك تتحقق وساوس معاوية ، لكن ما من سبيل له إلا إظهار
الخضوع . . .

ويدبر العاهل في نفسه أمرا يراه خليقا بأن يضع هذا المستعلى عليه حينما يجب
أن يكون وتسكون أطاعه . . . ثم يدخل عليه منزله . . .

ولا يقوم عمرو لاستقبله ، ولا يدعو أيضا لمجالسته على فراشه الذي اتكأ
عليه في خيلاء ، إنما يدعه يسعى نحوه ، ثم يقتعد الأرض عند قدميه ، ثم لا يكاد
يلتفت إليه . . .

ويتحدث الرجلان ساعة ، هذا يرفق كل الرفق ، ويظهر الخضوع كل
الخضوع ، وهذا يعنف كل العنف ، ويظهر الصاف كل الصلف ، حتى إذا بلغا
مقطع الجد من حديثهما ، أخرج عمرو كتابا فنشره ، وقال :

« هذا الكتاب الذي بيني وبين أبي موسى ، عليه خاتمي وخاتمه ، وقد أقر
بأن عثمان قتل مظلوما ، وأخرج عليا من هذا الأمر ، وعرض على رجلا ،
لم أرهم أهلا لها . . . »

ثم يتمهل برهة يعود بعدها إلى الكلام في اعتداد يداني الغرور :

« . . . وهذا الأمر إلى ، استخاف من شئته . . . قد أعطاني أهل الشام عهدهم وموائيتهم على ذلك . . . »

ويبدى معاوية الافتناع ، ويداوره مليا ، يداعبه حيناً ويضاحكه آخر كأنما ليس في الأمر ما يسوءه ، فإذا طال الوقت ، وراه قد أنس له ، وقال :

« يا أبا عبد الله ، هل من غداء ؟ . . . »

فيلتفت عمرو إلى من حضره من رجاله وغلماؤه — الذين جمعهم بمجلسه ليأمن على نفسه فجاءات « غريمه ا » — ثم يضحك ويحجب :

« أما والله شيء يشبع من ترى ، فلا . . . »
عندئذ يدعو معاوية أحد مواليه الذين بالباب ويأمره :

« يا غلام ، هلم غداءك . . . »

ويؤتى بالطعام من قصر الماهل . . . ويضيق المسكان فليس يتسع لرجال الصاحبين ، فيقول معاوية :

« يا أبا عبد الله . . . هلم مواليك وأهلك بأكل أصحابك . ثم يأكل أصحابي بعد . . . »

ثم تبدأ الولجة كلها فرغ أحد رجال عمرو من طعامه قام فجلس صاحب معاوية ، حتى لم يعد أحد بالقاعة إلا منهم ، وحق يتلفت ابن الماص فإذا هو حبيس بين هذا الجع الذي لا يأمنه على نفسه وكل مواليه وأهله خارج الدار . وبهت الرجل وعينه تنتقل من الباب المغلق إلى أولئك الذين أحاطوا به . وهتف وهو متهور :

« فعلتها . . . »

فابتسم معاوية وقال باستخفاف :

« أي والله . . . وبينى وبينك أمران اختر أيهما شئت : البيعة لي ، أو أقتلك . . . »

« فأذن لغلامي وردان حتى أشاروه . . . »

« لا تراه والله . . . ولا يراك إلا قتيلا أو على ما قلت لك . . . »

ولم يكن إذن بد من التسليم ، فقال ابن العاص :

« فأولنى مصر . . . »

« هى لك ما عشت . »

ودعا معاوية أصحابه والخواص من أهل الشام يشهدهم ، ولم يدع أحدا من رجال خديته :

وقال عمرو يقر على نفسه :

« قد رأيت أن أباع معاوية ، فلم أر أحدا أقوى على هذا الأمر منه . »

وباعه فباعوا ولم ينصرف عاهل الشام إلى داره ، ذلك اليوم ، إلا خليفة ! .
تلك هى القصة ! . .

إنها لا ريب حديث خرافة ، ووليدة صناعة واختلاق . ولكنها أيضا دلالة لا سبيل إلى إغفالها حين تعرض لهذا القلق الذى ركب الناس جميعا من هذه الحكومة ، ولهذا الشعور الذى جعلهم قليلي الإيمان بالتحكيم ، قليلي الرجاء فى جدواه . . .

وفى الحق ، لم تكن الجوع بدومة ، حين تلاغطت بفكرتها القائلة بخلع على وإقصاء خصمه ، بالمتجنية على شواهد الحال ، ولا بالتي تعتسف الحلول دون أن تستشفها من مقدمات ثابتة مدروسة . إنما كانت تستهدى حاستها الجماعية ، أو وعيها ، أو أيما اسم يوائم شعورها اللهم حينذاك من أمثال هذه الأسماء فتستجيب لمساء . فما ينسون أن عليا قد أكره على هذا التحكيم وإنه لصاحب الأمر الذى لا ينكر عليه حقه فيه بتحكيم أو بغير تحكيم . . وما ينسون أيضا أن معاوية إنما احتال بهذا التحكيم ، ليلم من شعث جيشه الذى تهاوى فى المعركة تهاويا ذاتى الهزيمة ، وليعد عدته خلال الهدنة لتهيئة جيش جديد ، أفيستسلم إذن أى الرجلين ، وأحدها معه حقه ، وثانتهما معه أطباعه وجنده المعد للنظم ، لكلمة يلفظها الحكمان ! .
كلا ، ولا جدال ! . .

لهذا آمن الناس بأن هذه الوسيلة للإصلاح قليلة الغناء ، مقضى عليها بالفشل من قبل أن تكون فعلى حساب أحد الخصمين ستأتى نتيجة الحكومة وما هو إذن براى عنها وإن نطقت بها عصبة من الحكام . . ؟

وندع مشاعر الناس . وندع حديث الظنون والوساوس التي تفرق في الخيال وتشطح وراء الأمانى أو الأوهام على عاداتها في الأزمات والخطوب . . . ندعها جميعا فإذا بنا من الوقائع الثابتة في مثل ما تقودنا إليه الأقاصيص الملفقة ، والأحاسيس المحمومة ، واللغظ الذي قد لا يراد به إلا إزجاء وقت الفراغ . . . ذلك أننا لا نعدم أن تقع في الأسناد والحوادث على ما يبرر استهانة الناس بوسيلة الإصلاح التي تدعى إليها الفريقان المختصمان ، وما يقرم على كفرهم بها ، وغضهم من قيمتها ، والخاسم — في الأمانى أو الأفكار — حلا آخر يبعد عليها ومعاوية عن الليدان . . .

ونضرب الأمثال من الأسناد والحوادث فنجنزى بالقليل . . .
يوصى معاوية عمرو بن العاص حين يبعثه للقاء أبى موسى ، فيقول فيما قال :
« إن أهل العراق أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا أهل الشام راضون بك . وأرجو في دفع هذه الحرب قوة لأهل الشام ، وفرقة لأهل العراق . . . »
فليس مبتغاه إذن إلا هدنة تهل له ليزيد قوة يكون بها أقدر على بلوغ ما يتمناه . أما أن تجتمع الأمة برأى الحكيم وتعود لها وحدتها ، فذاك أمر لم يكن — فيما بدا من كلامه — يرجوه . . .
وبسر بن أرطاة يقول لمعاوية عند عقد الهدنة :

« . . . والله إن الشام لك خير من العراق لعلى . وما في يدك لك ، وما في يد على لأصحابه دونه . فإن كنت إنما سألت المدة لإعداد العدد وانتظار المدد فنعم . »
فلم يخالف الرجل بقوله عن نية مولاه . . .
بل ابن عباس أيضا قد قال مرة للحرورية :
« . . . قد أخذ على الحكيم ألا يجورا . وإن يجورا فعلى أولى من معاوية وغيره . . . »

فهو — ورأيه جماع رأى أهل العراق — لا يرى الأمر إلا لعلى ، عدل الحكمان أم جاراه . . . وما زانا نخالفه في شيء فحق الإمام في الأمر معلوم ، لا ينكره إلا مسرف في الحيف ، موغل في الإبطال . ولكننا نسوق قوله لأنه يكمل

الصورة التي تطلع لنا الحزبين جميعاً وكل منهما لا يرضى بغير الفوز بمبتغاه ، حكم
التحكيم له أو حكم عليه . . .
وكذلك كان . . .

وكذلك اهتزت ثقة الناس في الحكومة ورأوا نتيجتها قليلة الغناء من قبل
أن تكون . . .

وكذلك ترددت شائعاتهم ، تطرق مرة باب سعد بن أبي وقاص ، وتطرق
أخرى باب عبد الله بن عمر . ولو قد أملى لها الراحة تطرق كل باب تشيم وراءه
رجلا من أولئك « المعتزلة » من قریش ، أهل السابقة وذوى الأحساب . . .
لكن الحكومة تسير سيرها ، بطيئة متمثرة . ثم تفاجئ الدنيا فتطلع عليها
بأعجب نتيجة أسفر عنها تحكيم . فليست بيانا ، ولا رأيا ، ولا قضاء مستقى من
الدستور السماوى الذى أخذ العهد على الحكّامين أن يقضيا بما فيه . . . إنما كان
خطا فى موطن استقامة ، وعبثا فى مقام جد ، و « لعبة » جديدة كالأعياب
معاوية ورفيقه ابن العاص تفوق كل سابقاتها جنوحا إلى المحال ، وزيفامع الهوى
والضلال . . .

« تم بحمد الله الجزء الخامس »

ويليه الجزء السادس والأخير

مطبعة الحريّة - بيروت
تلفون : ٢٢٠٤٤٠